الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
كليّة الأدب العربي والفنون
قسم الدّراسات النقدية والأدبية

الشّعبة : دراسات نقدية وأدبية التّخصّص : نقد حديث ومعاصر

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في النّقد الحديث والمعاصر
موسومة بـــ

أدب الرّحلة عند أبي القاسم سعد الله

إعداد الطّالب:
بلعريبي مجاهد

إشراف الأستاذ:
د. ميلود عبيد منقور

لجنة المناقشة

الاسم واللّقب	الدّرجة العلمية	الصّفة	الجامعة الأصلية
أ/د فريحي مليكة	أستاذة التعليم العالي	رئيساً	جامعة مستغانم
د/ميلود عبيد منقور	أستاذ محاضر"أ"	مشرفاً ومقرراً	جامعة ع/تموشنت
أ/د سعيدي محمّد	أستاذ التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة تلمسان
د/ بوزيد نجاة	أستاذة محاضرة "أ"	عضواً مناقشاً	جامعة مستغانم
أ/د المكروم سعيد	أستاذ التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة مستغانم
د/ بحوص نوال	أستاذة محاضر"أ"	عضواً مناقشاً	جامعة مستغانم

السّنة الجامعية 2022-2023م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

شكر

قال تعالى:﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[سورة إبراهيم آية7]

وقال رسوله صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال:«**من لم يشكر النّاس لم يشكر الله**» رواه أحمد والترميذي.مادام الشكر عبادة بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فإني:

أتقدم أولا ودائما بالشكر الجزيل ، والحمد الكثير لله عزّ وجل، الّذي منى عليّ بإتمام هذه الرسالة.

كما أتقدم بالشكر إلى كل طاقم جامعة(**عبد الحميد ابن باديس**)بمستغانم، وبالأخص كلية الآداب والفنون الّتي منحتني هذه الفرصة الثمينة لمواصلة دراستي في الطور العالي –درجة الدكتوراه–.

كما لا أنسى تقديم آيات الشكر والامتنان لأستاذي المشرف(**ميلود عبيد منقور**) الّذي لم يبخل علي بتوجيهاته وإرشاداته القيمة، كما أشكر صاحبة المشروع(**نجاة بوزيد**) الّتي بذلت ما بذلت من جهد لإنجاح مشروعها.

والشكر موصول لأعضاء اللجنة كذلك الّذين تحملوا عناء قراءة رسالتي وتقويمها بتوجيهاتهم السديدة والقيمة.

وأشكر كل من أمدني بيد العون ولو بكلمة طيبة خدمة هذا المشروع إلى أن استقام عوده وصار عملا تاما بإذن الله.

وفي الأخير أسأل الله العليم القدير أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه لا أبغي من ورائه جزاء ولا شكور، وأقول في النهاية إن أحسنت فبتوفيق الله تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان الرجيم.

الطالب: بلعربي مجاهد

إهداء

إلى من قال فيهما الله تعالى:﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾[الإسراء:آية 23]

إلى من قال فيهما الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الّذي رواه البخاري في صحيحه: عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:(جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق النّاس بحسن صحابتي؟ قال:«**أمّك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمّك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمّك**». قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**».[ح: رقم 5971] السلسلة الصحيحة للألباني (ص) 1074 إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما.

إلى الزوجة الكريمة الّتي لم تبخل علي بوقتها وجهدها، رغم كل ما تكابده، وما تبذله من جهد جهيد في القيام بواجباتها المنزلية من إعداد الطعام، وتربية الأولاد...وغيرها من أتعاب.

إلى أولادي وإخواني وأصدقائي، وزملائي، وأساتذتي دون ذكر الأسماء، وإلى كل من قدم يد العون من قريب أو بعيد أهدي ثمرة هذا البحث.

بلعربي مجاهد

مقدمة

مارس الإنسان الرحلة منذ عصور قديمة ، بل منذ خلق الله آدم عليه السلام ، فكانت رحلاته الأولى بين بساتين الجنة، ثم بعد أن أخرجه الله منها ، وأنزله على سطح الأرض ، مارس رحلته الاستكشافية على وجهها ...ثم يأتي أبناءه مقتفينا أثره ، فمارسوها كفعل طبيعي وضرورة قصوى، لتحقيق متطلبات الحياة على اختلافها فكانت رحلاتهم متنوعة حسب الحاجة والضرورة ، فكانت منها : رحلات من أجل إيجاد أماكن لرعي أنعامهم و رحلات من أجل التجارة ، وأخرى من أجل الغزو أو العلاج...فهي كثيرة حسب حاجة الإنسان في ذلك العصر

أما عن الإرهاصات الأولى لتدوين الرحلات، فيعود إلى ما قبل الميلاد ، ودليل ذلك تلك الرموز والنقوش على جدران الكهوف، والمعابد... التي سكنها الإنسان البدائي؛ فدوّن تلك الرحلات بلغته الخاصة –الرسوم والنقوش الّتي عرّفها لنا علماء الآثار والمتخصصون – كما أنّنا عندما نقرأ ما خلّفه العرب في الجاهلية من نصوص كثيرة خاصة نصوص الشعر نجد أنّها تحكي رحلات، ومغامرات أصاحبها، وهم يجوبون الصحراء، ويبكون الأطلال...وهكذا.لكن ما يهمنا من كل هذا عملية التدوين الفعلية للرحلة عند العرب، الّتي بدأت مع حلول القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي[3هـ/9م]، على حسب ما جاء في نصوص النّقاد العرب.

إنّ أول ما اختصت به نصوص الرّحلة القديمة هو دراسة سطح الأرض؛ أو ما يعرف الآن بعلم الجغرافيا، و بعد دراست هذه النصوص والمتون، الّتي كانت بعيدة عن دائرة الأدب، من النّقاد والمتخصصين في هذا المجال؛ وجدوا أنّ منها ما يحفل بالكثير من الأساليب الأدبية الراقية، كدقة الوصف، وأساليب السرد السلسة، وبما تضمنته من جمال اللّفظ، وحسن التعبير والكثير من المحسنات البلاغية، وأمور أخرى تجعل النصوص ذات طابع أدبي كالأساطير، والتضمينات والإقتباسات الّتي تكسب الرحلة جمالا...، هذا باختصار عن مسار نصوص الرحلة الّتي ما لبثت حتى بدأت توضع على طاولة الدراسات الأدبية والنقد، كما صار لها مكانة أدبية في العصر الحديث، لا تقل عن الأجناس السردية الأخرى في التناول والدراسة والتأليف.

والرحلة في الأدب الجزائري سارت هي أيضا على غرار الرحلات العربية القديمة كرحلة: ابن بطوطة وابن فضلان وابن جبير... إذ جاءت في مجملها تعبر عن انطباعات أصحابها عن الآخر، ونقلا لصور ومشاهدات حقيقية في أغلبها تتخللها أخرى هي من صنع الخيال يستعين بها كاتب الرحلة لتشويق القارئ ، كما تبعث في نفسه المتعة واللذة، وبالتالي تصير عنده الرغبة في مواصلة القراءة ليتعرف على ما تضمّنته من أحداث ربما تكون أكثر إثارة وتشويقا من سابقتها ، لذلك كانت كتاباتهم عبارة عن لوحة فنية تزخر بمختلف ألوان الأساليب دون تكلف وزيادة، ونصوص الرحلات الجزائرية كثيرة إذا ما جئنا على ذكرها، فهي تعود في جذورها إلى ما قبل العهد

العثماني حتى يومنا هذا، لكن ما يهمنا في هذا البحث كعينة للدّراسة، رحلات العصر الحديث، وبالتحديد رحلات المؤرخ والأديب(أبو القاسم سعد الله)، حيث ترك هذا الأخير رحلات كثيرة مبثوثة في صفحات الجرائد وفي بطون كتبه منها: ثلاث رحلات جمعها كتابه الموسوم ب"تجارب في أدب الرحلة" ورحلة أخرى في كتابه الموسوم بـ "حصاد الخريف"، ورحلات أخرى ليس مجال ذكرها هنا . إذا هي أربع رحلات اقتصرت عليها في دراستي هذه، حاولت فيها تسليط الضوء على جوانب عديدة نذكر منها: المضمون باعتباره الجاتب الأهم في هذه الدراسة من حيث ارتقاء الوصف، وأدبية ما كتبوه من انطباعاتهم في رحلاتهم السريعة، إضافة إلى البنية الشكلية والسردية لها، وعلى منوال ما تطرقنا إليه صغنا عنوانا لهذا البحث كان كالتالي " **أدب الرحلة عند أبي القاسم سعد الله**" يتناسب مع ما نريد ونطمح الوصول إليه.

إنّ من البواعث العامة والمشتركة الّتي تحز في نفس كل باحث غيور على تراث أجداده، وتدفعه إلى الخوض في مغامرة جديدة في رحاب هذا التراث العريق، هو العزوف والصدود الكبير عن هذا النوع من الكتابات والإقبال بشكل كبير على غيرها، ولا سيما النصوص الروائية منها، وإن كانت الرحلة لا تقل في الأهمية عن الرواية من حيث المعرفة ونقل الأخبار...وكذا جمال أساليبها والخيال الّذي تميّزت به، ومن هذه البواعث أيضا كونها الرّافد الكبير للفن القصصي –أدب الرحلة– فهي بمثابة رد صريح على هؤلاء الّذين أرادوا التقليل من شأن الأدب العربي في ميدان القص، أو بشكل عام في المرويات على اختلافها،على حد تعبير "شوقي ضيف"، ومن البواعث الخاصة الّتي أعطتني دافعا قويا لاختيار "أدب الرحلة " كموضوع لأطروحتي هي كونها أدب جديد بالنسبة لي،حيث أردت التعرف على هذا النوع من الكتابات التي فاتتني دراستها في سنواتي الجامعية السابقة، وبواعث موضوعية نذكر منها : قلة الدراسات النقدية للرحلات الجزائرية عموما، ورحلات — أبي القاسم سعد الله– خصوصا؛ إذ ليس هناك دراسة منهجية درست رحلاته دراسة وافية وكافية من جميع الجوانب...هذا وغيرها من البواعث الّتي يطول ذكرها كانت حافزا قويا بعث في نفسي الرغبة لأخوض مغامرة هذا البحث، في هذا الفن الجديد القديم في نفس الوقت.

يسعى هذا البحث لإبراز مجموعة من الأهداف منها نذكر : التعريف بهذا الهرم الثقافي الكبير وإنجازاته خاصة في أدب الرحلة، ولفت انتباه الباحثين والنّقاد لأهم أعماله الفكرية، التي تنتظر من ينفض عنها غبار النسيان، و حتى توضع على طاولة الدراسة، واستخراج الدرر الّتي تزخر بها؛ إما على مستوى الشكل أوعلى مستوى المضمون (ولا سيما التاريخية منها) ، ومن الأهداف أيضا دعوة ضمنية للباحثين، والدارسين على اختلاف

مستوياتهم أن يعطوا هذا الفن العربي اهتماما أكثر و أكبر مما هو عليه ويقبلوا عليه بالدراسة، والنقد لاستخراج أسراره وفوائده التي تميزه عن باقي الفنون، وأيضا من الأهداف الّتي يطمح إليها هذا البحث، ولعلها الأهم هي: اكتشاف التقسيمات الشكلية لفن الرحلة عند (أبي القاسم سعد الله)، وتقييم درجة توافقها مع التقسيمات التقليدية، وغيرها من الأهداف الّتي سيتعرف إليها الباحث عند قراءة هذه الرسالة.

ولن يتأتى لنا هذا إلا بعد الإجابة على إشكالية هذا نصها: مامدى تمكن "أبو القاسم سعد الله" في هذا النوع من الكتابات التي أراد من خلالها تقليد أصحابها؟ وهل له إضافات جديدة تحسب له في هذا المضمار من حيث الشكل والمضمون على حد سواء؟، أم هي مجرد نفحات مزج فيها بين السيرة والرحلة قص فيها علينا رحلاته فحسب، وماهي الأخبار الّتي حفلت بها رحلاته... ،

وللإجابة على هذا الطرح، اعتمدنا على بعض كتب الرحلات، الّتي لها علاقة بموضوعنا ، ولو بطريقة غير مباشرة قد أضاءت لنا جوانب كثيرة في هذا البحث صعُبت علينا، من هذه المصادر نذكر منها: كتابي "عبد الرحيم مودن"، وهما على التوالي: كتاب أدبية الرحلة، وكتاب الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد– وكتاب "سميرة أنساعد" الموسوم بـ "الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري" و أطروحة الأستاذ الباحث (عيسى بخيتي) الموسومة بـ: أدب الرحلة الجزائري الحديث(سياق النّص وخطاب الأنساق)...،أما عن الدراسات التي تمس موضوعنا بشكل مباشر فهي قليلة جدا إلّا ما جاءت مبثوثة في مقالات، أو مجلاّت متخصصة، وللوصول إلى نتائج ترضي القراء على اختلاف مستوياتهم اقتضت الضرورة منهجية تلملم شتات الموضوع وتتلاءم مع نص الإشكالية، مع الاستعانة بالمنهج التكاملي ،و محطات يسيرة من المنهج المقارن، كما استعنا بمجموعة من آليات الإتجاه البلاغي، كما نلمح محطات غير يسيرة من الاتجاه الأدبي الواقعي على مستوى الفصل التطبيقي، تضافرت في مجملها لتخرج هذا العمل كما رسمنا له، مجيبينا ولو بقدر يسير على نص الإشكالية.

ويقوم هذا البحث على فصل تمهيدي ، وثلاثة فصول تآزرت كلها لتضيء جوانب من التساؤلات المطروحة، حيث تضمن الفصل التمهيدي إضاءة على الرحلة كممارسة ، ونشاط اعتاده الإنسان لقضاء مآربه من حيث قدمنا تعريفات لها كما جاءت في المعاجم العربية، ومفاهيم في الاصطلاح والاستعمال المستمد من كتب نقاد أدب الرحلة ، مع ذكر أهم دواعيها ودوافها ، والأهمية منها ، وذكر بعض الآداب الّتي لابد لصاحب الرحلة أن يعرفها، والصعوبات الّتي قد يحذر منها أثناء الرحلة، متطرقا قبل ذلك إلى ذكر رحلات تروح زمنها ما قبل الميلاد، وفي الاسلام.

وجاء بعده الفصل الأول الّذي وسمناه بـ"أدب الرحلة الجزائري" الّذي تعرضنا فيه إلى التعريف بأدب الرحلة ونشأته، ومراحل تطوره عند نصوص رواده ، كما ذكرت الأهمية منه ، وأهم القيم الّتي ميّزته على سائر الآداب الأخرى، وتاريخ تدوينه في السّاحة العربية ، ثم على السّاحة الأدبية الجزائرية، لنصل بعدها إلى عنصر مهم : تمثل في رحلات الجزائريين، والّتي تراوحت بين حقبتين زمنيتين هما: رحلات قبل التواجد العثماني في الجزائر ، ورحلات أثناء التواجد العثماني، وكل فترة ولها خصائص تميزها عن غيرها ، ثم انتقلت إلى ذكر أشكال وأنواع من رحلات العصر الحديث –رحلات سعد الله–، باعتبارها الرحلات المسلط عليها الضوء.

ويتبع هذا القسم من الدراسة الفصل الثاني ، والذي وسمته بأدب الرحلة (التجنيس، التقسيمات الشكلية، البنية:"الأدبية، السردية")، تطرقت فيه إلى الحديث عن قضية التجنيس ، والصعوبات الكبيرة الّتي تعترض التقعيد لهذه الدراسة ،بعدها قدمت مجموعة من آراء النقاد الّذين يقولون بأنّ الرحلة جنس كسائر الأجناس ، له خصوصيات تجعله جنسا قائما بذاته، ثم حاولت تقديم تلك التقسيمات الشكلية المكونة لمتن الرحلة على غرار ما جاء به "عبد الرزاق الموافي" ، وطبقته على نموذجين من الرحلات القديمة:(رحلة ابن بطوطة، ورحلة الورثيلاني) من أجل المقارنة ، والعودة إليها أثناء الدراسة لرحلات "أبو القاسم سعد الله"، ثم أتبعت كل هذا بتقديم مجموعة مفاهيم حول الشعرية "الأدبية" ، والبنية السردية، لأنها من أهم الدراسات الّتي ركزت عليها في الفصل التطبيقي .

وكان الفصل التطبيقي، الميدان الفسيح لتطبيق ما جئنا به في الفصول النظرية، على رحلات قد انتقيناها سلافا من كتب "أبو القاسم سعد الله" أول هذه الرحلات : رحلتي إلى المغرب العربي، وثاني هذه الرحلات وسمها صاحبها بـ: رحلتي إلى الجزيرة العربية، وثالثها رحلته الموسومة بـ: ربيع في سوف ، ثم آخر هذه الرحلات : رحلته إلى خنقة سيدي ناجي. كل هذه الرحلات خضعت لدراسة واحدة : تمثلت في دراسة البنية الفنية (الشكل، الشعرية، السردية)، يتقدمها نبذة موجزة عن حياة هذا الرحال ، وأهم أعماله الأدبية والتاريخية .

وانتهى البحث بخاتمة ، هي عصارة وزبدة هذا العمل المضني ، تمثلت في مجموعة من النتائج المتوصل إليها، انطلاقا من الفصل التمهيدي إلى الفصل التطبيقي، ارتأيناها أن تكون إجابة مقنعة كما كنّا نطمح إليها عندما طرحنا إشكالية هذا البحث، و لأنّ الدراسات حول هذا الموضوع غير كافية ، اعتمدت في التحليل والتفسير على فهمي لنصوص الرحلة، لذا أرجوا أن تكون محاولاتي في هذا الأدب قدمت اطلالة جديدة تعجب القراء ، وعشاق هذا الفن .

أما عن الصعوبات الّتي حاولت أن تعيق تقدم سير هذا البحث، فهي كثيرة منها: قلة المصادر والمراجع الّتي تناولت أدب الرحلة بالدراسة، وخاصة رحلات العصر الحديث، وصعوبات طارئة ، تمثلت في الحجر الصحي الّذي عطل تحركاتنا نوعا ما، و مرض الأستاذ، المشرف على هذا العمل، لكن مع كل ذلك واصلنا المشوار حتى استوى هذا البحث فكان مولودا جديدا يضاف إلى قائمة البحوث الّتي تناولت فن الرحلة ، أرجو أن يجد فيه الباحث ما يروي ضمأه العلمي ويسد حاجته، ويجيب عن بعض تساؤلاته.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت بتقديم خدمة ولو يسيرة تضاف إلى خزانة هذا النوع من الآداب، ولا أدعي الكمال فالنقص من طبع الإنسان؛ فإن كنت أصبت فبتوفيق الله وحده، وإن قصّرت فمن نفسي والشيطان الرجيم ، كما لا أنسى تكرار شكري الجزيل للمشرف أطال الله في عمره ، وأعضاء اللّجنة المناقشة، الّذين تحملوا عنائين: عناء قراءة البحث ، وعناء السّفر، فأجرهم على الله تعالى، والشكر موصول أيضا إلى كل من ساهم في إثراء هذا العمل ولو بكلمة طيبة.

تم هذا البحث بإذن الله يوم : 2022/03/14م

مدخل

الرحلة (ماهيتها و دواعيها و أهميتها وآدابها ورخصها وصعوباتها)

1– مفهوم نشاط الرحلة

1. 1– لغة :

1. 2– اصطلاحا:

2– لفظة رحلة وما في معناها :

2. 1– في القرآن الكريم

2. 2– في السنة النبوية الشريفة

2. 3– في الشعر العربي.

3 – دواعي و دوافعها نشاط الرّحلة:

4– رحلات ما قبل الميلاد.

* رحلات جاء ذكرها في القرآن الكريم

5 رحلات في الاسلام.

6– فوائد الرحلة

7– آداب الخروج في الرحلة

8– آداب الرجوع من السفر

9– رخص السفر

10– صعوبات تعيق الرحال.

1-مفهوم نشاط الرّحلَة:

1. 1- لغة:

جاءت مادة[رَحَلَ] ومشتقاتها في المعاجم العربية بدلالات تحمل معنى الحركة، أو الوسيلة الّتي ساعدت في فعل الحركة؛ ففي معجم لسان العرب لابن منظور(ت711هـ) "رحل: الرّحلُ: مركب للبعير والنّاقة...قال والرّحالة سرج من جلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للرّكض الشّديد،...يُقال: رحل الرّجل إذا سار ورجل رحول، وقوم رحّل: أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحّال عالم بذلك مجيد له،...ويروي عالم الدّار: والتّرحل والارتحال الانتقال...والرحلة اسم للارتحال المسير... الرّحلة بالضم القوة."[1]

و في القاموس المحيط عند الفيروز آبادي (ت1691م) : " الرّحلُ مركب للبعير...والرّحالة ككتابة السّرج...وجمل رحيل قوي على السّير...وارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلواكترحّلوا...الارتحال بالضم الوجه الّذي تقصده، والسّفرة الواحدة...ورحل كمنع: انتقل."[2] لا يبتعد الفيروز آبادي في تعريفه لمادة [رحل] ومشتقاتها عن من سبقه من علماء اللّغة ؛ فكلها تنضوي تحت الحركة والتنقل.

وفي المعجم الموسوعي نجده يُفصّل كثيرا في تعريفه بمادة [رحل] ومشتقاتها فذكر:" رحال...جمع 'رحل' للوعاء الّذي يضع فيه المسافر زاده ومتاعه...و 'رحل'...وعاء يضع فيه المسافر زاده ومتاعه...'رحلة'...التنقل.[3] يبدو أن (محمد مختار) لم يخرج عن الدلالة القرآنية لمادة [رحل].

وفي معجم اللّغة العربية المعاصر فتعني: " رحل الشّخص /رحل الشخص عن بلده سار ومضى...أرحل الشخص: كثرة أسفاره...ارتحل الشّخص عن البلد: تركها...استرحل الزّائر: سأله أن يرحل، أي يترك المكان ويبتعد عنه...رحّل الشيء: نقله من موضعه إلى موضع آخر... عمال التّرحيلة: عمّال ينتقلون من مكان لآخر سعيًا وراء العمل...سيّارة التّرحيلات: عربة تقوم بنقل المساجين إلى السّجن...".[4]من خلال التعريفات التي رصدناها، نخرج بفكرة مفادها؛ أن مادة [ر ح ل] في مختلف المعاجم، سواء القديمة منها أو الحديثة لا تنفك عن

---

[1] ابن منظور الإفريقي، لسان العرب دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، دط، دت، مج11، مادة[ر-ح - ل] ص274 .280

[2] ينظر مجد الدين الفيروز آبادي ن القاموس المحيط، راجعه واعتنى به: أنس محمد الشامي، زكريا أحمد جابر، دار الحديث القاهرة، دط، 2008، ص626

[3] أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة الرّياض، ط1 2002/1423م، ص203

[4] أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللّغة العربية المعاصرة، مج1، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008 ص869، 870

معنى الحركة والتنقل، أو كل ما يساعد على السير ويخفف من عناء الترحال من وسائل ، كا لمركب ، أو السّرج ، أو ما يوضع فيه متاع المسافر إلى غير ذلك.

1. 2- اصطلاحا :

المفهوم اللّغوي والاصطلاحي لمصطلح :[رحلة] لا يختلفان كثيرا من حيث الدلالة حيث نجد أنها "جاءت بمعنى السّير والانتقال والوجهة، أو المقصد الّذي يريد السّفر إليه، وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه، أو اقتراب وقت الرحيل؛ ولهذه المعاني كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر ومنه أخذ لفظ [رحّال] وهو الشخص المنتقل من مكان لآخر."[1] أما عند فؤاد قنديل فيعتبرها:" سلوك إنساني حضاري يؤتي ثماره النّافعة على الفرد، وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرّحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرّحلة هي ما كانت عليه قبلها."[2] الواضح من القول أنّ الرحلة سلوك يولد مع الإنسان، فهو من طبيعته منذ جاء إلى الحياة وأبصر النّور ليستكشف ما حوله، وبالتالي يوسع من معارفه ويجعله يفقه ما حوله، ويسخر الطبيعة لخدمته، كما يبين لنا أنّ الشّخص الّذي يمارس الرحلة، أفضل من حيث المعرفة، من الشخص القابع الّذي لا يتحرك؛ فالرحلة " وسيلة من وسائل جمع المعارف، فقد كانت أيضا فرصة لاكتشاف الآخر، والأخذ عنه وإثارة الشعور بالمنافسة والرغبة في التفوق والطموح إلى السّيادة."[3]كما أنها " نقلة في المكان والزّمان، وسفر داخلي في فكر صاحبها ومعارفه، وموقفه من الحياة والوجود ونظرته إلى النّاس والمجتمع."[4]والرّحلة كممارسة يقوم بها الإنسان، تقتضيها طبيعة الحياة، فعندما تخلو حياة الإنسان من الحركة، فالمعلوم بأنه شخص ميت؛ فالحركة هي علامة الحياة، والسعادة.

والرحلة نشاط وممارسة لها عدة معاني منها:[5]

التنقل من مكان إلى مكان آخر بالمفهوم الجغرافي، أو السّياحي، ثم الإياب إلى مصدر الانطلاق.

التنقل من حيّز إلى حيز آخر بالمفهوم الأسطوري الخرافي...

---

[1] خير الدين شترة، المهاجرون الجزائريون إلى البلاد التونسية، دار كردادة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2013، ص344

[2] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدّار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص21

[3] المرجع نفسه، ص68

[4] جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014م/2015م، ص (ب).

[5] ينظر عبد المالك مرتاض، رحلة نحو المستحيل –تحليل سيميائي مركب لقصيدة رحلة المراحل لسعد الحمدين –الانتشار العربي بيروت، ط1، 2007، ص81، 82

المغادرة من مكان إلى آخر، ولكن في هذه الحال دون العودة فقد يتعرض المرتحل لأي جريمة تقعده أو لمرض مفاجئ...

الارتحال من أجل العمل والكدّ، أو الارتزاق...

الارتحال من أجل تحقيق غاية روحية أو دينية كالهجرة من أجل الحفاظ على إيمان معتنق....

قد تكون الرحلة من بلاد بعيدة إلى بلاد أخرى لطلب العلم....

قد تكون الرّحلة من أجل الاستشفاء...

قد تكون الرحلة بعيدة الشقّة....

قد تكون الرحلة أيضا قريبة غير بعيدة فتقصر شقتها...

الرحلة تدل على الحركة والمغامرة والاستكشاف والاضطراب.

والرحلة تفضي إلى تغيير المشاهد واستبدال المناظر.

وكخلاصة تكشف تشابه التعريف المعجمي مع المفهوم الاصطلاحي والنقطة المشتركة الّتي توحد بين المفهومين؛ ألا وهي الحركة وهي عصب الحياة وروحه، بل هي الحياة نفسها، وفي هذا النهج سار النّاقد (ناصر عبد الرزاق الموافي) حيث قدّم مقولته التي يبن فيها نقطة التّماس بين الرحلة في اللّغة ، والرحلة في الاصطلاح قال: "الرحلة في جوهرها حركة- وهذه الحركة ذات هدف وإلا كانت سفها —قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم في الحالتين كلتيهما اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالطة، وبذلك يتم التّقابل بين الرّحلة في اللّغة والاصطلاح حيث يجمعهما أنهما حركة"[1] والرحلة في جوهرها " لقاء ثقافي أي لقاء ثقافتين."[2] ثقافة(الرحّالة) بثقافة الآخر، أوهو المرتحل إليه.

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النّشر للجامعات المصرية، مصر، ط1، 1415 هـ/1995 م، ص25

[2] عزت قرني: رحلتان، فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 5، ع4، يوليو، أغسطس، سبتمر، 1985م ص119.

2- لفظ "رحلة" وما في معناها :

2. 1- في القرآن الكريم:

ورد لفظ [رحلة] في القرآن مرة واحدة؛ وذلك في قوله تعالى:﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَاالْبَيْتِ(3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4)**﴾[1] وفي هذا الموضع إشارة إلى أنّ رحلة قريش ارتبطت بزمنين، زمن الشّتاء وزمن الصيف، وهي من صميم رحلات دافعها الضرورة.

كما وردت صورتين لمادة [رحل] في سورة يوسف بدلالتين متباينتين: الأولى بمعنى الوعاء، وبصيغة الجمع قال تعالى:﴿ **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[2] رحالهم بمعنى الوعاء، أو الحامل للبضائع.

والثانية بنفس دلالة اللفظة الأولى ولكن بصيغة المفرد، قال تعالى:﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**﴾.[3] رحل مفرد لكلمة رحال الّتي وردت في الآية السالفة.

تنوعت الألفاظ والمفردات الدالة على نشاط الرحلة في القرآن الكريم، وهذه الكثرة والتنوع إن دلت فإنما تدل على الأهمية الكبيرة الّتي أولاها الله جلا وعلا لنشاط الرحلة، والحث عليها لفوائدها الجمة التي يعود نفعها على الإنسان.

كما لا يفوتني هنا أن أنوه بالجهد الكبير الّذي بذلته الدكتوراه (سميرة أنساعد)، والمتمثل في إحصاء المفردات القرآنية الّتي تدل على نشاط الرحلة، والّتي كان منها"الظعن والسفر، والحج، والهجرة، والسير...."[4] وهذا معنى بعضها كما جاءت في القرآن الكريم:

- الظعن بمعنى الرحلة:﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ** ﴾[5] يوم ظعنكم؛ أي يوم رحيلكم.

---

[1] سورة قريش، الآية:1-4

[2] سورة يوسف، الآية:62

[3] سورة يوسف، الآية:70

[4] سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري –دراسة في النشأة والتطور والبنية-دار الهدى عين مليلة – الجزائر، دط، 2009، ص17

[5] – سورة النحل، آية 80

– وفي قال تعالى:"﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[1] الإسراء بمعنى السير ليلا .

– **السّفر** في اللّغة" قطع المسافة والجمع الأسفار...وسميّ السّفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافيا منها "[2] قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون** ﴾[3]. تحثونا هذه الآية الكريمة بالتزام الرخص، التي أنعم الله بها على عباده في يوم ضعنكم.

– **الحج بمعنى** " القصد والكف والقدوم...وقصد مكة للنّسك."[4] قال تعالى:﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾[5]الحج هو نوع من الرحلات الدينية الحجازية.

والهجرة بمعنى "الخروج من أرض إلى أخرى" أي الانتقال والرحيل، قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلً**﴾[6] أي ابتعد عنهم واترك أثرا طيبا فيهم يتذكرونك به لعلهم يتفكروا ويرجعوا عن ما هم فيه.

– **السير بمعنى الرّحلة** قال تعالى:﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾[7] الرحلة لأجل العبرة والتفكر في من سبق من الأمم البادية.

–**المشي بمعنى الرحلة** قال تعالى:﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[8] أي أنّ الله قد ذلل وهيّأ لنا ما في هذه الدنيا من السبل في البر والبحر، من أجل طلب الرزق.

2. 2– في السنة النبوية:

ورد مصطلح رحلة في الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة منها:عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا:(إذا

[1] – سورة الإسراء، آية 1.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص368

[3] – سورة المائدة، آية 6

[4]:الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص331

[5] سورة الحج، الآية، 27

[6] سورة المزمل الآية 10

[7] سورة محمد ، الآية 10

[8] سورة الملك ، آية15

قَضَى أَحَدُكُم حَجّهُ فَلْيُعَجل الرّحْلَةَ إِلَى أَهْله، فَإِنَّه أَعْظَمُ لأَجْره)[1] الرحلة هنا بمعنى الرجوع، أوالعودة، الّذي لا يتم إلا بفعل الحركة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (لا تُشَدُّ الرّحَالُ إلّا إلى ثَلَاثَة مَسَاجدَ: المَسْجد الحَرَام، وَمَسْجد الرَّسُولﷺ وَمَسْجد الأَقْصَى).[2] الحديث فيه إرشاد وتحبيب لفعل الرحلة وبخاصة هذه الآماكن أو المساجد.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(عَلَيْكَ بالْهجْرَة، فَإِنَّهُ لَا مَثْلَ لَهَا...)[3] الحديث تضمن دعوة إلى ممارسة نشاط الرحلة.

ومن بين الأحاديث الشريفة الّتي تضمن الحث على الرّحلة، قوله صلى الله عليه وسلم:(ما خرج رجل من بيته يطلب علما إلا سهّل الله له طريق إلى الجنة)[4].الرحلة وسيلة من وسائل طلب العلم ، وبالتالي نيل رضوان الله ودخول جنته.

وقال صلى الله عليه وسلم:(سافروا تغنموا وصوموا تصحوا.)[5] جعل النبي صلى الله عليه وسلم السفر غنيمة، والصوم صحة .

هذه بعض الأحاديث النبوية الّتي فيها إشارة واضحة، ودعوة صريحة لممارسة نشاط الرحلة أوالسّفر حيث أسفرت عن بعض الفوائد الكبيرة الّتي تقدمها للفرد والمجتمع.

2. 3- في الشعر العربي:

قال الشافعي:

مَا فِي المقَام لذي عَقْل وَذي أَدَب من رَاحَة فَدَع الأَوْطَان واغْتَرِبْ

سَافرْ تَجد عوَضًا عَمَّنْ تُفَارقُهُ وانْصبْ فَإِنَّ لَذيْذَ العَيْش في النَّصَب[6]

قال النابغة الذبياني:

---

[1] محمد ناصر الدّين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ط1، 1425هـ/2004م، ص278 رقم ح:[1533]

[2] أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري، دار صادر بيروت، ط1، 1425هـ/2004م، مج1، ص209 رقم ح:[1189]

[3] محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي بيروت، ط3، 1408هـ/1988م، مج1 ص747، رقم ح:[4045]

[4] محمد ناصر الدين الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج1، ص982 رقم ح:[5617]

[5] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك في السّفر ومدحه وذمه ومحاسن الأخلاق فيه، تح:رمزي بعلبكي وجلال الأرفه، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 2011، ص05

[6] الإمام الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، تح:إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 2013، ص53

أَمنْ آل مَيَة رَائحٌ أَوْ مُغْتَديْ عَجْلَانٌ، ذَا زَاد، وَغَيْرَ مُزَوَد

أَفْدَ* التّرْحَالُ، غَيْرَ أَنَّ رُكَابَنَاْ لما تَزَلْ برحَالْنَا، وَكَاْنَ قَد**

زَعَمَ الْبَوَاْرِحُ أَنّ رحْلَتَنَا غَدًا وَبذَاْكَ خَبَرَنَا الغُدَاْفُ*** الأَسْوَد

حَاْنَ الرَّحيْلُ، وَلَمْ تُوَدعُ مُهَدَدًا وَالصُّبْحُ وَالإمْسَاْءُ منْهَا مَوْعدي[1]

و قال كثير ابن عزة واصفا حالة الإياب لمّا أتموا مناسكهم:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنَى كُلَّ حَاجَةٍ8 وَمَسَحَ بالأَرْكَاْنِ مَنْ هُوَ مَاْسِحٌ

وَشُدَّتْ عَلَى حَدَبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا وَلَمْ يُبْصرْ الغَادِيُ الَّذيْ هُوَ ٰرائحٌ

أَخَذْنَا بأَطْرَافِ الأَحَاديْثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بأَعْنَاقِ الْمَطيّ الأَبَاطِحُ[2]

وقال المتنبي:

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلَاْمَةٌ حَيْثُ اتَّجَهْتَ وَدِيْمَةٌ مدْرَار[3]

يتبين لنا من هذه النماذج الشعرية أن للفظ الرحلة العديد من المفردات التي تؤدي معناها ودورها سواء في النّص القرآني، أو الحديث النبوي، أو الشعر العربي ، وحتى النص النثري ذاته،نذكر منها السّفر وهو سنامها والسير، والمشي والخروج، والظعن والإسراء، الغدو، الرّواح....الخ.

3- دواعي ودوافع نشاط الرّحلة:

تعدّدت الدوافع أو الدّواعي المحركة للإنسان، ليضطلع بفعل الرحلة والتنقل إلى مكان آخر يعيش فيه ، أو من أجل البحث عن ما يسد متطلباته، ويمكن عد دافع الضرورة " من أقدم الحوافز البشرية المسببة للرّحيل، فالحروب والنزاعات المحلية والمجاعة...كانت كلها سببا لرحيل الإنسان "[4] والدافع الثاني الذي دعا الإنسان للرحيل هو طلب العلم؛ فالمتأمل في كتب الرحلات عموما يجد أن أغلب الرحلات كانت لغرض علمي، وإن اقترنت

[1] النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم، عباس عبد السّتار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1416-1996، ص 105، 106.

*أفد: دنا.وقد: اقترب ** البوارح: من الطيور التي يتفاءل بها العرب، والواحد بارح. ***الغداف: الغراب المصدر نفسه ص105 ، 106

[2] بسيوني عبد الفتاح فيود، قراءة في النقد القديم، ط1، 2010/1431، مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص232

[3] أبو منصور الثعالبي زاد سفر الملوك في السّفر ومدحه وذمه، ص18

[4]- لطيف زيتوني، السيميولوجيا وأدب الرحلات، مجلة عالم الفكر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولت الكويت، مج:42: ع3، يناير، مارس، 1996، ص258

بمقصد ثاني لكن لا تنفك من القصد العلمي، حتى لا نكاد نفرق بين الحافز الرئيسي، والحافز الثانوي؛ فرحلات "الأندلسيين والمغاربة عموما إلى المشرق طلبا للعلم، ونضيف رحلات طلابنا إلى الغرب للغرض نفسه، ونذكر من هؤلاء(رفاعة الطهطاوي)الّذي دون رحلته في كتاب(تخليص الإبريز في تلخيص باريس) ومن باب العلم – الاكتشاف – فالرحلات البحرية كانت سبيل العلماء إلى معرفة الأرض وشعوبها وجغرافيتها، والرحلات الفضائية كانت ومازالت رحلات علمية لمعرفة نظام الشمس ،وإمكانات الإفادة من كواكبه."[1]

والحافز الثالث هو المتعة: وهذا حسب ما جاء في قول الناقد (لطيف زيتون) الّذي هذا نصه: "المتعة هي لذة السفر، هي نداء البعيد والابتعاد عن المألوف، والمعتاد...هي الرحلة إلى الاستقلال، إلى الحرية حيث المهم هو السّفر والبلد الذي نسافر إليه.[2]

يقول ابن خلدون، في مقدمته عن دافع الرحلة عند العرب القدامى، الذين كانت حياتهم حياة بدو، ومعاشهم في تربية الأنعام بصفة عامة؛ تلك الحياة والوضع القاسي كان دافعا لأن يسلكوا هذا المسلك، الذي لا مناص منه، وهذا ما أكده حينما قال: "و من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر، فهم ظُعّن في الأغلب للارتياد المسارح، والمياه لحيواناتهم؛ فالتقلب في الأرض أصلح بهم...و أما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا...إذ الإبل أصعب الحيوانات فصالا ومخاضا... فاضطروا إلى إبعاد النُّجعة.*"[3]

وعلى هذا القياس يمكن أن نصنف الرحلات كالآتي:

3. 1– الرحلة الهروبية: معناها هو "أن تصبح الحالة في الموطن الأصلي مستحيلة، بحيث لا يطيقها المهاجر أو يبدو له على الأقل إنها تفوق احتماله."[4] أو يفكر في الهروب لبلد آخر فرارا "من حالته المضنية بحيث يعتقد أنه سيجد بديلا "[5] مناسبا ينعم فيه بالهدوء والسلام والطمأنينة، ويندرج هذا النوع من الرحلات تحت باب الضروريات، ومن بين هذه الرحلات التي هرب صاحبها لسبب من الأسباب، لفقر أو لظلم، هروب سيدنا(موسى عليه السّلام) من ظلم فرعون له من بلده –مصر – الذي صارت راحته فيه مستحيلة، والملأ يترصدون ويحاولون قتله إلى أن "وصل(مدين)، وليس معه طعام، وكان يأكل ورق الشّجر ولم يكن له قوة على المشي، فلما ورد ماء

---

[1] لطيف زيتوني، السيميولوجيا وأدب الرحلات، مجلة عالم الفكر ،ص258

[2] المرجع نفسه، ص258

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار نهضة مصر للنّشر، مصر، ط7، 2014، ص471

* النجعة: أطلقت النجعة على كل رحلة وانتقال من بلد إلى بلد: المرجع نفسه، ص471

[4] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، 1989 ، ص80، 81

[5] بوعزيز يحي، السّياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات الشعب الجزائري (1930م، 1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دط، 1995، 237.

مدين(البئر) وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهما امرأتين تحبسان غنمهما...فسقى لهما غنمهما...[1] إلى آخر قصة النبي موسى عليه السلام مع نبيّ الله شعيب، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

كما ذكر ابن خلدون نموذجا، لرحلة كان دافعها الهروب من وباء خطير، هو وباء الطاعون، في معرض تصريحه عن الأسباب التي حالت بينه وبين طلب العلم، وهي هجرة العلماء والأدباء يقول:" وأما الحادث الآخر فهو هجرة معظم العلماء، والأدباء من هذا الوباء الجارف من تونس، إلى المغرب الأقصى سنة [750هـ] مع سلطانه(أبي الحسن)* صاحب دولة بني مرين."[2] فهي رحلة هرب من وباء الطاعون والنجاة منه .

3. 2 – الرحلة التجارية: التجارة هي نشاط اقتصادي يتم عن طريق تبادل السّلع بين طرفين:بائع، ومشتري وهي ضرورة من ضروريات الحياة، والّتي تساهم بشكل فعّال في استمرارية رقي الجنس البشري، وطبيعة الإنسان الاجتماعية تفرض عليه التعايش مع أقرانه؛ لأن الفرد الواحد بحاجة ماسة لغيره، ولأنّ متطلباته كثيرة، ومتنوعة، فلا يستطيع تلبية كل حاجاته بمفرده، لذلك كانت " التّجارة منذ القديم دافعا لإنجاز الرحلة، لكنها وصلت درجة بالغة الأهمية في العصر العباسي، بعدما تطورت الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي...فأصبح التّجار يسافرون إلى أراضي جديدة عن طريق القوافل والّسفن؛ فبلغوا بمغامراتهم الصّين، والهند، وإفريقيا، وساهموا في نشر الإسلام بهذه الدول، ومن أشهر الرّحلات التجارية رحلات ياقوت الحموي(ت626هـ) والّتي بفضلها ألف كتابه' البلدان '.[3]

3. 3– الرحلة العلمية: الدافع هو ولا شك طلب العلم والاستزادة منه، وهذه الرحلة ليست مقصورة على علم بعينه، ولكن تشمل جميع العلوم، كما أنها ليست لها وجهة محددة بل يحددها مكان وجود عالم ذاع صيته ونبوغه في علم من العلوم، أو مكان عرف أهله بالعلم، حتى وإن بعدت المسافات، وقد حثّت شريعتنا السّمحة على طلب العلم؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:«من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يوّرثوا دينارا ولا درهما، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ

[1] عبد الرحيم ماردیني، المبين في قصص الأنبياء، والمرسلين، دار المحبة دمشق، دار آية بيروت، ط1، 2016، 2017، ص161

* – هو "علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى 'أبا الحسن' لقبه المنصور بالله، مولده في صفر سنة سبع وتسعين وستمائة (697هـ)، بويع له بعد أبيه يوم الجمعة: الخامس والعشرين لذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة (731هـ) كان من أفخم ملوك بني مرين.ينظر، العباس بن إبراهيم السملالي، الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات الأعلام، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط، 1997/2م، ج 7، ص 171

[2] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص47

[3] سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص29

بحظّ وافر.»[1] وهذه الرحلات – العلمية – "هي من أشهر الرّحلات، وأكثر كتاب الرحلة كتب عن مغامراتهم في طلب العلم.

ويتعدد هذا النوع بتعدد أغراضه، ومقاصده، فهناك الرّحلات الاستكشافية، والرّحلات الدراسية، ورحلات لقاء العلماء والأخذ عنهم ، ورحلات التنقيب، والقراءة، والبحث...وقد جاب المسلمون الأوائل الأرض طلبا للعلم، وسعيا وراء الشيوخ والعلماء للنّهل من علومهم...بل تعدّى ذلك إلى نشر علومهم، ومعارفهم في المدن والأمصار...وهو ما يدخل في مجال الدعوة إلى الله، وتعليم الإسلام...ويدخل في إطار الرحلة العلمية، ما كان دافع الرّحلة فيها، حضور النّدوات والملتقيات العلمية والأدبية.[2] والأمثلة كثيرة عن الرحلة العلمية كما هو معلوم عند الكثير من النّاس.وهو أنّ علماءنا ورواد الحديث "أمثال الإمام البخاري، والإمام بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ويحي بن معين، وأمثالهم ألاف، هؤلاء كلهم، كانوا يرحلون لطلب الحديث إلى البلدان النائية، حتى أن بعضهم رحل إلى اليمن ليسمع حديثا."[3]

3. 4– **الرحلة الدينية**: ارتبطت الرحلة الدينية في الأغلب بتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام – الحج أوالعمرة، كما يمكن لنا أن ندخل في هذا النوع من الرحلات:زيارة مسجد من المساجد، التي عرفت بعظم فضلها وهي على التوالي: المسجد الحرام، ومسجد الرّسول، ومسجد الأقصى، فقد حثّ رسولنا صلوات الله عليه وسلّمه على زيارة هذه المساجد فقال صلى الله عليه وسلم:« لا تُشد الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ومسجد الأقصى.»[4] فكل وجهة إلى مكان ما عرف بقداسته الدينية، أو لما فيه من أشياء قدستها الشريعة الإسلامية مثلا : زيارة قبر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحة الأنبياء، والأولياء الصالحين والحج إلى البيت المقدس بالنسبة للمسيحيين، والرّحلة إلى نشر الدين، وتعليم الإسلام. والملاحظ أنّ هناك تداخل بين الغرضين العلمي والدّيني في أكثر الرّحلات، "ومن أشهر رحلات الحج: رحلة ابن جبير، ومحمد العبدري، وابن بطوطة."[5] وتعد الرحلة الورثلانية رحلة دينية علمية، فوجهتها تأدية نسك الحج، وعلمية لما قام به صاحبها من لقاءات لكبار العلماء.

3. 5 –الرحلة السيّاحية والثقافية: وتندرج تحت الحافز الثالث، حافز المتعة؛ الذي يحقق لذة السفر، والترفيه عن

---

[1] عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب تح: محمد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر والتوزيع، الرّياض، ط1، 1424هـ، مج1 ص93 رقم ح: [106 -70 -4].

[2] سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص24.26

[3] محمد بن ناصر العبودي، حصاد الرّحلات، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، دط، 1428هـ، ص9

[4] أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري، مج1، ص209، رقم ح:[1189]

[5] سميرة أنساعد الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص28

النفس، وتغيير الأجواء، والتمتع بالطبيعة، والتّعرف على بلاد جديدة ومعرفة تقاليد سكانها، وعاداتهم، ونمط حياتهم، ووجهة السُّيّاح في العادة تكون إلى البلدان التي وهبها الله طبيعة خلابة، أو تكون إلى البلدان التي اشتهرت بجمال مدنها، وهندسة عمرانها العجيب، إلى غير ذلك من الدوافع التي توقد نار الشوق في قلب المحب لشد الرّحال إلى هذه البلدان؛ إذا هي رحلة" تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسّفر لذاته، وحب التنقل وتغيير الأجواء، والمناظر، وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة، ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة، والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع...أو للتعرف على المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب."[1]

3. 6- الرحلة السيّاسية:أي لها دافع سيّاسي، وهي من باب الضروريات؛ لأنها متعلقة بخدمة بلد وأمة بأكملها، والتي يسعى لأجلها أصحاب السّياسة لخدمة شعوبهم، وتحقيق مصالح بلادهم منها "الوفود والسّفارات التي يبعث بها الملوك، والحكام، إلى ملوك، وحكام الدول الأخرى؛ لتبادل الرأي، وتوطيد العلاقات، أو لمناقشة شئون الحرب والسّلام، أو تمهيد لفتح، أو غزوة.[2]

3. 7 – ا لرحلة الاستكشافية: تتعلق باستكشاف منطقة، أو بلد، أو مغارة، أو كهف...إلخ ويدخل في هذا الباب رحلات (كريستوف كولومبس) الذي اكتشف القارة الأمريكية، ويقول الشيخ (محمد بن ناصر العبودي) في محاضرته التي ألقاها في جامعة أم القرى بمكة المكرمة في حديثه عن الاستكشاف الّذي اعتبره:"تمهيد للاستعمار والاستملاك، وقد حداهم ذلك الطمع في ثروات البلدان."[3] ومن بين الرحلات الاستكشافية رحلة (الدين الأغواطي) "فالرحلة قامت على استجابة لرغبة خاصة، من شخصيّة سيّاسية تتمثل في شخص 'ويليام هود سون 'مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر 'ويليام شيلر'(1825م- 1829م)، وقد امتثل ابن الدين لطلب' هود سون '، وذلك من أجل اتفاق مادي بينهما –طبعا- وقد دونت الرحلة باللغة العربية، ثم قام صاحب الطلب بترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في مجلة 'أمريكا الشمالية 'سنة(1832م)"[4] والمتأمل في زمن الرحلة يدرك الغاية من الرحلة فهي لا تبعد بزمن طويل عن احتلال الجزائر.

3. 8 – الرحلة من أجل العلاج: وهي رحلة اضطرارية، تدخل تحت باب الضروريّات لأجل الاستشفاء وعلاج مرض ما استحال علاجه في بلده، لعدم وجود أطباء متخصصين، أو لأن البلد من الدول المتخلفة، التي لم تتمكن

[1] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص20

[2] المرجع نفسه، ص20

[3] محمد بن ناصر العبودي، حصاد الرحلات، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، دط، 1428هـ، ص7

[4] نقلا عن :عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث –سيّاق النّص وخطاب الأنساق –أطروحة دكتوراه، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2015م/2016م، ص42

من توفير العلاج لسكانها، أو لتهاون المسئولون في هذا القطاع، وإهمالا له. وهذه الرحلات انتشرت مؤخرا بأعداد هائلة في بلدنا الجزائر نحو دول أخرى لطلب العلاج، خاصة نحو تونس وفرنسا...وغيرها من الدول المتقدمة.

4- رحلات ما قبل الميلاد :

ذكرنا أنّ حياة الإنسان كلها رحلة، منذ خلق الله آدم عليه السّلام؛ فنزول أبونا آدم من الجنة إلى الأرض رحلة، وبحثه عن أمّنا حواء رحلة، وبحثه عن مأوى له هو وزوجه يعتبر رحلة، وتجواله في هذه المعمورة رحلة...ورحلته من الدنيا إلى القبر بعد موته يعد رحلة، إذا حياة الإنسان رحلة منذ أن يبصر النور إلى أن يوارى التراب... ربما من أقدم الرحلات الّتي يمكن الحديث عنها هنا، رحلات حدثت قبل الميلاد نذكر منها على سبيل التنويه فقط" رحلة بحرية رسمية إلى بلاد 'بنت ' في عهد 'خوفو فرعون مصر' الّذي حكم حوالي الألف الثالثة ق.م، وهناك الرحلة البحرية الشهيرة في عهد الملكة 'حتشبسوت ' إلى بلاد 'بنت' في حوالي(1500ق.م) لاستيراد البخور والعطور، وقبل هاتين الرّحلتين هناك إشارة إلى رحلة بحرية إلى الشام وجزر البحر الأبيض حوالي الألف الرابعة قبل الميلاد تمت في عهد 'سنفرو' سنة(3200 ق.م) وكانت مؤلفة من أربعين سفينة، وقد كلفها الملك باستحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السّفن، وهناك الطرق البرية في اتجاه جنوب القارة إلى بلاد'كوش' وبلاد'يام'، والّتي تدل على تنظيم رحلات اتخذت هذه الطرق سبيلا لبلوغها أهدافا سواء للتّجارة أو للبحث عن الفارين، أو للبحث عن منابع النّيل، ومثل هذه الرّحلات البرية تمت عبر سيناء، وفلسطين إلى الشام، وواد الرافدين..."[1] .

يذكر لنا الباحث الفرنسي (مودوي)رحلة من أقدم الرحلات في العالم على حد تعبيره، وهي متعلقة بالمصريين القدامى يقول:" الرحلة الّتي قام بها القدماء المصريين عام(1493)قبل الميلاد من أقدم الرّحلات التجارية والإثنوجرافية على الإطلاق، ذلك حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر، أسطول مكون من خمسة مراكب، وعلى متن كل مركب، واحد وثلاثون فردا؛ وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة الّتي شكلت آنذاك البخور والعطور...ولعل من بين أقدم الرحالة القدامى الّذين سجّل لهم التّاريخ إسهاما جغرافيا وإثنوجرافيا نذكر

[1] فؤاد قنديل، أدب الرحلات في التراث العربي، ص27، 28

الرّحالة (هيرودوت) * الّذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد؛ ففي كتابه 'التواريخ' حرص هيرودوت على تقديم كل ما يستحق التّسجيل عن التّاريخ الإنساني حتى زمانه، فقد قدم معلومات في تسعة فصول عن حوالي خمسين شعبا، من خلال رحلاته وقراءاته، إلى جانب وصفه الدقيق للحرب، الّتي دارت بين الفرس والإغريق ، إبان القرن السّادس قبل الميلاد، وقد جاء وصفه لمصر أيضا دقيقا وشيقا، كما كان (هيرودوت) أول من جاء بوصف دقيق عن قبائل البدو بليبيا من ناحية أصولهم العرقية، وطريقة حياتهم."[1]

ومن بين الرحلات التي حدثت قبل الميلاد: رحلة (أفلاطون) الفيلسوف اليوناني صاحب نظرية المحاكاة وتلميذ سقراط شهيد الكلمة الّذي قتل ظلما فـ" عندما مات سقراط رأى أفلاطون أنه من الأوفق له أن يغادر أثينا إذ أن جهوده لإنقاذ (سقراط)جعلته في نظر السلطات رجلا موصوما، فبدأ رحلته حول العالم...حيث زار ايطاليا وصقلية، حيث صدمته حياة الشهوات والمجون، الّتي يحياها أهل هذه البلاد، ومنها عرج على مصر وفلسطين، فلما عاد إلى أثينا، بعد اثني عشر عام كان قد اختزن في ذهنه حكمة العالم القديم بأسرها، فافتتح مدرسة للفلسفة في حدائق أثينا الجميلة..."[2] ومن الرحلات القديمة الّتي كان أبطالها فلاسفة اليونان تلميذ أفلاطون 'أرسطو ' الذي كان رحيله"عقب موت 'الإسكندر الأكبر' في بابل عام(322ق.م) استولى الحزب المعارض لسيطرة مقدونيا على السلطة في أثينا بزعامة –ديموستين- فاضطر (أرسطو) إلى أن يتخلى عن رياسته للمدرسة لخليفته:ثيوفراسطسTheophrastus وأن يسارع بالهرب إلى مدينة خالقيس المقدونية، والّتي محل ميلاد والدته أما سبب هذا الرحيل، فهو خوفه من مؤاخذة المسئولين الأثينيين، بسبب علاقته القديمة 'بالاسكندر'وأسرته، ولأن مدرسته كانت تحت الرعاية المقدونية، بينما كانت أثينا تتحول إلى مركز عدائي لمقدونيا..."[3] هذه بعض من الرحلات القديمة الّتي حدثت قبل الميلاد، وهي لا تختلف من حيث دواعي الرحلات الّتي سبق ذكرها، فهي إما للضرورة كالتّجارة، وإما هروبية، من جور الحكام والسلاطين في ذاك الزّمان، نجاة بأرواحهم، والبحث عن الطمأنينة وما يستفاد من رحلاتهم الاضطرارية: الحكمة الكبيرة الّتي تمكن أفلاطون من تعلمها، والّتي مازال صداها إلى يومنا هذا.

*هيرودوت Hérodote الملقب بأبي التّاريخ، ولد في هاليكارناسوس بأسيا الصغرى حوالي سنة(484ق.م)وقد انتقل منها إلى ساموس ثم إلى أثينا، ولقد قام هيرودوت برحلات إلى مصر، وأوروبا الشرقية، وآسيا...وتوفي في ثورئي في جنوب ايطاليا سنة (420ق.م) تقريبا" أرسطو، فن الشعر، تر:إبراهيم حمادة، ص 117

[1] حسين محمد فهيم، أدب الرّحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، دط، 1989، رقم 138، ص 18، 19

[2] أحمد المنياوي، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط1، 2010، ص16

[3] – أرسطو، كتاب فن الشعر، ص14

5. 1– رحلات جاء ذكرها في القرآن الكريم:

5. 1. 1– رحلة الأنبياء والمرسلين:

لقد اعتنت شريعتنا السّمحة؛ بذكر أخبار الأنبياء والمرسلين، وحياتهم في ظل الدعوة إلى الله وما كابدوه ، من أجل تبليغ رسالات ربهم الّتي كلّفوا بها ، وكيف جابوا القفار والشّعاب، وقطعوا الفيافي والبوادي، وتحملوا الصعاب كل ذلك طاعة لله، وحبا فيه وطمعا في جنّته، ولما كانت الحياة هي في ذاتها رحلة، فقد ذكر لنا القرآن الكريم الكثير من قصص الأنبياء،الّذين اختصهم الله تعالى وأمرهم بشر دعوته وتبليغها للنّاس، والّتي تحملوا في سبيل نشرها وتبليغها عذاب التنقل والسفر وكثيرا من الصّعاب والشدائد ،الّتي قد تعترض طريقهم ...كل ذلك في سبيل تحقيق الدعوة المنشودة، ألا وهي نشر نور الله وتعاليمه السّمحة. من هؤلاء الّذين رحلوا وكلهم عزيمة في نشر دين الله : نبيّ الله وخليله (إبراهيم عليه السّلام)، الّذي ارتبطت رحلته بتكليف من الله تعالى لتبليغ رسالاته ، و(موسى عليه السّلام)كليم الله، الّذي ارتبطت رحلته بطلب العلم، والرّحلة التّجارية الّتي عرفتها قريش، وقد ورد خبرها في سّورة قريش. هي ثلاث عيّنات من أهم الرّحلات الّتي أحاول أن أتطرق إليها بإيجاز؛ مبينا أهمية الرحلة والأهمية المنشودة التي اضطلعت بها عبر السنين، وكيف أسهمت في نشر الدعوة الإسلامية.

5. 1. 1. 1- رحلة إبراهيم الخليل:

رحل سيدنا (إبراهيم) عليه السّلام إلى بلاد الشّام، ثم الدّيار المصرية، في سبيل عبادة الله، فقد كان همه أن يجد مكانا يستطيع هو وأهله عبادة الله فيه، ولقد وردت هجرة الخليل عليه السّلام في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿فآمَن لَه لُوطٌ وَقَالَ إنِّي مُهَاجرٌ إلَى رَبِيْ إنَّهُ هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ﴾[1]من سيّاق الآية الكريمة يتضح: أنّ إبراهيم خرج مهاجرا مع " ابن أخيه...وهو لوط بن هاران بن آزر، وهاجر معه إلى بلاد الشام "[2] فقد قال قتادة بأنّ إبراهيم خرج وابن أخيه لوطا "من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشّام " [3] وقال تعالى في موضع آخر عن هجرة الخليل:﴿وَنَجَّيْنَاهَ وَلُوْطَا إلَى الأرْض الَّتِيْ بَارَكْنَا فِيْهَا للعَالمِيْن ﴾[4].

وقد جاء في تفسير هذه الآية؛ أنه لما يئس إبراهيم الخليل من استجابة قومه لدعوته – توحيد الله– " و لوط عليه السّلام " نجّاهما الله تعالى، وذلك بهجرتهما إلى الأرض المباركة التي جاء ذكرها في نص الآية، ويقول

[1] سورة العنكبوت، آية 26

[2] محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير،،دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـ/1981م، مج 3، ص34

[3] المرجع نفسه، ص34

[4] سورة الأنبياء، آية 71

السّعدي في تفسيره " أي: الشام "[1] وهي أرض مباركة لأن الكثير من الأنبياء كانوا فيها، وفيها أحد بيوته الثلاثة؛ وهو بيت المقدس"[2]وقال أيضا:" انطلق إبراهيم، ولوط قبَلَ الشَّام فلقي إبراهيم سارة...فتزوجها...ثم انطلق مرتحلا إلى التيمن ومنها ارتحلوا إلى مصر وما لبث أن عاد إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة الّتي كان فيها. "[3] هي إذا رحلة من أرض الكفر والسوء إلى الأرض المباركة. -أرض الشام- لأجل التعبد، والدعوة إلى توحيد الله، هي رحلة دافعها الضرورة، بعد أن ضيّق عليهم أقوامهم سبل الحياة الهادئة، وآذوهم، فتركوا ديارهم لإعلاء دين الله، وعبادته في أرض الله الواسعة .

5. 1. 1. 2- رحلة موسى عليه السّلام:

وقد أخبر تعالى بهذه الرحلة في كتابه الكريم، في سورة الكهف، وهي رحلة طابعها علمي قصصي، كان سببها حسب الحديث الّذي رواه (أبيّ بن كعب) أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول:«بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل، جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنّك ستلقاه وكان يتّبع أثر الحوت في البحر فقال موسى لفتاه:﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾[4]﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[5]فوجد خضرا فكان من شأنهما الّذي قص الله عزّ وجل في كتابه.»[6] وقد ورد ذكر هذه الرحلة: في كتابه الكريم في سورة

---

[1] المرجع نفسه، ص523

[2] ينظر المرجع نفسه، ص523

[3] ينظر ابن كثير، البداية والنّهاية، مكتبة المعارف، بيروت، دط، 1410هـ/1990م، ص150، 151

[4] سورة الكهف، آية63

[5] سورة الكهف، آية 64

[6] أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري،،دار صادر، بيروت، ط1، 1425هـ/2004 مج 1، ص27 رقم:ح: [74]

* ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ

الكهف *(من الآية رقم ستون إلى الآية رقم اثنان وثمانون)؛ فقد أخبر عزّ وجل نبيّه وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقصة رحلة (موسى عليه السّلام) إلى الخضر لما احتوته من الفوائد، والعبر الكبيرة، الّتي تفيد الإنسان في حياته، كالزيادة في العلم، وأن لا يدع الإنسان المعرفة والعلم، لأنّ مهما بلغنا من العلم فهو لا يساوي شيئا أمام علم الله، وأن نتصف بالتواضع و لا نتكبر في طلبه ممن هو دوننا، لأنّه قد يوجد النّهر ما لا يوجد في البحر.

5. 1. 1. 3-رحلة قريش:

وقد قصّ علينا الله عزّ وجل نبأ هذه الرّحلة في كتابه في سورة قريش ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4) ﴾[1] وقد جاء في تفسير السورة أنّ" المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشّتاء إلى اليمن، وفي الصّيف إلى الشّام في المتاجر وغير ذلك ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند النّاس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم ، ومن سار معهم آمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم."[2]وحسب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام ل(محمد سهيل طقوش)، أنه كان لقوافل قريش* طريقين هما " البري الموازي للبحر الأحمر والذي تسلكه القوافل بين اليّمن والشام، ومكة ويثرب...و طريق البحر الأحمر الذي يربط شرقي أفريقيا بالهند وسيلان والصين وجنوب شرقي آسيا بعامة، وكانت تجارة الهند الّتي تصل إلى عمان، تنقل عبر البحر الأحمر إلى مصر."[3].

ومن هنا نخلص إلى أنّ رحلة التّجارة عرفت عند العرب منذ زمن بعيد، وهي من الضروريات الّتي تحافظ على بقاء الإنسان، أضف إلى ذلك الفوائد الكبيرة الّتي تقدمها للبشرية عامة، كتوفير ما يحتاجه الإنسان، وإيصاله من مكان قد يعجز عنه، أو ما ينجر عنها من مخاطر، كتوفير دواء، أو قماش وغيرها من ضروريات الحياة ، وإلى

كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ سورة الكهف، آية 60-81

[1] سورة قريش آية 4.1

[2] محمد علي الصّابوني مختصر تفسير ابن كثير، مج3، ص679

*سميت قريش، بقريش بن بدر بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، وكان قريش في بدر دليل بني النّضر في أسفارهم، وصاحب مسيرتهم، فإذا قدمت عير بني النّضر؛ قالت العرب: أقبلت عير قريش باسم دليلهم، التقريش لغة: يعني التفتيش، وكان النّضر يقرّش أو يبحث ويفتش عن حاجة ذوي الفاقة، فيقضيها لهم، والتقرش لغة، يعني التجمع، ولذلك عندما جمع قصي قومه في مكة: سمو كذلك.ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام: محمد سهيل طقوس نص426

[3] محمد سهيل طقوس تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009/1430، ص85

جانب الفوائد الاقتصادية، فوائد ثقافية وسيّاسية واجتماعية: من تعلم لغات أقوام، ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم...وغيرها كثير، سنأتي على ذكرها في مبحث آخر.

5- رحلات في الإسلام:

عرفت هذه الفترة من الدعوة الإسلامية وخاصة البدايات الأولى من الإسلام العديد من الرحلات التي قام بها المسلمون منها:الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة، والهجرة من أجل جمع أحاديث النبي ﷺ...نحاول التعرض التعريف ببعض هذه الرحلات باختصار شديد للتنويه فقط:

أولا: الهجرة إلى الحبشة:

لما اشتدت أذية قريش للمسلمين وضيقوا عليهم المعيشة، واشتد ظلمهم لأصحاب النبي صلوات ربي وسلامه عليه، وبعد جهرهم بإسلامهم، أمرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة، بعد أن أوحى الله إلى نبيه ﷺ بها في كتابه الكريم قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] جاء في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة قال:" هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديّارهم، حتى لحق طوائف منها بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها، لهم دار هجرة "[2] ولما كان ما كان من الظلم والتنكيل الّذي لحق أصحاب النبي من قبل كفار قريش، وبالضبط"في العام الخامس من البعثة أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة...وقال للمهاجرين؛ إنّ فيها رجل لا يُظلم النّاس عنده، وهو النّجاشي..."[3] فخرجت جماعة من المسلمين متوجهين إلى دار الحبشة فارين بدينهم من كفار قريش إلى أرض الحبشة " فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة؛ فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمَّروا عليهم عثمان بن مظعون، ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون..."[4]

ثانيا : الهجرة إلى المدينة:

سبقت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هجرته إلى الطائف "يلتمس فيها النّصرة من ثقيف، وأن يدخلوا في الإسلام، وكان له أمل في أهل الطائف، ولا غرابة في ذلك فإنه رضع في بني سعد، وهم من مقربة من

[1] سورة النحل آية 41

[2] جلال الدّين السّيوطي: تفسير الدّر المنثور في تفسير المأثور، دار الفكر، بيروت، دط، 1432هـ، 1433هـ/2011م، ج5، ص131

[3] سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث، أطلس الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1427هـ/2006م، ص18

[4] أبو الحسن علي الحسيني الندوي، السّيرة النبوية، تح: عبد الماجد العورى، ط12، 1425هـ/ 2004م، ص196

الطائف...وقد كانت هذه الرحلة في سبيل الدّعوة "[1] فقد خرج إلى الطائف في شهر " شوال من السنة العاشرة...فهي مسافة تزيد على مئة وعشرون ميلا يقطعها الراكب في نحو أربعة أيام...وقد آثر رسول الله ﷺ أن يقطع هذه الشقة ماشيا."[2] وكل هذا في سبيل تبليغ رسالات ربه، لكن وجد صدودا وإعراضا من قبل أهل الطائف بل تعرض للضرب حتى سالت الدماء من قدميه الشريفتين. وهجرته ﷺ بدأت فعلا "يوم خرج إلى الطائف فصُدّ صدودا قاسيا، لكنه لم ييأس، لأنه يعلم يقينا أن الخاتمة ستكون له "[3]، فعاد إلى مكة ليأمر "أصحابه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها واللّحوق بإخوانهم من الأنصار"ينتظر أمر ربه بالهجرة إلى المدينة "[4] فخرجوا في خفية عن كفار قريش، فراد، وجماعات صغيرة متخفين عن أنظار أهل الكفر، أما صلى الله عليه وسلم ' فأقام في مكة ينتظر أمر ربه بالخروج، ولما أذن الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم بالهجرة جاء أبي بكر، فقال له:"إن الله قد أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله: قال(الصحبة) وبكى أبو بكر –رضي الله عنه–من الفرح، وقدّم أبو بكر راحلتين، كان قد أعدهما لهذا السّفر واستأجر (عبد الله بن أريقظ)، ليدلهما على الطريق "[5]ولكل هجرة مسلك ومراحل، و منطلق، ونقطة انطلاق النبي ﷺ كانت "من مكة من بيت أبي بكر بالمسفلة القائم في خط بني جمح إلى جبل ثور، ومن جبل ثور إلى أسفل من واد عسفان(معارضا الطريق العام) ومنه إلى أسفل من وادي أمج...ومنه إل أسفل وادي قديد...ومنه إلى واد ريم...ومنه إلى قباء...إلى داخل المدينة."[6]هكذا كان طريق الهجرة– هجرة صلى الله عليه وسلم مع الصدّيق– من مكة إلى يثرب (المدينة المنورة).والخلاصة من هذا هي أنّ هجرة النبي لم تكن " فرار بنفسه من قريش إنما كانت فرارا بدعوته الحبيسة بعد أن وقفت قريش لها بكل سبيل تحول بينها وبين السبيل."[7]

ثالثا: الإسراء والمعراج:

ورد ذكر حادثة الإسراء في كتاب الله تعالى، قال الله:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[8] وجاء في تفسير

[1] أبو الحسن علي الحسين الندوي، السيرة النبوية، ص209

[2] أمين دويدار صور من حياة الرسول إلى المدينة المنورة، دار المعارف القاهرة، دط، 1987، ص 31

[3] عماد الدين خليل، دراسة في السّيرة، دار النّفائس للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، ط4، 1435هـ/2014، ص107

[4] أبو الحسن علي الحسيني الندوي، السّيرة النبوية، ص232

[5] المرجع السابق، ص 239

[6] عبد القدوس الأنصاري، طريق الهجرة النبوية، مطابع الروضة، جدة، ط1، 1398هـ/1978م، ص119، 120

[7] أمين دويدار، صور من حياة الرّسول الهجرة إلى المدينة المنورة، ص148

[8] سورة الإسراء، آية 1

السعدي "أنّ الإسراء كان في أول اللّيل من المسجد الحرام، من بيت(أم هانئ) وأنّ الإسراء كان بالجسد والروح وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى،ثم عرج به من هناك إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى ورأى الجنة والنّار والأنبياء وفرض الله عليه الصلوات الخمسة."[1] وهذه الحوادث من معجزات النبيﷺ .

رابعا: رحلة الصحابة:

تعددت حوافز ودواعي رحلات الصحابة، سواء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده، بين الفرار من ظلم كفار قريش، الذين ضيقوا عليهم كل السبل حتى لا تنتشر دعوتهم، فمنهم من فرّ إلى الحبشة، كعثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله، ومنهم من هاجر إلى المدينة امتثالا لأمر النبي ، ومنهم من خرج يطلب العلم، و منهم من كان يهاجر لأجل طلب الفتوى في مسألة من المسائل التي عجز عنها فكره أن يجد لها حلا، أو تفسيرا منطقيا، من بين هذه الرحلات : رحلة في المسائل النّازلة أو الطارئة . من ذلك ما جاء ذكره في صحيح البخاري:" عن عقبة بن الحارث: أنه تزوج ابنة لأبي أهاب بن عزيز، فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والّتي تزوج فقال لها: عقبة: ما أعلم أنّك أرضعتني، ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ، بالمدينة فسأله، فقال رسول اللهﷺ: «كيف وقد قيل »؛ ففارقها عقبة، ونكحت زوجا غيره."[2] ومن الصحابة من كان يسافر شهرا لا لشيء إلا ليسمع حديثا من هؤلاء: جابر ابن عبد الله قد أخبر برحلته لأجل سماع حديث واحد في المظالم خشية أن يموت أو يموت من سمع الحديث من رسول الله، قال:"بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه، قال فابتعت بعيرا، فشددت عليه رحلي؛ فسرت إليه شهرا، حتى أتيت الشّام، فإذا هو: عبد الله بن أنيس الأنصاري قال: فأرسلت إليه أن جابر على الباب، قال: فرجع الرسول إليه فخرج إلي فاعتنقني واعتنقته قال: قلت حديثا بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم، لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد »، أو قال« يحشر الله النّاس »، قال: «و أومأ بيده إلى الشّام عراة، غرلا، بُهماً »قلت:ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيء»، قال: فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب «أنا الملك أنا الدّيّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحد من أهل النّار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النّار يدخل النّار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللُّطمَة."[3]

[1] ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، دار أضواء البيان، الرياض، دط، 1427هـ/2006م، ص449.

[2] الإمام أبي عبد الله البخاري، صحيح البخاري مج:1، ص29، 30

[3] الخطيب البغدادي، الرّحلة في طلب الحديث تح: نور الدين عتر دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1395هـ/1975م، ص 110، 111.

والخلاصة أنّ الرحلات في زمن النبي ﷺ أو بعده تعددت أغراضها وغاياتها منها :تبليغ رسالة الله تعالى أو لإعلاء كلمة الله، أو لأجل طلب العلم مثل سماع حديث ، ولقاء حافظ لشيء من كلام النبي صلوات ربي عليه وغيرها، إنه غيض من فيض من رحلات زمنُها الإسلام، رحلات أصحاب النبيﷺ أو تابعيه أو تابع التابعين تأكد شرف هذا النشاط –الرحلة– وما قدمته من فائدة عظيمة للإسلام، والمسلمين كافة، وللعالم بأسره.

6– فوائد الرحلة:

نخلص مما سبق إلى أنّ للرحلة أهمية كبيرة تعود ثمارها، وفوائدها على الفرد و المجتمع ، حيث تمس جميع جوانب الحياة، صحّية، واجتماعية، واقتصادية، وسيّاسية، وثقافية و علمية، إلى غير ذلك نحاول التعرض في هذه الأسطر والتعرف على بعضها.

أولا: تحقيق التعارف بين الشعوب والقبائل المتفرقة في شتى بقاع الأرض؛ وكلهم من ذرية آدم فرقتهم طبيعة الحياة، وهي سنة الله تعالى في خلقه والغاية من خلق البشر ، وقد جاء ذكر هذا في قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1] فهي دعوى صريحة من الله عزّ وجل إلى خلقه جميعا بأن يتعارفوا لأنه لو استقل كل واحد بنفسه، وانعزل عن الآخرين لعاش الإنسان في تخلف بعيد عن الحضارة والرقي، والتطور، وتحقيق المنفعة، وبالتعارف يحصل" التّناصر والتعاون والتوارث، والقيّام بحقوق الأقارب."[2]

ثانيا: طلب المعاش والرزق: وفي هذا قال بعض الحكماء "السّفر أحد أسباب المعاش الّتي بها قوامه ونظامه لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يجمع منافع الدّنيا كلّها في أرض واحدة، بل فرّقها في الأرضيين كلّها، وأحوج بعضها إلى بعض."[3]كما خلق الله الإنسان شعوبا وقبائل متفرقة، كذلك خلق الأرزاق متفرقة؛ فما يوجد في مكان ليس بالضرورة أن يوجد في مكان آخر، فكان السفر والرحلة، ضرورة من ضروريات الحياة للحصول عليها والتمتع بها لأنها من فضل الله على خلقه، وفي هذا الباب آيات قرآنية كثيرة تحث على السّفر لأجل الاسترزاق منها: قوله تعالى:﴿**وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** ﴾[4] وقال تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[5] ولا يسعني هنا إلا أن أذكر قول (الثعالبي) الّذي قال

[1] سورة الحجرات، آية 13

[2] عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص798

[3] أبو منصور الثعالبي:زاد سفر الملوك، ص05

[4] سورة المزمل، آية 20

[5] سورة الملك، آية 15

: " ولولا السّفر لبطلت التّجارب، وانقطع الجلب، والمنافع، ولما حُصّلَت خصائص البلدان الشريفة، وما جمعت فوائد الأصقاع الغريبة...ولما عرف عود الهند ومسك التّبّت *، وعنبر الشّجر،...وماء ورد فارس، وزعفران قمّ، ولا استمتع ببرود اليمن، وأردية مصر...، وديباج الروم، وحرير الصّين،...وجوارب قزوين،... وثعالب الجزر، وسمّو البلغار، وجلود نمور البربر، وآدم الطائف، ولما ذكر نصول الروس وقسي الشاش...ولما اقترح تفاح الشام ورطب العراق وسكر الأهواز وعسل أصفهان...و رمّان الريّ... وتين حلوان وبطيخ أصفر خوارزم وإجاص بست وعنّاب جرجان،... وكمون كرمان، وكرويا بردعة*..."[1] فقد أخبر الثعالبي بمنافع جمّ تحصل بالسّفر منها : تمتع الانسان بما خلقه الله من نعم قد فرقها على سائر بقاع العالم، فما هو موجود في مكان قد يكون منعدما في آخر، هي سنة الله في خلقه.

ثالثا: من فضل السّفر"أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، وبدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علما بقدرة الله تعالى وحكمته، ويدعوه إلى شكر نعمته، يسمع العجائب، ويكسب التجارب."[2] الرحلة إذا توسع من مدارك الإنسان ،كما تفتح له بابا جديدا ، وهو باب التفكر في عجيب صنع الله ، وبدائع خلقه.

رابعا: بلوغ المراد وتحقيق المنى على اختلافها وتعددها وفي هذا يقول الشاعر:

وَفِيْ الاغْتِرَاب وَفِيْ الاضْطرَا ب مَنَالُ المُنَى وَبُلُوْغَ المُرَاْد

وَلَوْ يَسْتَوِيْ بالقُعُود النُّهُوضَ لَمَا ذَكَرَ اللهُ فَضْلَ الجهَاد

إذَاْ النَّارُ ضَاقَ بهَا زَنَدُهَا فَفُسْحَتُهَاْ فِيْ قَرْع الزّنَاد[3]

وقد تكون من هذه المرامي والمنى، التي يسعى إليها الإنسان، ما ذكر في قول الشاعر:

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَان في طَلَب العُلَى وَسَافرْ فَفي السَّفَر خَمْسُ فَوَائد

تَفَرُّجُ هَم وَاكْتسَاب مَعيْشَة وَعلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجد[4]

خامسا:بالنسبة للآخر، فإن كانت معاملة أصحاب الترحال تتماشى وتعاليم الدين، حتما سيتبع الكثير ممن لا دينه لهم هذا الدين، وينتشر صداه لأن المعاملة أساس الدين ، وقد نصّت الشريعة الإسلامية في كثير من

* التّبّت: في بلا الترك وهي مملكة متميزة من بلاد الصين والغالب عليها حمير...بردعة مدينة أرمينية ذات أنهار وأشجار، ومياه كثيرة.، ينظر: أبي منصور الثعالبي: زاد سفر الملوك، ص6

[1] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك، ص6

[2] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك ، ص05

[3] المصدر نفسه، ص09

[4] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي: تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الغد العربي، القاهرة، ط2، 1425هـ/1985، ص74

الأحاديث النبوية الشريفة، لمن يمارس نشاط الترحال على اختلاف دواعيه(التّجارة، أو للسّياحة ، طلب العلم...،)؛أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة، ويُعوّد لسانه بالكلمة الطيبة، ووجهه بالابتسامة الجميلة، فحافز نشر الدين قديما كان هو "السبب الأول في أغلب الأحيان في مباشرة الرحلة، هذا الحافز الّذي أملته حالة الحضارة الإسلامية، الّتي كانت في أوجّ عطائها، وازدهارها، وما صاحبها من فتوحات، وتوسعات، وامتدت من غرب الصين شرقا إلى البحر الأطلسي غربا "[1] فقد كان لرجال الرحلة الدور الكبير في نشر تعاليم الإسلام، وتوسيع رقعته، حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، لأنهم: سافروا، وجابوا البلاد، واجتازوا المسافات، وقطعوا الفيافي والقفار ولم يتركوا قرية ولا ديارا إلا دخلوها، وما يبقى فيها بعد رحيلهم عنها غير ما تركوه من ذكرى مكارم أخلاقهم الّتي ستخلدهم، وطيبة كلامهم ومعاملتهم، كما تبقى شاهدة عليهم يرويها الحاضر للغائب.

سادسا: التعرف على تقاليد وعادات الأقوام، وثقافاتهم، على جميع الأصعدة، اللّباس، الأكل، النوم، العبادات والطقوس، هندسة مساكنهم، طريقة تعليم أبنائهم، العلوم والكتب الّتي ينهلون منها، وغيرها، مما يُسفر لنا عن" تباين تقاليد الأقوام وعاداتهم " [2]في جميع أنحاء العالم، وفي هذا يقول أحد الكتاب الفرنسيين:" إن الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان ".[3] لأنّ فيها يتعرف على ثقافات متنوعة، ومتعددة بشكل أسرع .

سابعا: تليين الطباع وترقيق المعاملة، كما تنزع ثوب الفظاظة عن الشخص الّذي جبل عليها بين إخوانه، لأنّ العزلة الشّديدة تكسب الإنسان البعض من صفة البهائم ،كالشراسة والكره للنّاس...، ولأنّ الإنسان بطبعه اجتماعي، فكلما تعرف على قوم، اكتسب منهم طباعا و أخلاقا جديدة تحلى به، واستفاد منها وهكذا، فالرحلة كما قيل "منّة من الله –نحلة– تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصَبا علما غزيرا وأدبا " [4] فهي إلى جانب الرقة واللّيونة والبساطة والسماحة، توسع من مداركه وعلومه وتزيد في أدبه ...

ثامنا: من الفوائد العظيمة التي تقدمها الرّحلة للإنسان أوالإنسانية عامة :الوحدة البشرية، فهي تعمل على توحيد البشر من خلال المخالطة والمعاملة، التي تحصل بينهم والّتي يساهم فيها صاحب الرحلة، إما بأخلاقه وإما بحسن معاملته في تجارته أو سياحته أو أي شيء خرج في طلبه، ويؤكد هذا الكلام (فؤاد قنديل) بقوله: بأنّ الرحلة " هي

[1] كمال بو لعسل، رحلة أبي حامد الغرناطي –دراسة في فضاء الرحلة – نوميديا للطباعة والنّشر والتوزيع، تلمسان، دط، 2011م، ص47

[2] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص23

[3] نقلا عن فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص21.

[4] مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981م ، ص9.

سر وحدة البشر، أو على الأقل السبيل إل ذلك خاصة في عصر خلا من وسائل الاتصال الحديثة التي تجاوزت حد التّصور."[1] الرحلة وسيلة في تحقيق الوحدة البشرية، وبالتالي نشر السّلام والأمن بين بني البشر.

7- آداب الخروج في الرحلة:

على المسافر أن يتحلى بجملة من الآداب حتى يكون سفره أكثر فائدة تعود عليه، ثم على غيره منها:

7. 1- إخلاص النية لله تعالى: حتى نجعل كل خطوة من خطواتنا عبادة فنأجر عليها، فعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه:«إنما الأعمال بالنّيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه.»[2] والرحلة واحدة من بين الأعمال الّتي يجب على صاحبها أن يخلص النّية فيها لله تعالى حتى تصير عبادة نأجر عليها.

كما تقرّب صاحبها من الله تعالى، فيفوز بأجرين أجر الدنيا وهي غايته المنشودة، وأجر الآخرة، أضف إلى ذلك الرعاية الربانية الّتي تصاحبه طول مسافة الرّحلة، ومما يسفر عن صلاح النية كما قال أبو حامد الغزالي في كلامه عن السّفر: "أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الدّين، وإعداد النّفقة لمن تلزمه نفقته، ويرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه."[3]

7. 2- اختيار الرّفقة الصّالحة: هناك مثل شعبي يقول: الرفيق قبل الطريق، سبق الرفيق الطريق إذا، وهنا المغزى من الرحلة أو السّفر، فعلى الرّحال أن يختار الرفيق الصالح الّذي يقتسم معه متاعب السّفر، وينسيه طول الطريق وضنكها إن هو ضجر، وأن يكون من الثقاة الّذين يُؤمنهم على أهله وماله وسره. قال ﷺ:« لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي »[4] وقال ﷺ:« مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك، وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك؛ إما أن تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك، أو ثوبك، أو

[1] فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي، ص23

[2] أبو عبد الله البخاري: الجامع الصحيح للبخاري: تح عبد القادر شيبة الحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النّشر، الرّياض، ط1، 1429هـ/2008م، ج1، ص65 رقم ح:[54]

[3] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي:إحياء علوم الدّين، دار ابن حزم بيروت، ط1، 1426هـ/2005م، ص721

[4] أبو عيسى محمد بن عيسى التّرميذي، الجامع الكبير، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، مج4، ص201 رقم ح: [56]

تجد منه ريحا خبيثة.»[1] وجاء في الخبر "راكب الفلاة وحده شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة سفر، والأربعة صحبة، والخمسة رفقة."[2] كما جاء التحذير في الرفيق الّذي لا نعرف عنه ولا عن أخلاقه شيئا؛ فقالوا وإيّاك أن تستصحب من لا تعرفه"[3] كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم الرجل أن يسافر وحده، وأفضل أن يكون له رفيق والأفضل من كل ذلك أن يكونوا أكثر من اثنين؛ فقد جاء في الأثر "أنّ رجلا قدم من سفر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:« من صَحبك» قال: ما صحبت أحدا.قال صلى الله عليه وسلم:«الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثّلاثة ركب».[4]

7. 3- تعلم أدلة القبلة وأحكام الصّلاة، وأدعية السّفر: لأن المسافر كما " يتزود لدنياه بالطعام والشّراب والحاجيات الأخرى، فلا بد أن يتعلم أشياء أخرى كأدلة القبلة، وأحكام الصّلاة أثناء السّفر. قال تعالى:﴿**وَإِذَاْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَقْصُرُواْ منَ الصَّلَاْة إِنْ خفْتُمْ أَنْ يَفْتنَكُمُ الَّذيْنَ كَفَرُواْ** ﴾ وكما أجاز القرآن للمسافر الّذي يضرب في الأرض...أن يقصر من الصلاة؛ كما أجازة الشريعة للمسافر الجمع بين الصّلاتين تقديما أو تأخيرا هذا، ومن التقاليد الإسلامية أيضا أدعية السّفر وهي كثيرة." [5] وهذا من باب فقه السَّفر.

7. 4- دعاء السّفر: يستحب للمسافر أن يأتي بدعاء السّفر، حين يهم بالسّفر، وهذا ما كان سيد الخلق يقوم به؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:"كان رسول الله ﷺ إذا سافر فركب راحلته، قال بإصبعه ومدّ شعبة إصبعه قال:«اللّهم أنت الصاحب في السّفر والخليفة في الأهل، اللّهم اصحبنا بنصحك، واقلبنا بذمّة، اللهم ازو لنا الأرض، وهون علينا السّفر، اللهم إني أعيذ بك من وعثاء السّفر وكآبة المنقلب» ."[6]

7. 5- على المؤمن أن يصلي صلاة الاستخارة : أن يستخير الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، عن جابر بن عبد الله قال:"كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن."[7]

---

[1] محمد ناصر الدين الألباني:الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)مج2، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1408هـ/1988م ، ص1014 رقم ح[5829]

[2] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك، ص43

[3] المصدر السابق، ص43

[4] أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ/2002م ج5، ص421، رقم ح: [10347]

[5] حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص84

[6] محمد بن عيسى الترميذي، الجامع الكبير، مج5، ص437 رقم ح:[3438]

[7] أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي:السنن الكبرى، ج5، ص409 رقم ح: [10302]

7. **6- أن ينتقي وسيلة النقل الفارهة والمريحة(دابة، بعير، سيارة، طائرة، باخرة، قطار...)**: و ذلك حسب مقتضيات عصره تعينه على مشقة السفر؛ فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر ثلاثة من السعادة وثلاثة من الشقاوة فمن السّعادة ذكر: ‹‹**والدابة تكون وطيئة تلحقك بأصحابك**››[1] قادرة وقوية على حملك وحمل متاعك ولا تخلفك عن الركب أو تأخره عنهم.

7. **7- الخروج يوم الخميس**: وهو من الأيام التي كان النبي يفضل الخروج فيها إما للسّفر، وإما للغزو، فقد روى عبد الرحمن بن مالك، عن أبيه أنه كان يقول: "قَلَمَا كَانَ رَسَوْلُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْرُجُ فِيْ سَفَر لجهَاْد إلَاْ يَوْمَ الْخَمِيْس ."[2]

7. **8- أن يجعل للرحلة قائدا**: وذلك بأن ينتخبوا أحدا ممن هم مقبلين على الرحلة؛ حتى لا يختلفوا ويتنازعوا في أمرهم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«إِذَاْ كَاْنُواْ ثَلَاْثَة فِي سَفَر فَلْيُؤَمّرُواْ أَحَدَهُمْ » "[3] وهذا فيه بيان شرف القائد والدور المضطلع به، حتى لا تختلف آراء الجماعة فيحدث شقاق.

8- آداب الرجوع من السّفر:

كما في الخروج للسّفر آداب، هناك أيضا آداب للرجوع على المسافر أن يعمل بها أو على الأقل ما تيسر له منها. نذكر أهمها:

8. 1- التعجيل بالرجوع: إذا همّ المسافر بالعودة إلى أهله عليه بالعجلة؛ لأنها وصية سيد الخلق للمسافر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «السَّفَرُ قطْعَةٌ منَ العَذَاْب يَمْنعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَاْمَهُ وَشَرَاْبَهُ فَإِذَاْ قَضَىْ أَحَدَكَمُ نَهْمَتَهُ منْ وجْهَة فَلْيُعَجلْ إِلَى أَهْله.»[4]

8. 2- الدعاء عند الرجوع من السفر: من آداب الرجوع أن يقول المسافر دعاء السفر ثم يزيد عليه" «آئبُوْن تَاْئبُون لرَبنَاْ حَاْمدُوْن » فإذا دخل أهله قال: تَوْبًا تَوْبًا لرَبنَاْ أَوْبًاْ لَاْ يُغَاْدرُ عَلَيْنَاْ حَوْبًا »"[5]

[1] محمد ناصر الدّين الألباني، الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، مج1، ص586 رقم ح[3056]

[2] أبو بكر بن الحسين بن علي البيهقي: السنن الكبرى، ج5، تح: محمد عبد القادر، ص411

[3] المصدر نفسه، ج5 ص421، رقم ح: [10349]

[4] المصدر نفسه ، ص424، رقم ح:[10361]

[5] المصدر نفسه، ص 410، رقم ح[10304]

8. 3– **الصلاة عند الرجوع:** " عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ كَانَ لَاْ يَقْدُمُ منْ سَفَر إلَاْ نَهَارً فَإذَا قَدمَ بَدَأَ بالمَسْجد فَصَلَى فيْه رَكْعَتَيْن ثُمَ يَجْلسَ."[1]

8. 4–**أن يأتي أهله نهارا:** فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم "أن يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا حَتَّىٰ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةَ، وَتَسْتَحِدَ المَغِيْبَة."[2] نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسافر أن يدخل ليلا إلى بيته لما فيه من ضرر لأهل الدار والجيران.

8. 5– الهدية للأهل والإخوان: من بين آداب الرجوع من السفر أو الحج أو أي شكل تضمن طول غياب عن الأهل والأحباب؛ أن يأتي المسافر بهدايا –لا يهم شكلها ولا قيمتها– تكون عربون مودة وحب لأهله وأقربائه. تزيد من تقريب القلوب،كما تكون رسالة، وتعبيرا منه أنه لم ينسهم في رحلته وغيابه الطويل.فقد جاء في الأثر "عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إِذَا خَرَجَ أَحَدَكُمْ إِلَى سَّفَر ثمُ قَدمَ فَلْيَهْد لأَهْله ولإخْوَانه، وليُظْهرْ فيْهمُ وَلَوْ حجَارَةً.»"[3]

9 – رخص السّفر:

لما كان السّفر قطعة من العذاب، أباح لنا المشرع الكريم رخص في السّفر تخفف عن المسافر عناء ومتاعب السفر منها:

9. 1– التقصير في الصلاة: وتقصير الصلاة هي منّة من الله تعالى على عباده الّذين يضربون في الأرض، وكانت حياتهم حياة سيّاحة وتجوال، ورحيل من مكان إلى مكان، أو كما قال ابن عباس رضي الله عنه "الرُخصة من الله تعالى صدقة فلا تردوها عليه"[4]أما عن كيفية أداء هذه الرخصة؛ فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:« فرض الله عزّ وجل صلاة الحضر أربعا، وفي السّفر ركعتين، والخوف ركعة، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم».[5] وهذا إن دل فإنه يدل على يسر هذا الدين وعظمته.

[1] المصدر نفسه، ص 427 رقم ح [10378]

[2] المصدر نفسه، ص426 رقم ح [10371]

[3] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك، ص102

[4] أبو منصور الثعالبي، زاد سفر الملوك، ص68

[5] أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوطي مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ، 1417هـ/1997م، ص434، ج5، رقم ح:[3332]

9. 2-- جمع الصّلوات في السفر: جمع الصلوات هي نعمة من الله على عباده في السفر حتى يخفف عن المسافر عذاب السفر.فعن ابن عباس "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء في السّفر والحضر."[1]

9. 3- **التيمم لقلة الماء:** المسافر في سفره بحاجة كبيرة للماء خاصة في أيام الحر، لذا كان من مقاصد الشريعة الإسلامية دعوة الإنسان أن يحافظ على روحه التي بين جنبيه؛ ومن بين أسباب الحفاظ على النفس في السفر الحفاظ على الماء وأن يقتصد فيه؛ لأن الإنسان قد يصبر على الجوع لكن العطش لا طاقة له على تحمله، خاصة الأطفال والنساء والمرضى، ومن بين الرخص التي أباحها الله لهذه الشريحة من النّاس، الّتي من عاداتها التّرحال – التيمم- وقد وردت نصوص كثيرة تبيح لنا هذه الرخصة، وتبين لنا الطريقة أو الكيفية التي نتيمم بها.قال تعالى:﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2] هذه الرخص من فضل الله على عباده هؤلاء، للتخفيف عنهم.

9. 4- تعدد الزوجات: يعد تعدد الزوجات من نعم الله على عباده من الجنسين رجالا ونساء، صونا لعرضهم وتحصينا لفروجهم؛ فإباحة تعدد الزوجات كان من العوامل الّتي تؤدي إلى "تخفيف بعض متاعب الأسفار، حيث شجعت هذه الرّخصة الشرعية الحكيمة رجال الرحلة على التجوال وقطع المسافات، والنهل من العلم على مهل مطمئنين على أنهم لن يكونوا محل شك، أوسببا في إثارة المشكلات الاجتماعية، وكان بعضهم يتزوج في البلاد الّتي ينزل فيها فترة من الزمن، ومن الطريف في هذا الصدد؛ أنّ الرّحالة (إبن بطوطة) تزوج في مصر مرتين على الأقل، وكانت له في جزائر المالديف أربع زوجات..."[3]

10- الصعوبات قد تعترض الرّحالة:

معلوم أن المسافر يواجه مصاعبا وأخطار كثيرة قد تفسد عليه لذة السّفر؛ لأن الرحالّ يأخذ في مسلك وطريق لا يعلم ما قد يتعرض له فيه، من وحوش أو قطّاع طرق...لذلك كان السفر قطعة من العذاب أو كما قال آخر: بل العذاب كله قطعة من السّفر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم

[1] أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوطي مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ، 1417هـ/1997م، ص383، ج5، رقم ح: [3397]

[2] سورة المائدة، آية 6

[3] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص35

قال:«السَّفَرُ قطْعَةٌ منَ الْعَذَاْب: يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَاْمَهُ وَشَرَاْبَهُ وَنَوْمَهُ، فإِذَاْ قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجلْ إلى أَهْله.»[1] وقد ذكر فؤاد قنديل بعض هذه الصعوبات منها: [2]

أولا: ندرة الطرق المعبدة الّتي تصل بين الجهات المختلفة، والموجود منها يفتقر إلى العلامات الدّالة، وقد تدهمه الريّاح وتحمل عليه من الرمال ما يمحوه في ساعة.

ثانيا: انعدام الخدمات تقريبا على هذه الطرق؛ فلا مغافر ولا دراسات ولا خزانات للمياه أو محطات للرّاحة، ولا توجد –إلا فيما ندر – إشارات إلى الآبار.

ثالثا: هجوم اللّصوص وقطاع الطرق بشكل دائم، ويشمل تقريبا كافة المناطق ولم ينج من قبضتهم القاسية حتى الحجيج الذين كانوا يوسعونهم نهبا وقتلا.

[1]- أبو عبد الله البخاري (194-256هـ) صحيح البخاري، ص313، رقم ح[1804]

[2] - فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص40، 41

الفصل الأول

أدب الرحلة الجزائري.

*** المبحث الأول:**

1- ماهية أدب الرحلة .

2- علاقته بفن السيرة

3- نشأته وتطوره

4-أهميته.

5- قيم أدب الرحلات "العلمية، الأدبية، التعليمية."

6- تدوين الرحلة

7-دواعي تدوين الرحلة

المبحث الثاني: المنجز الرحلي الجزائري.

1 – رحلات قبل العهد العثماني.

2- رحلات في العهد العثماني .

03- رحلات جزائرية حديثة(أشكالها وأنواعها)

.

.

المبحث: الأول:أدب الرحلة:

1- ماهية أدب الرحلة:

وجد الدارسون والنّقاد، صعوبة كبيرة في تقديم تعريف واف وكاف لأدب الرحلة، ربما السبب راجع للمرونة الكبيرة التي تميزه عن غيره من الأجناس الأدبية، ومجاله الفسيح، الذي يسمح باحتواء تخصصات وعلوم أخرى؛ إذ المتأمل في كتب الرحلة، يجد أنّ صاحبها موسوعيا -ذو ثقافة واسعة- مكّنت له بأن يضمّن العديد من العلوم في كتابه، ولعل من بين العلوم الّتي كانت لها حصة الأسد:علمي التاريخ والجغرافيا؛ لذلك "لم تظهر حتى الآن نظرية نقدية متكاملة تتناول أدب الرحلات.وإنما الأمر متروك للاجتهاد الشّخصي لكل ناقد ولمدى تجاوبه مع النّص."[1] فمفهوم أدب الرحلة "مفهوم عصيّ على الامتثال إلى تحديد قار يسلم له كل اقتراب قرائي لمدلوله."[2]وصعوبة ضبط مفهوم قار لهذا الفن ؛لا يمنع من تقديم تعريفات له، تمثل في مجملها محاولات تقترب من مدلوله.من بين هذه المحاولات: التعريف العام الّذي قدمه(سليم بابا علي)حيث جعل أدب الرحلات " واحد من الفنون النثرية القديمة في أدبنا العربي "إذا حسب منظور الكاتب أدب الرحلات مفهوم عام تكلم فيه صاحبه عن الجانب الفني، ولم يقدم لنا تفصيلا عن فحواه و مضامينه.

أما الموافي فمنطلقه في تعريف الرحلة –أدب الرحلة- من البنية الّتي أطرت مضمونه يقول: هو" ذلك النثر الّذي يصف رحلة –أو رحلات –واقعية قام بها رحال متميز موازنا بين الّذات والموضوع من خلال مضمون وشكل مرنين؛ بهدف التّواصل مع القارئ والتأثير فيه."[3] وتعريف الموافي يضيق من دائرته ويجعله يقتصر على النثر دون الشعر، كما يقدم شروط تمكن لنا أن ندرج نص الرحلة في سياق فن الرحلة منها على حد قول الموافي: أن تكون الكتابة تسرد سفر ورحلة قام بها الرّحال نفسه، وأن تكون واقعية فهو بذلك يخرج من دائرة أدب الرحلة تلك الرحلات التي تجنح بالخيال، أن يكون الشخص الذي يألف في هذا المجال شخصا متميزا عن غيره؛ أي ممن خرجوا للرحلة، وأن يتصف بصفات منها قوة الذاكرة وقوة الملاحظة، وممن يوثق بهم... وأن يكون له أسلوب مؤثر وهكذا.

فالموافي في تعريفه ركز على شرط الواقعية ودليل ذلك قوله: "وشرط الواقعية هذا، أهم ما يميز أدب الرحلات

[1] ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي –حتى نهاية القرن الرابع الهجري – دار النّشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م، ص210

[2] ميداني بن عمر: مقال: أدب الرحلة بين التباس المفهوم واستعصاء التجنيس، جامعة حمه لخضر –الوادي، ص1

[3] ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص41

عن غيره من الأنواع الأدبية، والرحلة الواقعية معناها أنها حدثت بالفعل...أما الرحلات الخيالية الصرف – تلك التي لم يقم بها مؤلفها فعلا فلا تدخل في مجال أدب الرحلات مهما استند مؤلفها إلى حقائق ووقائع نقلت إليهم ومن أمثلة تلك الرحلات: التوابع والزوابع لابن الشهيد، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري."[1]فالشرط الأساسي في أدب الرحلات هو الواقعية؛ أي أن الرحلة حدثت فعلا وقام بها صاحبها، والواقعية هي الميزة الفارقة بين الرحلة كفن والفنون الأخرى. هذه نظرة الموافي لأدب الرحلة.لكن كل هذا لا يمنع من وجود وقفات خيالية في الرحلة كما سيظهره مشوارنا هذا.

فقد جاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: بأن أدب الرحلة "يدخل في درس «الصورولوجيا»* أي دراسة صورة شعب ـد شعب آخر "[2] ف(سعيد علوش) في تعريفه انطلق من جانب واحد هو دراسة شعب وتتمثل هذه الدراسة في العادات والتقاليد ونمط الحياة، والمستوى الثقافي والعلمي وغيرها، لكن أدب الرحلة كما هو معروف، لا يركز عدسته على دراسة شعب فقط؛ بل يتجاوزه إلى كل ما شاهده من عمران، أوجبال وأودية وبحار ومسالك وممالك وحيوانات، قد تكون غريبة بالنسبة إليه، مألوفة عند غيره وهكذا.

أما في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لصاحبه:(مجدي وهبة) فيقدم تعريفا عاما لأدب الرحلة؛ فهو يمثل "مجموع الآثار الأدبية الّتي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد."[3] إذا كل مؤلف تناول انطباعات صاحبه ، أو مشاهداته لا مناص من تصنيفه من كتب أدب الرحلة حسب رأي الناقد.

نلمح نفس الشيء عند إميل يعقوب من خلال هذا الكلام: " الأدب الذي يضمنه الكاتب الرحّالة انطباعاته، ومشاهداته في الأقطار المختلفة الّتي يزورها، ويشمل على وصف الطبيعة الجغرافية كما يشمل على وصف النّاس وتقاليدهم وأنماط حياتهم وتفكيرهم ونبذة عن تاريخهم البعيد والقريب؛ مما يجعلها في بعض الأحيان

[1] ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص41.

*الصورولوجية:هي علم يهتم بدراسة الصورة سواء أكانت صورة صوتية (كإبداع موسيقي مثلا) صورة بصرية (حلم، إشهار، لافتة) صور خيالية (بطل في عمل أدبي)والصورولوجيا لا تنظر للصورة بوصفها منتجا أدبيا وحسب بل تنظر إليها أيضا بوصفها منتجا اجتماعيا وتاريخيا وانتروبولوجيا وتيولوجيا...إلخ...وتنبغي الإشارة إلى أنّ الصورولوجيا لا تحبس جهودها البحثية عند الصور لتتعداها إلى الأفكار والذهنيات الّتي تنتجها ينظر:.ميداني بن عمر مقال أدب الرحلة بين التباس المفهوم واستعصاء التجنيس، جامعة حمه لخضر، الوادي، ص9

[2] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت سوشبريس الدار البيضاء، ط1، 1405 1985، ص98

[3] كامل المهندس، مجدي وهبة: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ساحة ريّاض اللح، بيروت، ط2 ، 1984

مرجعا وثائقيا تاريخيا هاما، وموضوعا للدّراسة المقارنة في مختلف مجالات الأدب والفكر والحياة."[1]

والخلاصة الّتي يمكن أن نصل إليها هي: أن أدب الرحلة نوع من الكتابة الّتي يلجأ إليها الرحال، ليدون مشاهداته وانطباعاته حول البلد أو البلدان الّتي دخلها، أو حتى مرّ بها فيصف عادات وتقاليد سكانها، ونمط المعيشة في تلك البلدان، ووصف معمارية بناياتها، كما يصف طبيعتها وحتى الحيوانات الموجودة فيها...أثناءالرّحلة أو بعدها، من خلال الاسترجاع والتذكر بقلمه وأسلوبه، أو بالاستعانة بكاتب آخر إن كان الرحّال ممن لا يحسن الكتابة كما فعل(ابن جزي) كاتب رحلة ابن بطوطة.

2- علاقته بفن السيرة:

قبل المضي قدما في الحديث عن أدب الرحلة، لا بد أن نقف وقفة قصيرة، مع علاقة أدب الرحلة بالسيرة وبيان مدى تداخلهما، أو تطابقهما، وذلك من خلال عرض بعض الأقوال لمجموعة من النّقاد ومناقشتها بسرعة لأنّه لا يوجد إشكالا كبيرا أو غموضا يتطلب توضيح كبيرة، وأدلة أقوى في بيان العلاقة بين الفنّين.

وقد فصّل الكثير من النّقاد في هذه المسألة؛ فمنهم من رأى أنّ الفنين يشكلان علاقة الجزء بالكل، وهذا ما ذهب إليه(عبد الرحيم مودّن) حينما صرّح بأنّ" الرحلة صفحات ذات دلالة، من سيرة الرّحالة، وسواء طالت أم قصرت، فإنها تمثل حقيقة لا تنسى بالنسبة إليه."[2] إذا لو اعتبرنا أن إنسان رحال قد كتب سيرة حياته في كتاب؛ فهو ولا شك أنّه سيتحدث عن الرحلة الّتي خاض غمارها في حقبة ما قد عاشها؛ لتصبح هذه الرحلة جزء لا يتجزأ من حياته، والمراد من ذلك أنّ الرحلة جزء من سيرته.ومنهم من ذهب إلى أنّ الرحلة والسيرة متداخلان، وأنّ أوافقه الرأي؛ كون الرحلة -كما سبق ذكره- جزء من السيرة؛ أي لا مناص من وجود صفحات تحكي عن رحلة إنسان ضمن نسيج السيرة الذاتية، أو الغيرية، كما لا يخلو أي نص رحلي من " وجود السيري في نسيج الرحلة "[3]، وبما أنّ السيرة هي كما ذهب إليها العديد من النّقاد ومنظري الأدب، وصف للحياة وإبلاغ المعلومات عن النّفس [4] يفهم من القول أنّ السّيرة الذاتية ترجمة ذاتية، كما هي ترجمة غيرية لحياة إنسان وهذا ما يقودنا إلى القول "بأنّ السيرة الذاتية هي رحلات حياتية، وفكرية في الوجود المادي، والروحي، مثلما هي الرحلات

[1] إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي: المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987، مج1 ، ص60، 61

[2] - عبد الرحيم مؤدن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر -مستويات السّرد، ص 66

[3] - شعيب خليفي: الرحلة في الأدب العربي -التجنيس، خطاب المتخيل -كتابات نقدية، مكتبة الأدب المغربي، دط ، 2002م، ص53

[4] - ينظر ميخائيل بختين، رؤية موسوعية فلسفية جمالية سكولوجية، تر: عقبة زيدان، دار نينوى للدراسات والنّشر والتوزيع ، دمشق، ط1، 2017م /1438هـ، ص 221, 222

في العمق سيرة ذاتية محدودة"[1].وهذا ما أشرنا إليه سابقا عندما افترضنا بأنّ الرحلة صفحات من حياة الإنسان، واستخدام الكاتب هذا اللّفظ لم يكن عبثا، ولكن ليثبت أمرا واحدا هو: أنّ الرحلة مقطع سير ذاتي من حياة إنسان، لا يتجاوز فترة زمنية معينة هي فترة سفره.

أما عن علاقة الرحلة بالمذكرات أو اليوميات، فهي وسائل مساعدة لكتابة نص الرحلة؛ (فابن جبير)كتب رحلته " في شكل مذكرات يومية، ويبدوا أنّه كتبها في أوراق منفصلة، ولم يجمعها بنفسه، بل جمعها بعض تلاميذه، ثم نشرها بعد وفاته"[2]، ومثله فعل(محمد بن ناصر العبودي) في تأليف رحلته، بالاستعانة بما كتبه من يوميات دوّن فيها مشاهداته، وفيها قال:" وجدتها مفيدة فائدة كبيرة لأنّني كنت ارجع إليها في العناوين والأمور المتعلقة بالجمعيات الإسلامية"[3] وقبلهم (ابن بطوطة) الّذي أملى رحلته من الذاكرة على كاتبها (ابن جزي). إذا المذكرات أو اليوميات، أو الذاكرة هي وسائل مساعدة يلجأ إليها الرّحال في كتابة رحلته.

3- نشأته وتطوره:

إذا تكلمنا عن نشأة أدب الرحلة من أول نص يطول بنا المقام، ونخرج عن المقصود؛ لأن تتبع البدايات الأولى يعنى الرجوع إلى العصور ما قبل الميلاد، تلك العصور التي كان الإنسان البدائي يسجل و يدون حروبه ورحلاته، وتجارته...، وكل ما يتعلق بحياته على الكهوف والأشجار والأوراق...، وكل مخلفات هذا الإنسان -إنسان ماقبل الميلاد- والتي مثّلت ثقافة تلك الفترة من الزمن السحيق، ووعيه وفكره...والتي تمكن العلماء المتخصصين من دراستها انطلاقا من الآثار الكثيرة الّتي خلّفها "أناس تلك الأزمنة والّتي ظلت محفوظة بصورة سليمة نوعا ما في طبقات الأتربة، أو على جدران الكهوف" [4] لذلك نقتصر الحديث عن النشأة من الفترة التي بدأ العرب في تأليف رحلاتهم أي " منذ القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي "[5] والمحاولات الأولى عند العرب في تأليف هذا النوع من الكتب تعلقت بدراسة سطح الأرض وهو ما يعرف بعلم الجغرافية، وأهم من يمثل هذه الفترة "ابن خرداذبه(ت272هـ)، الّذي نضجت بين يديه ثمار السابقين من المؤلفين في الجغرافيا، أمثال النضر ابن شميل، والأصمعي، والجاحظ وقد ألف ابن خرداذبه 'كتاب المسالك والممالك 'وكان دافع الرجل في

[1] - شعيب حليفة: الرحلة في الأدب العربي، ص 50

[2] - سيد حامد النّساج: مشوار كتب الرحلات، قديما وحديثا، ص21

[3] - محمد بن ناصر (العبودي): حصاد الرحلات، 1428هـ، ص22

[4] عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984، ص17

[5] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)، 2009، ص 40

التأليف تنظيم أمور البريد."[1] لتتوالى بعده الإصدارات حيث جاء بعده(ابن رسته) المولود في أصفهان الّذي ألّف" كتابا موجزا لفائدة أمناء سر الخلافة أو كتاب(الدواوين)، دعاه 'الأعلاق النفيسة 'وقد كان هذا المصنف كما يظهر أكثر اتساعا وشمولا بكثير من كتاب(ابن خرداذبه)، وبعبارة أخرى كان عبارة عن موسوعة تشمل على كل المعلومات الّتي يجب أن يحيط بها كاتب ديوان كفء، أو نوع من مذكرات تبحث في العلوم والتّاريخ والأدب والجغرافية، ولم يصلنا سوى قسم منه وهو السابع الّذي يختص بالجغرافية."[2] وتتواصل التآليف على هذا النمط من الكتابات بعد ابن خرداذبه وابن رسته بمؤلف آخر أو موسوعة كتبها "موظف آخر من سكان بغداد هو قدامة المتوفي عام(320هـ/932م)...تماثل في روحها وأسلوبها موسوعة ابن رسته تماما...المعنونة ب:**'كتاب صناعة الكتابة'** تؤلف مجموعا أكثر كمالا ومنهجية بكثير وذا اتجاه أدبي بارز" [3]من موسوعة ابن رسته ومن سبقه.

وهؤلاء الكوكبة من الرحالة والجغرافيين، وأمثالهم كالبلاذري وابن الفقيه، واليعقوبي والجيهاني...الخ تمثل البداية الحقيقية لعلم البلدان[4] يتواصل التأليف في الرحلة في القرن الرابع للهجرة، حيث توج هذا العصر بكُتّاب بلغ صيتهم الأفاق " من أهمهم المسعودي[5](ت346هـ) 'صاحب مروج الذهب ومعادن الجوهر'، وابن فضلان الّذي أوفده الوافد إلى بلاد البلغار ونهر الفولجا...أعقبته كتب عن رحلات للاصطخري، وقدامه ابن جعفر، وابن حوقل والمقدسي وغيرهم من رحالة وجغرافيي هذا القرن"[6] أما القرن الخامس الهجري(15هـ) الحادي عشر الميلادي(11م) فقد افتتح برحلات في بالغ الأهمية " قام بها الطبيب البغدادي ابن بطلان عام(404هـ) إلى الشام ومصر وأنطاكيا والقسطنطينية ولكن كتاب البيروني(ت440هـ).' تحقيق ما للهند من مقولة ' هو ليس كتاب في الرحلات أو الجغرافيا فحسب، وإنما يتضمن أراء في الدين والفلسفة والتاريخ...حيث يحتل هذه الصفحة بعض رحالة وجغرافيي المغرب الإسلامي...منهم أحمد بن عمر العذري الّذي ارتحل إلى الشرق وعاش في مكة تسعة أعوام وخلف لنا كتاب أسماه 'نظام المرجان في المسالك والممالك ' إلى أن نصل إلى أبو عبيد عبد الله البكري 'ت487هـ) رحالة الأندلس في هذا القرن وله كتابان هما 'المسالك والممالك 'و'معجم ماستعجم من أسماء

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، ص40

[2] عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص67، 68

[3] المرجع نفسه، ص68

[4] ينظر فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي، 2002، ص 72

[5] – هو علي بن الحسين بن علي المسعودي، أشتهر بكتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر "،كانت وفاته سنة 346هـ الموافق ل 957م، عرف بطوافه في المدن والأمصار؛ فخلّف لنا رحلتين: الأولى كانت عام 921م تعرف في أثنائها إلى مصر وفارس وإيران والهند وسرنديب (جزيرة سيلان)، ومدغشقر وعمّان.والرحلة الثانية: كانت عام 926م تعرف فيها إلى ما وراء أذربيجان وجرجان والشام وفلسطين.ينظر جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه (المسعودي، ابن بطوط، الريحاني).دار الثقافة نشر وتوزيع، بيروت، ط1، 1966م، ص 29، 30.

[6] المرجع نفسه، ص73، 74

الأماكن والبقاع'."[1] ليأتي القرن السادس الذي يكاد ينافس في "حجم الإنجاز الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرحلة...بخروج رحالة جسور هو ' أبو حامد الغرناطي الأندلسي(ت508هـ)حيث قام بتصنف كتابين هما 'تحفة الألباب ونخبة الإعجاب 'وكتاب ' المغرب عن بعض عجائب المغرب'...

وسرعان ما يعلو في الأفق نجم كبير، هو الشريف الإدريسي(ت560هـ)صاحب كتاب 'نزهة المشتاق في اختراق الآفاق '...ثم نلتقي بالرحالة الأندلسي العالم الفقيه 'أبو بكر العربي(ت543هـ)الّذي كان أول من استخدم لفظ(رحلة) في عنوان مؤلف حيث وضع كتاب سماه 'ترتيب الرحلة ' ويعتبر بهذا أول من وضع أسس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة...وقد كان أبو بكر العربي خير تمهيد لظهور أديب رحالة معروف هو ابن جبير(ت614هـ)،...ونصل مع ختام القرن إلى رحالة معاصر لابن جبير هو 'علي الهروي 'الّذي لقب بالسائح من كثرة تجواله في البلاد، وقدخلف كتابه الشائق 'الإشارات في معرفة الزيارات' ".[2]. ليطالعنا القرن السابع للهجرة بإنجازات لعل أهمهاكتاب 'معجم البلدان' لياقوت الحموي(ت626هـ) وكتاب الرّحالة (يوسف ابن يعقوب المشقي) المشهور بابن المجاور(ت669هـ) الموسوم ب' تاريخ المستبصر' والرحالة الأندلسي ابن سعيد(ت673هـ) بعدة كتب منها 'المشرق في حلى المشرق' و' المغرب في حلى المغرب' ومحمد العبدري بكتاب ' الرحلة المغربية' [3] يطالعنا في القرن الثامن الهجري "أبي الفداء(ت732هـ) الذي كان حاكما لحلب ودمشق وحماة...وقد أغرم بالتاريخ والجغرافيا ووضع مصنفين كبيرين...هما 'مختصر تاريخ البشر' و' تقويم البلدان '،

ومن رحّالة هذا القرن (8هـ) أيضا بن رشيد الفهري ومحمد التّجاني...وقد زين صدر هذا القرن بموسوعات مهمة، وكلها تسهم في إضاءة أدب الرحلات وخدمته، مثل' نهاية الإرب في فنون الأدب ' للنوري و'مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأبي الفضل العمري '، و' صبح الأعشى للقلقشندي...على أنّ كل ما أثمره هذا القرن يتضاءل كثيرا إزاء ظهور النجم الكبير والرحالة العالمي صاحب 'تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار' ذروة أدب الرحلة العربي...إنّه الرحالة ابن بطوطة أبو عبد الله اللواتي الطنجي*...أما آخر الرحلات

[1] جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه (المسعودي، ابن بطوط، الريحاني). ص74

[2] فؤاد قنديل :الرحلة في التراث العربي، ص85، 86

[3] ينظر المرجع نفسه، ص77، 78

* تجلّت شهرته من خلال كتابه الموسوم ب: 'تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار' الّذي ضمّ رحلاته الثلاثة الّتي جاب بها العالم وهي على التوالي: الرحلة الأولى وهي أطول رحلاته لاستغراقها زمن كبير من حياته:وهي الحج إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام انطلق فيها من طنجة، مرورا بالعديد من البلدان منها إفريقيا الشمالية، مراكش، الجزائر، تونس، طرابلس، مصر فلسطين، سوري، الحجاز.والرحلة الثانية كانت إلى إسبانيا مرّ فيها على سبتة، وجبل طارق، ومالطة، وغرناطة، ثم العودة من جديد إلى فاس.والرحلة الثالثة كانت وجهتها إفريقيا حيث دامت سنتين فقط زار فيها بعض المناطق الإفريقية، ثم بعدها عاد إلى فاس حيث أمضى ما تبقى من حياته.ينظر: جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه (المسعودي، ابن بطوطة، الريحاني)، ص 58-60

المهمة...رحلات العالم والسّياسي والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون(ت808هـ) الذي أوردها ضمن كتابه ' التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا '، وكان تركيزه الأكبر على استعراض سيرة حياته... هكذا انحسرت الرحلات بعد القرن الثامن الهجري أو تكاد.[1] تعلل سمير ة أنساعد هذا التراجع الذي أصاب الرحلة خلال القرنين المواليين لهذا القرن التاسع والعاشر الهجريين(15-16م) وترجعه "لشدة وطأة الحروب وتزايد هجمات الأوربيين على السواحل المغاربية على الخصوص "[2] وبعد هذا التوقف الاضطراري في التأليف في هذا النوع من الكتابة الجغرافية وأدب الرحلة، عاد من جديد ورجع إلى نشاطه المعهود ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري(السابع عشر الميلادي)، ونذكر من بين الذين عرفوا في فن الرحلة بعد ابن خلدون: الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي(ت957هـ-1550م)مؤلف رحلة 'وصف إفريقي'، وأبو سالم العياشي(ت1090هـ) صاحب الرحلة الضخمة 'ماء الموائد ومحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني(1096هـ-1684م)مؤلف رحلة 'المعارج المرقية في الرحلة المشرقية'، وأحمد بن ناصر الدرعي(1128هـ)صاحب 'الرحلة النّاصرية الكبرى'."[3]

بعد أن كانت وجهة الرّحالة في معظمها نحو المشرق والمغرب، جاء العصر الحديث ليتغير معه اتجاه الرحلات من المشرق والمغرب، إلى أوربا ولعل هذا مرجعه التطور الحاصل بدول الغرب، خاصة بعد الثورة الصّناعية، وما انجر عنها من تجديد لوسائل العمل وأساليبه وإنشاء مراكز علمية كبيرة، ولم يعد المهتمون بطلب العلم، يشدون الرحال إلى مصر، والحجاز، والشام، والعراق كما كان قديما، بل أصبح هؤلاء يتوجهون نحو فرنسا وإيطاليا، وإنجلترا، وأمريكا، وغيرهم من الدول الغربية، ولم تكن الرحلة إلى هذه الأقطار لغرض التعلم فحسب، بل خصّت كذلك أغراض شتى سياسية، واقتصادية، وسياحية، ومن أشهر الرحلات التي مثلت هذا الاتجاه في بداية النهضة، رحلة رفاعة الطهطاوي(ت1290هـ-1873م) إلى فرنسا المعنونة ب'تخليص الإبريز في تلخيص باريز' ورحلة أحمد فارس الشدياق(1305هـ-1887م) ووجهة رحلاته كانت نحو بلدان غربية منه: مالطة وبريطانيا وفرنسا ضمن مشاهداته وانطباعاته نحوها في كتابين وسم الأول ب'الواسطة في معرفة مالطة' وعنوانه يسفر عن البلد المزار، والكتاب الثاني وسمه ب'كشف المخبأ عن فنون أوروبا'، أما في المغرب العربي نجد خير الدين التونسي(ت1308هـ-1890م) كانت دواعي رحلاته سياسية وإدارية نحو بلدان الغرب كفرنسا وبلجيكا والنمسا وغيرها حيث ضمّن أخبار ما عاشه وشاهده هناك من أخبار الآخر وثقافته في كتاب سماه 'أقوم المسالك

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص78-80

[2] سميرة أنساعد:الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص44

[3] المرجع نفسه، ص44، 45

في معرفة أحوال الممالك' وعنونة كتابه تبدي لنا تأثره بالتراث الذي خلفه الأجداد.

أما في الجزائرنجد العديد من الرحلات الجزائرية التي مثلت هذا التوجه الجديد إلى بلدان غربية منها رحلتا الجزائريين(سليمان بن صيام)، و(أحمد ولد قاد)، المنجزتان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.الأولى كانت سنة 1852م والموسومة ب'الرحلة الصيامية' والمشتقة من اسم صاحبها، والرحلة الثانية كانت سنة 1878م والتي عنونها صاحبها ب' الرحلة الفادية في تبصير أهل البادية'.[1]

أما عن الرحلة في القرن العشرين فتعددت دواعيها والعلل التي كانت المحفز للقيام بها.فها هو (البشير الإبراهيمي) يقوم برحلات نحو بلدان عربية وغربية، تبدأ بباكستان وباريس وروما لتنتهي بمصر. ورحلته وردت ضمن كتابه: آثار الشيخ البشير الإبراهيمي تحت عنوان' رحلتي إلى الأقطار الإسلامية '. وغرضها إصلاحي دعوي، ولعل الهدف الأسمى منها هو توحيد الأمة الإسلامية، والتعريف بالقضية الجزائرية، التي كانت تتخبط في براثن الجهل والأمية، تحت راية المستعمر الفرنسي، ومن رحلات القرن العشرين أيضا رحلة (المنصور الغسيري)[2] إلى المشرق، والتي كانت عبارة عن حلقات،حيث ركز صاحبها في الحلقتين الأوليتين على رحلته إلى مصر مع وفد كشفي، للمشاركة في احتفالات التحرير المصرية بدعوة من الكشافة المصرية، وقد عنونها 'مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية' أما بقية الحلقات فكانت تحمل عنوانا رئيسيا هو: 'عدت من المشرق '.

ومن رحلات القرن العشرين رحلة (عثمان سعدي) التي حملت عنوان 'وطني ' وهي رحلة علمية كانت وجهتها نحو مصر وهي عبارة عن مقال نشر في جريدة البصائر.ورحلة (محمد علي دبوز) الموسومة ب' وقفة في دار الرافعي وعلى قبره.' وجهته كانت المدينة التي عاش فيها(مصطفى صادق الرافعي) وهي طنطا المصرية.أما (أحمد توفيق المدني)(ت1983م) كانت رحلته نحو المشرق بهدف السياحة والاستكشاف وأحيانا أخرى سياسية ودينية وثقافية، وانقسمت رحلاته إلى قسمين: قسم أول كان باتجاه بلدان عربية كمصر والسودان والسعودية والكويت...لأهداف منها جمع المال لصالح جبهة التحرير الوطني.أما القسم الثاني فأعطى له عنونا على خلاف الأول حيث وسمه ب'الرحلة العربية الكبرى، سنة 1959م وتمثلت في معاودة زيارة البلدان الّتي قدمت المساعدة

[1] ينظر سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص 45- 48

[2] – وهي رحلات جاءت في سياق نشاطه الكشفي المنخرط فيه التابع لجمعية ومدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، الّتي كانت تشرف على تأطير النشاطات الكشفية لتلاميذ هذه المدرسة.حيث تلقت هذه الكشافة دعوة من نظيرتها المصرية للمشاركة في احتفالات الذكرى الأولى لثورة الضباط الأحرار، وكان الغسيري من أعضاء هذه المجموعة، وكانت الرحلة إلى القاهرة برا انطلاقا من بسكرة يوم 21 جويلية 1953م، مرورا بتونس وليبيا.وبعد العودة من هذه الرحلة الّتي دامت زهاء شهر كتب عنها الغسيري سلسلة من المقالات نشرتها البصائر تحت عنوان(عدت من الشرق). ينظر: عبد النور آيت بعزيز، الشيخ محمد المنصوري الغسيري المربي المعلم والمرشد المناضل (1912م، 1974)، مجلة قضايا تاريخية، ع 5، 1438هـ/2017م ص 54، 55.

لجبهة التحرير الوطنية بغية تقديم الشكر والامتنان لهم.

خير من يمثل رحلات فترة الاستقلال (أبو القاسم سعد الله) برحلاته، والتي كان غرضها علمي في الغالب كحضور الندوات، تحت عنوان 'رحلتي إلى الجزيرة العربية ' طبعها سعد الله في كتابه 'تجارب في الأدب والرحلة' ورحلات أحمد منور إلى أوروبا والتي نشرت في ثماني حلقات بجريدة السلام والتي كان غرضها السياحة والتجوال وقضاء عطلة الصيف بفرنسا وانجلترا، وكان هذا سنة (1976م) ومنها رحلات ذات وجهة عربية كزيارته لليبيا ومصر والكويت، والتي نشرة تحت عنوان' أسفار وذكريات(مصر)(رحلة إلى جزر القمر)'و'من مذكرات عائد من الجماهيرية الليبيا العربية."[1]

وخلاصة الكلام مما سبق عرضه من الرّحلات منذ القرن الثالث الهجري حتى القرن العشرين، أن منطلقها قبل أن تدخل عالم الأدب هو تنظيم أمور البريد، ومعرفة سطح الأرض، كما لا يخفى على دارس الرحلة الدوافع الأخرى في تأليف الرحلة كالحج وطلب العلم، وأن الرحلة اكتسبت أدبياتها بفضل حركة التدوين،ومن الرحالة العرب الذين اشتهروا بتدوين رحلاتهم سواء كانت مشرقية الوجهة، أو مغربية: ابن جبير، وابن بطوطة، والإدريسي، والمقدسي وغيرهم كثير، حيث نقلوا لنا حضارات الأمم السابقة، وقدموا لنا خدمات من خلال ما نقلوه من أخبار لا يستهان بها، لازال العالم يستفيد منها حتى عصرنا الحالي وكل ذلك في أسلوب أدبي يبعث المتعة والتشويق لدى القارئ.

4- أهمية أدب الرحلة :

إنّ لأدب الرحلة أهمية عظمى للإنسانية قاطبة؛ وذلك لغنى نصوصّه بالعلوم المتنوعة التي يُدرجها صاحبها ضمن مضامينها، كعلم التاريخ والجغرافيا، وعلم الاجتماع والاقتصاد....فهذا الأدب يمثل " صورة للمجتمع ككل ظلالا وحقيقة وأضواء، إيجابيات وسلبيات، لذا فإن كاتب هذا اللون من الأدب يجب أن تكون لديه فكرة عن تاريخ العالم بوجه عام، وعن حضارته القديمة، والحروب المختلفة والنظم السّياسية المتباينة حتى يستطيع أن يربط ما يشاهده في رحلته الآنية بأصوله التاريخية إن وجدت."[2] كما يمكن القول بأن الرحلة من الناحية العلمية مصدر مهم للمعلومات التاريخية ، والجغرافية ، والأثنولوجيا ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأدبية وغيرها.يلجأ إليها المتخصصون للنّهل من معينها، وهذا إن دل فإنما يدل على الأهمية البالغة التي يتمتع بها أدب الرحلات.كما لا

[1] ينظر عبد النور آيت بعزيز، الشيخ محمد المنصوري الغسيري المربي المعلم والمرشد المناضل (1912م، 1974)، مجلة قضايا تاريخية،، ص78-102

[2] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلات، ص 100

ننسى الفائدة الكبيرة التي قدمتها لنا الرحلات والتي عاد نفعها على الإسلام والمسلمين عامة " فقد كان اتساع رقعة الدولة الإسلامية يتطلب معلومات جديدة عن تلك البلدان النائية وشعوبها فلا بد للحكام المسلمين أن يتعرفوا على طبائع السّكان وتقاليدهم، وعلى إنتاج البلاد الزراعي والصّناعي وثرواتها ليمكن تقدير خراجها، كما لابد لهم من التعرف على أسماء مدنها والطرق المؤدية لها "[1].

أدب الرحلة يتعرض لجميع نواحي الحياة عكس الفنون الأدبية الأخرى، وهذا ما صرح به(حسني محمود حسين) في كتابه(أدب الرحلة عند العرب)حيث قال:"إذا قلنا أنّ فنا من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية من نواحي الحياة، فإننا نقول أنّ نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد؛ إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد، ومؤرخي الأدب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم."[2]فهو مرجع أساسي لكل عالم أيّا كان تخصصه.

ومن الفوائد العظيمة التي يقدمها لنا – أدب الرحلات – " الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الّذي تشكل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحالة، والانتباهات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار."[3] إذا هو يكشف الغموض الّذي تتميز به الشعوب المرتحل إليه.

وجهت لأدب الرحلة تهم تشكك في صدقه، وأمانته، وما يقدّمه من أخبار عن الآخر، وعن المكان المزار وما ينقله لنا من معارف ، وأمور أخرى كثيرة أفادت منها الإنسانية عامة ،إذ أحدثت نوعا من النفور والابتعاد عنه كما ساهمت في العزوف عنه، وتسببت في ترك الكثير من الرحلات مخطوطة دون تحقيق ، والتي مازالت حبيسة الرفوف وأدراج المتاحف والزوايا وغيرها، لكن يجدر بالباحث العاقل أن لا يصدق الدعايات المضللة ، والداعية إلى التخلي عن هذا التراث العظيم الّذي تركه لنا الأجداد بما يحويه ويتضمنه من معلومات ، وأخبار تخدم الانسانية خاصة فقد تأكد اليوم وفي ضل هذه النهضة الاتصالية أنّنا " بأمس الحاجة إليه؛ ذلك أنّ العالم العربي أصبح مستقبلا لكثير من الحضارات ذات القيم، والعادات المختلفة، والتي تهدد الهوية الإسلامية العربية، من خلال هذه القنوات الاتصالية المتعددة، مما يعني أننا بحاجة إلى الرّحالة الواعي الذي يقدم لنا رؤيته عن هذه الحضارات بعيد عن الانخداع أو التزوير، ويسهم في كشف الجوانب النّافعة في هذه المجتمعات للإفادة منها، وبيان خطورة

[1] شاكر خصباك: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986، ص11

[2] حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1403هـ/1983م، ص6

[3] – سليمان بن صيام، أحمد ولد قاد، محمد بن الشيخ الفغون القسنطيني، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس (1852م، 1878م ، 1902)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمرات العربية المتحدة، ط1، 2005م، ص09

الظواهر التي تضر بقيم المجتمع الإسلامي، وتهدد أخلاقياته."[1] إذا المراد من القول أنّ عصر النهضة العصر الذهبي لفن الرحلة، وذلك عند إدراكهم للقيمة الكبيرة التي يتمتع بها خاصة في بيان المجهول وكشف المستور، عن ما يحدث بالفعل في الأماكن التي دخل إليها الرّحال بمخالطاته للآخر، ومشاهداته الحية، والمعاينة لمختلف مظاهر الحياة لديه، وبالتالي إظهار صدق، أو كذب ما تروج به بعض القنوات من أخبار كاذبة، وادعاءات مظللة؛ قد ينساق وراءها ضعاف النفوس.

يقول (حافظ محمد بادشاه) في أطروحته إنّ أدب الرحلة يهتم " برصد الواقع في ثوب أدبي وهو إلى ذلك يقدم المعلومة في ثوب أدبي، حتى ليمكن أن نعد الفائدة والمتعة، وجهين لعملة واحدة، هي' أدب الرحلة'."[2] لما نقول الواقع أو الفائدة تتجلى لنا القيمة العلمية التي يتمتع بها أدب الرحلات، ولما نقول المتعة نقصد القيمة الأدبية؛ أي الأساليب الراقية التي ترتفع إلى مصاف الأدب، ومنه يتضح لنا أنّ لأدب الرحلات قيمتان: قيمة علمية وقيمة أدبية.

5- قيم أدب الرحلات:

5. 1- القيمة العلمية:

وتأتي هذه القيمة من خلال ما " تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما يدونه الرحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة والنّاس وبالحياة؛ بمعنى ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي الجغرافيين ، والمؤرخين ، أو علماء الاجتماع ، أو الاقتصاديين. إنه وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل على خدمة علم الجغرافيا، فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك، وعندما يتحدث عن الطبيعة والمناخ ، وظاهرات توزيع السّكان...مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة، وما يقال عن الجغرافيا يقال عن التاريخ والأدب والاقتصاد والأديان والأساطير... ذلك أنّ الرحلات سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة في مجتمع بعينه.[3] يتضح مما سبق الأهمية الكبيرة التي قدمتها الرحلة للكثير من العلوم، ولاسيما علمي الجغرافي والتاريخ على السواء.

---

[1] عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي: أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجيستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1417هـ/1418، ص09

[2] حافظ محمد بادشاه: الحجاز في أدب الرحلة العربية، أطروحة دكتوراه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، 2009، 2013، ص34

[3] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة، مكتبة غريب القاهرة، دط، دت، ص7، 8

5. 2– القيمة الأدبية:

وهي بمثابة الثوب القشيب الذي تزهو به المعلومات التي ينقلها لنا صاحب الرحلة، لتبعث فينا المتعة والشوق لقراءة متن الرحلة دون كلل ولا ملل. وفي هذا المعنى يذهب (سيد حامد النساج) في حديثه عن هذه القيمة –الأدبية– التي يتحلى بها الرحال في كتابة رحلته يقول:" أما أسلوب الكتابة واللغة التي يتوسل بها كاتب الرحلة؛ فإنه قد يضيف إليها قيمة أدبية، وبخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير والخرافات، وبعض المحسّنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حد من الدقة علاوة على ما قد يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي سلس مشرق.وهذا هو الّذي يجعل بعض الدّارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي عندما يصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية."[1]ومن هذين القيمتين تتفرع قيم أخرى لا تقل أهمية عنهما لعل أهمها القيمة التعليمية.

5. 3– القيمة التعليمية :

وتتمثل هذه القيمة " من حيث إن هذا النوع من الكتب يسهم في تثقيف القارئ، وإثراء فكره وتأملاته عن الآخرين؛ ذلك أنّ كتاب الرحلات يصورون إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر، الّذي قاموا فيه برحلاتهم، وثقافة البلدان الّتي ذهبوا إليها، وأحوال الشعوب، الّتي اختلطوا بها، ثم إن مثل هذه الكتب في مثل هذه الحالة تعتبر مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية، كما تعد أكبر المدارس تثقيفا للإنسان؛ فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وقناعاتهم، والتحقيق في دياناتهم، ونظم حكمهم غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة من حيث إنها تساعده على إعادة النّظر في تقاليد ونظم بلاده.[2]

والفائدة الّتي نجنيها من أدب الرحلة هي كما قال مؤلف كتاب: 'أدب الرحلة في التراث العربي فؤاد قنديل':" فلول الرحلة – وهي إرادة الله بالقطع ماسمعنا عن البيروني أو المسعودي، وابن خلدون، ولا قرأنا عن الإدريسي ولولاها لما استمتعنا بكتابات ابن بطوطة وأسامة بن منقذ، وياقوت الحموي والبغدادي، وابن جبير، بل لولاها ما ظهر في سماء الأمة الإسلامية علماء كبار في كافة مجالات الأدب والعلم والفلسفة."[3] فالرحلة ساهمت في إثراء الثقافة الأدبية العربية، خاصة عندما قدمت لنا مجموعة لا يستهان بها من التآليف مع ذكر أصاحبها.

[1] سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة ، ص8

[2] المرجع نفسه: ص 8

[3] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص68

6- تدوين الرحلة:

عرف الإنسان الرحلة منذ أمد بعيد جدا، منذ خلق الله تعالى أول إنسان- سيدنا آدم- عليه السلام ثم سواه بشرا، وبث فيه من روحه، وجعل له عقلا يفكر به، ولعل أول رحلة لهذا المخلوق العاقل كانت بين بساتين الجنة وأشجارها وأنهارها، يمكن عدها من قبيل رحلة سيّاحية استكشافية، أما رحلته الثانية من الجنة إلى الأرض بحثا عن زوجته حواء، ومكان يأوي إليه وطعام وماء يسدا به حوائجهما البيولوجية؛ ليأتي أبناءهم مقتفين سنة أبيهم في مختلف العصور، والدهور على وجه الأرض التي تتعدد وتتنوع أغراضها حسب ما تفرضه طبيعة حياة الإنسان في ذلك الوقت: كالرعي والتجارة والحج وطلب العلم والرحلة من أجل العلاج...وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لكن الإنسان لم يعرف تدوينا لمثل هذه الرحلات رغم أنّ التدوين يعود زمنه إلى أصول غابرة تعود إلى مئات القرون بعد الميلاد، لكن طريقة التدوين والكتابة كانت تختلف حسب حياة الإنسان حيث كان التدوين على الجبال والكهوف وأوراق الشجر و الحجر...، فلولا هذه الوسائل البدائية لما وصلتنا فلسفة الرومان والإغريق ولما عرفنا عن أفلاطون وأرسطو وفلسفتهما ولما عرفنا شيء عن حروب طروادة ولا عن الإلياذة والأوديسة...ويعود الفضل في جمع تلك الآثار التي ما هي إلا كنوزا فكرية إلى علماء الآثار والحفريات.

لكن نحن لا يعنينا كل هذا، إلا بقدر التنويه على عملية التدوين، وجذورها المتوغلة في القدم رغم بساطة وسائل التدوين؛ ما يهم هنا هو الحديث عن بدايات التدوين لهذا الشكل من الكتابة.والمتطلع في المصادر والمراجع التاريخية والجغرافية يجد أنها " لم تأخذ طريقها إلى التدوين...إلا مع حلول القرن الثالث للهجرة، وسار وتطور التدوين متوازيا مع ألوان الكتابة المختلفة، التاريخية، والأدبية، والدينية، عبر مراحل خاصة، تحددت خلالها خصائص فن الرحلة، وعناصره التكوينية، ومدارس التأليف فيه، وبرزت أشكال، واتجاهات، وأساليب متنوعة بتنوع الهويات الثقافية، والاجتماعية للرحالين الكتاب؛ إذ اعتنى بها المؤرخ، والجغرافي، والأديب، والسفير...وهو ما أدى بالكثير من الدارسين إلى النظر للرحلات على أنها مدونات ووثائق مفيدة من الجانب الجغرافي، أو التاريخي أو الإثنوغرافي، دونما اعتناء بجانبها الفني والمضمون الذاتي، وهما المميزان لها عن كتب العلوم، أو الفروع الإنسانية غير الأدبية." [1]

فالبداية الحقيقية لتدوين هذا النوع من الكتابات التي تحصل في إطار سفر أو رحلة، ترجع إلى النصف

[1] سميرة أنساعد:الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)، ص 5

الأول من القرن الثالث للهجرة، وانطلاقتها تبدأ مع اللّغويين، الذين كانوا يرحلون إلى البوادي، لتعلم اللغة العربية الفصحة؛ فقد"كان معظم رحّالة وجغرافيي النصف الأول من القرن الثالث الهجري(التاسع الميلادي) من اللغويين، وأبرزهم هو اللّغوي والمؤرخ المعروف(هشام الكلبي ت حوالي 206هـ) الّذي يعد نموذجا للرحالة الخبير بالجزيرة العربية...وقد صنف العديد من المؤلفات، أهمها:(كتاب الأقاليم) و(البلدان الكبير) و(البلدان الصغير)وكتاب(أنساب البلدان)، وجاء بعده الأصمعي الذي توفي عام(216هـ) وقد كتب عن(الأنواء) و(رسالة في صفة الأرض والسماء والنباتات)...أما كبير علماء اللغة وهو(الجاحظ)(ت255هـ) فقد أورد المسعودي أنّه صنف مؤلفا عنوانه(كتاب الأمصار وعجائب البلدان)..."[1] ثم الجغرافيين" الذين حرصوا على ما حصلوا من علم فأودعوه بطون الكتب، وهم يمثلون معا البداية الحقيقية لعلم البلدان، وفي مقدمتهم(خرداذبة والبلاذري، وابن رسته، وابن الفقيه واليعقوبي والجيهاني) وتسبق هذه المجموعة مجموعة أخرى لكنها ركزت جهدها في منطقة واحدة مثل:(ابن الحائك، وأبو الوليد ألأزرقي(ت242هـ) والفاكهي(ت272هـ)."[2] هذا عن الرحلة كرحلة ونشاط كان يقوم به اللّغويون والجغرافيون كوسيلة من وسائل تلقي العلم وكشف المعمورة، ومعرفة كل شيء أودعه الله فيها، خدمة للبشرية عامة.

أما عندما نتحدث عن بداية تأسيس هذا النوع من الكتابة ،كفن أدبي لما يتضمنه من أساليب، ترقى إلى مصاف الأدبيات الأخرى، بل أحيانا تنافسها في جانب من جوانبها، خاصة الجانب القصصي، ترجع في عمومها إلى "أبي بكر بن العربي" *(ت543هـ) عندما دون رحلته عام(485هـ/1092م)، ثم تضيف المصادر والأبحاث جانب التأسيس إلى(ابن جبير)(ت614هـ) من خلال رحلته الموسومة بـ(تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار التي كانت عام(578هـ)."[3]

---

[1] فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي، ص71

[2] سميرة أنساعد:الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)،ص71، 72

* محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي، الأندلسي الإشبيلي...ولد ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربع مئة (468هـ). ينظر: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدّاوودي(ت945هـ)، طبقات المفسرين ج2، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ص167

"ورحل مع أبيه إلى المشرق، ودخل الشام...مات في الربيع الآخر ثلاث وأربعين وخمسمائة"ينظر: جلال الدين السيوطي: طبقات المفسرين، تح: علي محمد عمر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، المملكة العربية السعودية، طبعة خاصة، 1431هـ/2010م، 105

[3]– عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث – سياق النّص وخطاب الأنساق أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2016/2015ن ص15

*الورجيلاني: هو" يوسف بن إبراهيم بن مياد السدراتي الورجلاني، أبو يعقوب، مؤرخ، مفسر، من أكابر فقهاء الإباضية، من أهل ورجلان مولدا ووفاة، رحل في شبابه إلى الأندلس...كما وصل في إحدى رحلاته العلمية غلى أواسط إفريقية، وإلى قريب من خط الإستواء...وتوفي بمسقط رأسه من آثاره

أما في الأدب الجزائري فيعود أول تدوين لمثل هذا النوع من الكتابة – فن الرحلة- إلى "الوارجلاني** أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم(ت 571 هـ) برحلة حجازية جمع مسارها وحيثياتها ضمن قصيدة مطولة، تتضمن(374بيتا)، أبرز من خلالها عملا فنيا في مجال الرحلة، ومن ثم حق له أن يتوج رائدا للأدب في تاريخ الجزائر"[1] ومن مميزات رحلة الوارجلاني أنها "قد حققت كل شروط الأدبية التي اعتمدها جنس الرحلة بتمامه، ولو أنّ الرحلة كانت في وقت مبكر جدا، مما يدل دلالة قاطعة على أنّ (الوارجلاني)قطع شوطا كبيرا في تحقيق الريادة في هذا المجال، الذي كانت فيه الرحلة قابعة تتعثر في ميدان الجغرافية وعلم المسالك والممالك ".[2] يعلق بخيتي عيسى عن مطلع القصيدة الحجازية للوارجلاني قائلا:بأن الورجلاني بدأ الرحلة " بمطلع يشّف عن هيكل القصيدة التقليدي في الشعر العربي المنعطف عن الغزل، مع الاحتفاظ بخصوصية موضوع الرحلة العام...فالوارجلاني يبدأ قصيدته بغرض الغزل ليس لذاته، وإنما يبغي من ذلك الحصول على التفاضل بينه وبين المقصد العام للرحلة."[3] ومطلع القصيدة الحجازية هو:

عُذْري عُذْري من ذَوَات المَعَاجز ذَوات العُيُون النَجْل بيْضُ المَحَاجر

ذَوَات الشّفَاه اللَّعْس بالظُلم واللَّما غَرَائرُ حُرقَ الصُنْع سُودُ الغَرَائر

أما إذا أخذت برأي (سميرة أنساعد) من خلال كتابها(الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري) في مستهل حديثها عن حركة التدوين في الجزائر ونقلا عن (أبي القاسم سعد الله) من كتابه تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني قائلة: " ولعل أقدم من دون أخبار رحلته إلى المشرق، من رحالي الجزائر(أبو القاسم بن يوسف التوجيبي) التلمساني(730هـ، 1329م) كان قد زار مصر والحجاز، فلقي شيوخ القطرين، وأخذ عنهم كما أدى فريضة الحج فتضمّنت رحلته المدونة أخبارا عن كل ذلك، إضافة إلى وصف الآثار العمرانية، والمعالم الظاهرة في البلدين."[4] ذكر عبد الحي الكتاني عن "رحلة التوجيبي" أنها "في عدة مجلدات وأنه قد اطلع عليها بتونس، واعتبر الكتاني مؤلفها(مفخرة تلمسان)."[5] كما تحدث (سعد الله) عن رحلة ل(أحمد المقري) قد ساق أخبارها "في(أزهار الرياض)

كتاب (العدل والإحسان)و(الدليل لأهل العقول)و(مرج البحرين)و (القصيد الحجازية)، تظم رحلته إلى الحجاز." ينظر معجم أعلام الجزائر(من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، ط2 مزيدة ومنقحة، 1400هـ، 1980م، ص 167

[1] عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث – سياق النّص وخطاب الأنساق ، ص 15

[2] المرجع نفسه، ص17

[3] المرجع نفسه، ص17

[4] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري ، ص58، 59

[5] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 1500، 1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص 382

وهي رحلة لجده (محمد مقري التلمساني) أستاذ (ابن خلدون) ورحلة تنسب إلى (القسنطيني) المعروف بابن (القنفد) تعتبر في حكم الضائعة ولعلها موجودة في خزائن تونس.[1]

والخلاصة من كل ما سبق، هي أنّ الرحلة في الأدب الجزائري لا تبتعد زمنيا عن نظيرتها في الأدب العربي من حيث التدوين؛ فالعربية قي القرن الخامس للهجرة أما الجزائرية في القرن السادس للهجرة، وأخص هنا الرحلة كفن.

7- دواعي تدوين الرحلة:

لابد من حوافز ودوافع تحرك الإنسان لممارسة فعل التنقل، أو الرحلة إلى مكان ما في زمن ما، كما لتدوين هذه الرحلة حوافز ودوافع خلّته يسرد في أسلوب قصصي شيق ما عاشه وسمعه أو رآه وعاينه... فاستغربه أو أعجبه...، أو كل ما علق في لاوعيه، وكذا في شعوره أن يفرغ جعبته التي ملأها من رحلته تلك، على أوراق ليعيشها من جديد كلما أخذه الحنين بقراءتها أو ليقصها على معارفه أو ... فهاهي (سميرة أنساعد) تجتهد وتخرج لنا مجموعة من الدواعي، لعلها أكثر قوة وتأثيرا في نفس الرّحالة، حيث دفعته لتدوين رحلته وحده إن كان يجيد الكتابة والتأليف، أو بمساعدة كاتب كما فعل (ابن بطوطة)في تدوين رحلته منها :"

1 – تلبية طلب الآخرين من حكام وأصدقاء أو أقرباء بتدوين الرحلة، وإمتاعهم بالإطلاع على ما أثار إعجاب الرحالة، ودهشته، فرحه وحزنه، وما استقطب اهتمامه للمعاينة والتحقيق، كل ذلك يتحقق بالتزام الكاتب المنهج الدقيق في العرض، والنسيج الرائق المبدع في السرد.

2 – إفادة القراء بتقديم معلومات عن المعارف والعلوم والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتها، وكذلك تعيين مناسك الحج والعمرة، وترتبط هذه الدوافع أكثر بالرحلات العلمية والحجازية.

3 – التعريف بالبلدان ووصف الطرق والمسالك، ومواطن المياه والأسواق...وتبيين مواقع الخطر والمشقة، حتى لا يقع فيها الآخرون من منجزي الرحلات.

4 – ذكر أخبار الأمم والأقوام، والجماعات البشرية، ماضيا وحاضرا، وعرض محاسنها ومساوئها، عاداتها وقيمها طقوسها الدينية وطرائق عيشها.

[1] ينظر المرجع السابق، 382

5 – التأريخ للأحداث المتنوعة، وتقديم معلومات موجزة أو مفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المختارة، أو المقصودة من الزيارة..

6 – دعوة الرحالة مواطنيه إلى التغير من أحوالهم، وتوعيتهم ويقترن هذا الدافع مع الرحلات الحديثة، والتي عايشت أحداث الاحتلال والقهر، والجمود الفكري لدى العامة.

7 – رغبة المشاركة في أدب الرحلات عند الرحالة، وتدوين أخبار رحلته، على منوال ما دوّنه السابقون من الرّحالة والأعلام البارزين في هذا الفن أمثال: المسعودي، والمقدسي، وابن جبير، وابن بطوطة، وغيرهم .

8 – رغبة الرحال في نيل الثواب من الله تعالى، بتحقيق الدوافع السابقة، وحصوله على البركة والخير، بذكر الأماكن المقدسة، من الحجاز الشريف، وأهله الأبرار وكل ما يتعلق بالدين الإسلامي في حال تدوين رحلة حجازية."[1]

المبحث الثاني: المنجز الرحلي الجزائري :

1 – رحلات قبل العهد العثماني:

عرف الإنسان الرحلة منذ قرون ومارسها؛ لأنها وسيلته لقضاء حاجاته ومآربه، كما تعددت الدواعي التي جعلته يمارس هذه الحركة، وهكذا حال الإنسان الجزائري فقد عرف الرحلة منذ قرون، وما يهم في هذا المقام الرحلة التي دونها صاحبها أو غيره ناب عنه قد نقلت إلينا في هذه الحقبة الزمنية التي تسبق العهد العثماني، وتكون كدليل قاطع يثبت لنا بأنّ الرحلة عرفها الإنسان الجزائري منذ فترة طويلة تعود إلى ما قبل العهد العثماني، وأنّ الكثير منها ضاعت لعدم قيام أصحابها بتدوينها، لأسباب قد تعود لعدم معرفتهم بالكتابة، أو لعدم اهتمامهم بالتدوين لمثل هذه الأمور...ويمكن التمثيل لهذه الفترة السحيقة من الزمن برحلتي كل من المقري الجد وأبو منصور الثعالبي.

1. 1– رحلة المقري الجد 759هـ/1358م:

صرح صاحب كتاب(رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة) بأنّ" من الشخصيات المرموقة التي قامت بمناسك الحج، وكانت لها رحلة إلى الحجاز، قاضي الجماعة بفاس وكبير علماء المغرب، وهو من الذين

[1] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري – دراسة في النشأة والتطور والبنية –، ص35-36

تهافتت المصادر المغربية على تتبع خطواته سواء عندما عاش بالمغرب أو كان بالمشرق "[1] يمكن تصنيف رحلة(المقري الجد)* من الرحلات الحجازية، التي كانت وجهتها زيارة بيت الله الحرام، وتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام، وعلمية لأنّ غايتها الاستزادة في التحصيل العلمي، بالأخذ عن الّذين لقاهم من المشايخ أثناء رحلته، ويؤكد هذا الكلام ما جاء في معجم أعلام الجزائر: أنّه" رحل إلى المشرق، وحج، فأخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس، وعاد إلى بلده، وعبر إلى الأندلس وانتهت به الرحلة إلى غرناطة."[2]

من أخبار المقري الجد رحمه الله تعالى انّه قال: " شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وكانت جمعة، وقام الخطيب في سابع ذي الحجة في الناس بالمسجد الحرام وقال: إنّ جمعة وقفتكم هذه خاتمة مائة جمعة، وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة."[3] وهذا شرف عظيم لمن حالفه الحظ وشهد الوقفة في يوم الجمعة.

1. 2- رحلة عبد الرحمن الثعالبي الجزائري:

قام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي[4] برحلة و"هذه الرحلة تقع ضمن مخطوط للشيخ عبد الرحمن الثعالبي لم يعلم عنوانه، فالأوراق الأولى غير موجودة، وهو مخطوط تحتفظ به المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم(851)، عدد أوراقه(206)ورقة...والرحلة تبتدئ من الورقة(39)وتنتهي بالورقة(46) الخط

[1] نقلا عن: عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، دط، 1426هـ/2005م، ص129

* محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن، القرشي المقري التلمساني، أبو عبد الله، باحث أديب، قاض، من أكابر علماء المذهب المالكي في وقته، وشيخ لسان الدين ابن الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون ولد ونشأ بتلمسان، وتعلم بها وبتونس والمغرب...ولما ولي أبو عنان المريني سنة 749هـ...ولاّه قضاء الجماعة بفاس...وبنى له المدرسة (المتوكلية) الشهيرة بالطالعة الكبرى.ثم اعتزل القضاء، ورحل إلى الأندلس في مهمة كلّف بها سنة 756هـ، فعاد إلى فاس سنة 759هـ، فتوفي في السنة نفسها 759هـ الموافقة ل1359م، من آثاره كتاب القواعد، والطرف والتحف، وعمل من طب لمن حب، والمحاضرات، ورحلة المتبتل...الخ، ينظر عادل نويهض معجم أعلام الجزائر، ص312، 313

[2] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص312

[3] أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مج5ن تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان ، دط، 1388هـ/1968م، ص280

[4] عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد: صوفي، من كبار المفسرين وأعيان الجزائر وعلمائها ولد ونشأ بناحية واد يسّر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر سنة 786هـ الموافق ل: 1384م.وتعلم في بجاية وتونس ومصر، ودخل تركيا، ثم حج، وعاد إلى تونس سنة 819هـ، ومنها إلى الجزائر، وولي القضاء من غير رضى منه، وتوفي في 23 رمضان المبارك سنة:875هـ الموافق ل: 1470م ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر.
من آثاره خلف الثعالبي أكثر من تسعين كتاب منها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، روضة الأنوار ونزهة الأخيار، ورياض الصالحين، إرشاد السالك...ألخ ينظر عادل نويهض معجم أعلام الجزائر، ص90

مغربي واضح."[1] حققها(محمد شايب شريف) وذيلها ضمن كتاب(غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد) وهو كتاب لصاحب الرحلة وهي رحلة علمية كما ورد ذلك في نص الرحلة ذاتها يقول صاحب الرحلة:" رحلت في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسّر...وهو واد مشهور هناك في أواخر القرن الثامن، ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثماني مائة؛ فلقيت بها الأئمة المقتدي بهم في علمهم ودينهم..."[2] فكانت بجاية بداية رحلته العلمية، وما لبث أن شدّ الرّحال إلى تونس الحبيبة للأخذ من علمائها وشيوخها ما تيسر له من العلوم يقول :" ثم رحلت إلى تونس فدخلتها في أواخر عام تسعة وثماني مائة أو أوائل عام عشرة وثماني مائة فوجدت أصحاب الشيخ ابن عرفة متوافرين، فأخذت عنهم ومجالسهم..."[3]وبعد أن أخذ عن علمائها من العلوم ما أخذ " توجها إلى القاهرة للقاء علمائها الأجلاء والأخذ عنهم من علوم الدين ويحكي: أنه سمع (البخاري) عن مشايخها كما قرأ عليهم اختصارات لإحياء علوم الدين.ليواصل رحلته، وهذه المرة دخل بلاد الترك حيث استقبل استقبالا كريما من أهلها ومن هناك توجه إلى الحجاز فحج وأخذ عن بعض علمائها.وفي سنة 819هـ رجع إلى تونس فوافى بها العلامة ابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة 842هـ، فلازمه وأخذ عنه فنونا من العلم.[4]

2 – رحلات في العهد العثماني:

قبل الحديث عن أهم ما أنجز من المدونات الخاصة بأدب الرحلة في هذه الفترة من الرحلات الجزائرية في كنف الحكم العثماني، نقوم بالتعرف في لمحة موجزة عن الأوضاع الثقافية والفكرية والأدبية للجزائريين في ظل الراية العثمانية، وما هو الدور الذي لعبته السياسة المفروضة من قبل هذا الحاكم في دفع أو تعطيل تقدم الحياة في جميع مجالاتها، ولاسيما الثقافية والفكرية والأدبية، وهي النقطة التي تهمنا هنا.

2. 1– الحياة الثقافية والفكرية والأدبية:

مادامت مهمة الاحتلال، الاستيلاء على بلدان أخرى، وإحكام السيطرة عليها، وفرض سياسته عليها بالقوة، وهو ما لا يختلف عليه اثنان، وأنّ التركيز يكون على المجال العسكري والحربي، من تجنيد وتوفير الأسلحة

[1] عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي(ت875هـ): غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تح محمد شايب شريف، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، ص 103

[2] المصدر السابق، ص12

[3] عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المالكي(ت875هـ): غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها رحلة عبد الرحمن الثعالبي ،ص109

[4] ينظر المصدر السابق، ص10

بنوعيها الثقيلة والخفيفة، وهو ما سيستنزف طاقات البلد المادية والفكرية، وما يصاحبه من إهمال للجوانب الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والعلمية، والثقافية...وغيرها؛ فقد تكلم (أبو القاسم سعد الله)في موسوعته الثقافية عن هذا الركود الذي مسا الجانب الثقافي يقول:"عرف العهد العثماني في الجزائر بالركود الثقافي شأنه في بقية البلاد العربية فلم تكن هناك حركات تجديد فكرية ولا انتفاضات علمية ذاتية، أو متأثرة بالبلاد الأوربية...فكان إنتاج اللغة العربية يكاد ينحصر في الموضوعات الدينية والتعليمية وقليل من الشعر."[1] يبدو أن الجزائر عاشت كل أنواع الانكسار والتخلف على جميع الأصعدة المادية والمعنوية بسبب الحروب، والدسائس التي كانت تحاك ضدها، فهي مرحلة عسيرة في حياة الشعب الجزائري بكل فئاته، " فقد انتشرت العلل الكثيرة، والأمراض الجمة ولم تتوقف عنها الحروب، ولم تهدأ عنها الدسائس، فأطبق عليها الجهل إذ لم تشيد بها مراكز علمية، ولا معاهد تكوينية، فانكسر الأدب، وأصبح الشعر ضعيفا تعليميا في غالبه، والنثر ثقيلا متكلفا بسجعه."[2]من القول يتضح أنّ الباحث (بخيتي عيسى) في أطروحته، يرجع سبب الانحطاط الذي اعترى الحياة الأدبية والفكرية إلى الحروب والمؤامرات التي أرادت استنزاف خيرات الجزائر، فكانت الأمراض وانتشر الجوع والفقر، وبالتالي الجهل الذي أطبق على العقول.

لكن (بخيتي عيسى) في أطروحته : تفطن لنقطة مهمة في هذه الفترة من العهد العثماني، ألا وهي ازدهار فن الرحلة دون سائر الفنون الأخرى، فن نجا من فتنة أودت بالفنون الأخرى إلى الركود، حيث تشكل هذه النقطة مفارقة عجيبة في حياة الأدب، حيث يقول: " وإذا كان هذا حال الأدب في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الثقافي، فإنه تحقق في الآن نفسه تدوين الكثير من الرحلات...وبذلك يكون الحديث الذي عاقدناه حول ضعف الحالة الثقافية والعلمية في حياة الحكم العثماني للجزائر، لا نراه يتوافق مع ما كان للجزائر من نشاط رحلي وإسهامات في أدب الرحلة الذي يعد إسهاما بالدرجة الأولى."[3] حتما من يقرأ عن هذه الحيثية حول الضعف والركود الذي انتاب الحياة الأدبية والفكرية وحتى العلمية، في هذه الفترة المظلمة من حياة الجزائر تحت راية النفوذ العثماني، يدرك التناقض والتضارب بين القولين؛ لكن (عيسى بخيتي) اجتهد وقدم العلل الكامنة وراء ازدهار هذا الفن دون بقية الفنون الأخرى النثرية والشعرية التي تأثرت بالوضع السائد آنذاك، حيث أرجع سر تطور أدب الرحلة في ظلمة هذه الأوضاع إلى عدة عوامل منها:[4]

[1] أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث –بداية الاحتلال –الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط3، دت ، ص159

[2] بخيتي عيسى: أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النّص وخطاب الأنساق، ص29

[3] المرجع نفسه:ص29، 30

[4] المرجع نفسه، ص30، 31

1 – لقد كانت الرحلة عن تقليد سار عليه مثقفوا المغرب العربي، حيث توارثته الأجيال، جيل عن جيل، فأصبح يمثل حلقة من حلقات الثقافة في ذلك العصر، ولعل ما يبرر ذلك هو اعتماد كل رحّالة في تدوين رحلته على رحلات سابقيه من الرحالين وتقليدهم فيما دونوا.

2 – الرحلة لا تعبر عن قوة الثقافة أو ضعفها بالكم، وإنما انطلاقا من مضمونها الذي تقاس به مستويات الكتابة التي تعبر به عن مستواه الفكري والأدبي، أو من خلال الموازنة بين المرجعيات المحمولة وثقافة الآخر.

3 – إن نسبة الرحالين الجزائريين لوطنهم الأصلي لا يدل على أنّ هؤلاء الرّحالين عاشوا طوال حياتهم عاكفين فيها، وإنما قضى هؤلاء غالب عمرهم راحلين عن وطنهم الأصلي وتفرقوا في البلدان المجاورة أو البعيدة، ومن ثم حصل لهم تنوع ثقافي وتحصيل علمي كما أنّ أغلبهم أخذ تكوينه من بلدان مجاورة، ومنهم من أتم علمه بتلك الديار، ووسع بها معارفه ومداركه، أما الذين أطالوا المكوث في الجزائر فأكثرهم كان يعيش الحرمان والفاقة من عدم اكتراث السلطات به: مثل ما حصل مع أبي راس الناصري المعسكري.

4 – تعد الرحلة وعاء لعصرها، فهي تعبر عن أدب ذلك العصر وخصوصياته، لذلك نجد الرحلة في المرحلة العثمانية انتابها الضعف من الجانب الأدبي، فكثرة نصوصها لا يشي بقوتها الأدبية ، وإنما فائدتها الجمة كانت من حيث حضورها التاريخي والحضاري، فهي تعد وثيقة ومصدرا تاريخيا بالدرجة الأولى ثم من درجة أقل مصدرا من مصادر الأدب.

5 – كما أنّ معظم الرحالين متصوفة من أهل الزوايا ليس لهم احتكاك ولا مصلحة بالسلطة: كالورثيلاني، وابن حمادوش...وغيرهم وهم لا يمثلون الاتجاه العثماني ولا توجيهاته.

ومثل هذه الفكرة أو الرأي أدركها قبل(الدكتور بخيتي) المؤرخ الكبير(أبو القاسم سعد الله) وهو يتكلم عن الحياة الفكرية والأدبية في العهد العثماني: حيث قال " فإذا رجعنا إلى الحياة الفكرية والأدبية؛ فإننا نجد بعض المحاولات الطيبة ولكنها لا تدل على نهضة ثقافية فقد شهد القرن الثامن عشر عملين من كتابة الرحلات أحدهما لمفتي الجزائر المالكي(أحمد بن عمار) الذي سجل ملاحظاته أثناء رحلته إلى مكة، وثانيهما(حسين الورثيلاني) الذي كتب أيضا رحلته إلى المشرق."[1]لكنه يخص عملين أو رحلتين دون سائر الأعمال الأخرى هما: (رحلة ابن عمار) (ورحلة الورثيلاني)، وكلا الرحلتين وجهتهما زيارة البقاع المقدسة، وربما كان هذا السبب هو الذي مكّن

[1] أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث –بداية الاحتلال–، ص166

لهذا الفن من الازدهار دون بقية الفنون الأخرى؛ لأنّ العثمانيين "كانوا أول أمة تأخذ بمبدأ الحرية الدينية باعتباره الدعامة الأساسية لقيام الدولة مما جعل المسلم، والمسيحي يعيشان معا في وئام في ظل حكمهم."[1] ويؤكد هذا الكلام (حنيفي هلايليي)حين تحدث عن دواعي الرحلات التي قام بها الجزائريون، والتي حصرها في الوجهة الحجازية لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج بقوله:" ترك العهد العثماني في الجزائر رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد أدائهم لفريضة الحج، والمعروف أنّ الجزائريين الّذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال الفترة العثمانية لم يذهبوا إليها كجغرافيين، أو مؤرخين أو سواحا، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة، ويزورون الحرمين الشريفين، وكانت صورة الجزيرة العربية في نظر الجزائريين خلال هذه المرحلة مرتبطة بالدين وشعائره، وبسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومغازيه إنها صورة روحانية وجدانية.[2]

أما إذا جئنا لتحديد الفترة التي شهد فيها فن الرحلة انبعاثا وازدهارا، نستأنس برأي الدكتورة (سميرة أنساعد) – بعد رصدها لفترة الضعف الثقافي في الحركة الثقافية والفكرية في "القرن العاشر الهجري(السادس عشر الميلادي)[3] والتي تزامنت مع الدخول العثماني للجزائر*–؛ هذا نصه:" تشهد القرون الثلاثة الموالية انبعاثا، وإحياء لفن الرحلة(ق11، 12، 13هـ) و(17، 18، 19) الميلادي على التوالي، على يد عدد من الأعلام منهم: أحمد المقري التلمساني، وأحمد البوني في القرن الحادي عشر الهجري، وابن حمادوش الجزائري، وأحمد ابن عمار، والحسين الورثيلاني وهؤلاء من رحالي القرن الثاني عشر، وأبو راس الناصر، والأمير عبد القادر، وأبو حامد المشرفي في القرن الثالث عشر، ويعد الرحالان الأخيران ممن شهد الحكمين: العثماني وحكم الاحتلال الفرنسي لبلادنا." [4]

2. 2– أشهر الرحلات في العهد العثماني:

يقول أبو القاسم سعد الله:" ترك العهد العثماني في الجزائر عدة رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد أدائهم لفريضة الحج، ولكن مصير هذه الرحلات يختلف، فمنها ما فقد تماما ولا نعرفه إلا بالاسم ضمن مؤلفات

[1] عبد الرحيم مصطفى: أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، مصر، ط3، دت، ص42

[2] حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008م ص214

*: شهدت الحكومة التركية بالجزائر أربعة أشكال من الأنظمة السياسية

مرحلة البايلربايات (1518–1588م)وهو عصر القوة العثمانية، ومرحلة الباشوات (1587–1659م) أصبحت الجزائر ولاية عادية من ولايات الحكم العثماني، ومرحلة الأغوات(1659، 1671م) أصبح الحكم عسكري، ومرحلة الدايات (1671 ، 1830م) تسلم الدايات السلطة.ينظر حنيفي هلايلي:أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، ط1 ، 1429هـ/2008م، ص130– 136

[3] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص61

[4] المرجع نفسه، ص61

أصحابه، ومنها ما بقي سليما تعود إليه كلما دعت الحاجة إليه."[1] يتضح من كلام الكاتب أنّ الفترة الّتي عرفت بالعهد العثماني عرفت بالثراء من حيث الرحلات المدونة ، لكن للأسف العديد منها فقدت بسبب ظروف كثرة لعل منها الحروب ، والحياة الاجتماعية الصعبة ، من هذه الرحلات التي كان لها نصيب من النّجاة رحلات كل من" البوني وابن حمادوش والمشرفي، وأيضا ابن عمار لعدم توفر كامل رحلته فالمطبوع منها نبذة من المقدمة."[2] كما أن هناك من العديد من الرحلات الجزائرية التي لا تزال مخطوطة، وهي تنتظر من يخرجها إلى النور منها رحلة " الحقيقة والمجاز في الرحلة للحجاز تأليف ابن عبد الله الحاج العربي...تحدث عنها الهاشمي ابن بكار في كتابه مجموع النسب."[3] والحديث عن الرحلة في هذه الحقبة الزمنية، التي كانت الكفة راجحة لصالح الأتراك، يقودنا إلى الحديث عن أنماط الرحلة في هذا العصر والذي تراوح بين نمطين هما:

2. 2. 1- الرحلات المنظومة:

جاء في تعريفها أنها" تلك التي اكتفى أصحابها بنظم رحلتهم في قصيدة مطولة، أو نحو ذلك من أشكال الشعر."[4] أما عن دواعي الرحلة؛ فهي " في جملتها كانت رحلات حجازية، كرحلات كل من(المنداسي المجاجي، ابن المسايب، المصعبي، محمد بن يوسف أطفيش)."[5] ويمكن أن نمثل لهذا النوع من الرحلات المنظومة برحلات كل من:

2. 2. 1. 1- رحلة سيدي سعيد المنداسي 1150هـ/1737م:

هي رحلة كتبها (سعيد المنداسي)* في قالب شعري "لا يعتمد على الفصيح من القول، ولكن يعتمد على ما يعرف تحت اسم(الملحون)، الذي خصصت له التآليف من كل حجم، وبكل لغة."[6] وقد كان من قصائده " القصيدة التي تحمل عنوان(العقيقة) التي نظمها بعد حجه وأرخها عام 1088هـ... وهذه القصيدة هي التي

---

[1]: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، دط، 2007م، ص177

[2] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري –دراسة في النشأة والتطور والبنية –، ص62

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج7، ص 468

[4] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص177

[5] بخيتي عيسى: أدب الرحلة الجزائري الحديث –سياق النص وخطاب الأنساق–، ص31

*: سعيد بن عبد الله، التلمساني المنشأ المنداسي الأصل أبو عثمان، شاعر بالملحون (ت 1088هـ/1677م) من آثاره (العقيقة) قصيدة لا مية في مدح النبي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم، نشرها الجنرال Faure bipuet متنا وترجمة فرنسية بمقدمة وافية (الجزائر ستة 1319هـ) ينظر: عادل نويهض معجم أعلام الجزائر، ص68 وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين – تراجم مصنفي الكتب العربية ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1414هـ/1993م، ص765

[6] عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1، ص285

شرحها الأستاذ(بوراس المعسكري) وقد نشرها الجنرال الفرنسي(فوربيكيForebiguet) مع ترجمة فرنسية بالجزائر عام 1901م."[1] والكتاب الذي انضوت تحته قصيدة العقيقة بالشرح، وسم ب(الدرة الأنيقة في شرح العقيقة)، من تأليف (أبوراس المعسكري)، وتولى تحقيقه (أحمد أمين دلاي)، وهي قصيدة طويلة، يمكن أن نورد بعض الأبيات للتعريف بها يقول المنداسي[2]:

كَيْفَ يَنْسَى قَلْبِي عَرَبَ الْعَقِيْق وَالْبَان وَالْعَقِيْق عُيُوْبِي بِقَلَاْئده انْهَلُّو

لِي عَقِيْلَة مِنْهُمْ غَرّا شَقِيْقَةَ البَاْنْهَلِ لِقَلْبِي مِنْهَا بَعْضَ الْوِصَالِ لَهُ

بَانَ صَبْرِي وَالسِّرُ الكَاتِمُ الصَّدْرِ بَانَ كَيْفَ يَمْهَلُ دَمْعِي وَالوَجَلُ لَا مَهْلَ لَهُ

2. 2. 1. 2 – رحلة على جناحي طائر الورشلان:

ومن الرحلات المنظومة، قصيدة لمحمد بن مسايب التلمساني [3] في القرن الثاني عشر من الشعر الملحون "قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبرا مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها، مارا بالطريق التقليدي الذي كان يسلكه حجاج الغرب(مليانة، فالبليدة، فمدينة الجزائر فمجانة، فقصر الطير، فقسنطينة، فالكاف، ثم تونس)...مر فيها بعد المدن المذكورة، بطرابلس، ثم مصر."[4]هي رحلة خيالية قام بها صاحبها على جناحي طائره(الورشلان) أي(القمري) في قصيدة طافحة بالأشواق، جنّح فيها الخيال، بلغت مئة وعشرين بيتا(120بيتا)[5] مطلع القصيدة هو:

[1] عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج1 ، ص288، 289

[2] محمد أبو راس المعسكري: الدرة الأنيقة في شرح العقيقة، تح: أحمد أمين دلاي، المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، دط، 2007، ص 6

[3] ترجمة ابن مسايب: عن مولده؛ فإن المراجع المكتوبة كلها والشفاهية لم تحدده بدقة، حيث ذكرانه ولد أوائل القر(12هـ) دون تحديد اليوم والشهر أو السنة، ولعل مولده كان في نهاية القرن الحادي عشر الهجري، هذا على الأغلب في اعتقادنا بدليل نظمه لقصيدة (عمدالي ما وجدت صبرا) أرخ لها عام تسعة عشر بعد المئة والألف (1119)هـ: ينظر: ابن مسايب:ديوان، جمع وتحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان (الجزائر)، دط، 2001م، ص26

كما ترجم له مؤلف كتاب (من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي –تراجم مؤرخين ورحّالة وجغرافيين) ناصر الدين سعيدوني) ب: أبو عبد الله محمد بن مسايب التلمساني (ت 1190هـ –1676م) من مواليد مدينة تلمسان، وهو من أسرة أندلسية، اشتهر بقصيدته التي خاطب فيها طائره الورشان والتي وصف فيها طريق الحج من (تلمسان) إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة (طيبة).ينظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحّالة وجغرافيين)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م، ص405– 408

[4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص389

[5] عمر بن قينة: الأعمال المتكاملة في أدب الرحلة، كولوريوم وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2013م، مج 3، ج1، ص49

يَا الوَرْشِلَاْنْ اقْصِدْ طَيْبَةَ زُرْ فَاقِدْ مَرْسَمِ شَيبَا

لَا تْخَمَمْ فِي أَمْرِ الغَيْبِ ولَا تحَدّثْ نَفسَكَ بِهَا [1]

ثم يشرع الشاعر في رسم خط الرحلة بحديثه عن نقطة الانطلاق، وهي تلمسان مقر إقامة الشاعر يقول:

نُرْسْلَكْ مِنْ بَابْ تِلِمْسَانْ سِرْ فِيْ حِفْظِ اللهِ وَالْأَمَانْ

بَعْدَمَا تَزُوْرْ بِلَاْ تَمْنَانْ كُلْ مَنْ هَوَ وَالِي فِيْهَا [2]

2. 2 . 1. 3– القصيدة الهمزية أو التازية لصاحبها محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني.[3]": فرغ منها صاحبها سنة(1152هـ)، وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مراحل رحلته من(تازة)، حيث كان يقيم، إلى(الحرمين الشريفين)، ثم منهما إلى(الشام)."[4] وهي قصيدة من الشعر الفصيح وهذا النوع" من الرحلات يعبر بدوره عن مدى تعلق المغاربة بمكة المكرمة...الرحلة ليست محررة بالمنثور من القول، ولكنها مكتوبة بالنظم...ولا يخفى ما في الأداء الشعري من صعوبة على الناظم، وهكذا نجد هذه الهمزية الرائعة التي بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين وثلاثمائة بيت."[5]لما كانت القصيدة "روعة في استيعابها لأغراض الحج "[6] على حد تعبير عبد الهادي التازي لا بأس أن نقطف منها بعض الأبيات لكي ندلل على مدى روعة هذه الهمزية في وصف كل ما يتعلق بطريق الحج والأمور المتعلق به يقول الناظم:

أَزمَعَ السَّيْرُ إِنْ دَهَتْ أَدْوَاءُ لِشَفِيْعِ الأَنَامِ فَهَوَ الدَّوَاءُ

وادَّخِرْ عَولَةَ العِيَّالِ فَلَا تَدْرِيْ بِأَيْ الأُمُوْرِ يَأْتِيْ القَضَاءُ

ذَاكَ اِنْ تَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيْلًا فَلَدَ الُمستَّطِيْعُ يَقوَى الرَّجَاءُ

[1] ابن مسايب: ديوان، جمع وتحقيق: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ص166

[2] المصدر السّابق، ص166

[3] اسمه: ابو عبد الله محمد بن الحاج بن منصور العامري، ثم التلمساني، ثم التازي، المتوفى بالمشرق في حدود السبعين ومائة وألف (1170هـ) ينظر: محمد البنوني، من حديث الركب المغربي، تطوان، مطبعة المخزن، مكناس، المغرب الأقصى، دط، 1953م، ص88

[4]ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص388

[5] عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ص 358

[6] المرجع نفسه، ص358

وَاقْضِ دَيْنَكَ اِنْ يَكُنْ بِكَ دَيْنُ فَالقَضَاءُ مِنَ الكَرِيْمِ وَفُاءُ"[1]

هكذا يبدأ (محمد بن منصور العامرية التلمساني) قصيدته الهمزية (التازية)، وهي سرد لرحلته الحجازية الدينية، لزيارت قبر خير الأنام ، موجها مجموعة من الإيعازات والإرشادات للمقبل على الرحلة لأنّ المرتحل لا يدري ما يخبئ له الطريق من مفاجآت لعل منها كما صرح صاحبها ادخار عولة العيال ، وقضاء ديونه المترتبة عليه.

2. 2. 1. 4- قصيدة عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي:

كما نظم(عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي)قصيدة في هذا النوع من الرحلات، التي كتبت بالشعر الفصيح؛ يحكي فيها مراحل "رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة في قصيدة فصيحة سنة(1063م) "[2]وهي تبدأ على النحو التالي:

نَشُقُ الفَيَافِي فَدفَدًا بَعدَ فَدفَدًا جِبَالًا وَأَوعَارًا وَأَرضًا وَطيَةٌ[3]

2. 2. 2- الرحلات النثرية:

لقد أسهم المغاربة مساهمة كبيرة في كتابة الرحلات ولاسيما النثرية منها، وإن كان حظ الجزائريين في الكتابة في هذا المجال من الكتابة قليل؛ إذا ما قارناه بالبلدان المغربية الأخرى كتونس وخاصة المغرب الأقصى.

وإذا جئت لتعريف هذا النمط من الكتابة النثرية، قلنا أنها عكس الرحلات المنظومة التي تخضع لقواعد النظم: كالوزن والقافية، أما عن أقسامها، فيمكن لنا أن نقسمها إلى قسمين هما الرحلات الحجازية، والرحلات العلمية، وإن كان من الصعوبة بمكان الفصل بين هذين القسمين؛ لكونهما يمثلان الدعامتين الرئيسيتين،اللّتين تقوم عليهما الرحلة في هذه الفترة من العهد التركي العثماني، إذا كل رحلة كانت وجهتها الحجاز، وزيارة البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحج ،أو العمرة ،أو زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم هي رحلة حجازية، وكل رحلة كان الدافع فيها هو الخروج لطلب العلم أيا كان نوعه ديني أو دنيوي فهي رحلات علمية.

[1] محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، تطوان مطبعة المخزن، مكناس، المغرب الأقصى، دط، 1953، ص89

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص388

[3] هذه الرحلة موجودة في المكتبة الوطنية –الجزائر تحت رقم 1564 ورقم 1565 وهي في حوالي أحد عشرة ورقة ولكن مبتورة الأول.ينظر المرجع نفسه، ص388

كما قلنا آنفا إننا من الصعب بمكان التفريق بين الرحلات الحجازية والعلمية في الرحلات القديمة والحديثة ؛ لأنه أيما رحلة كانت إلا وجمعت بين الدافعين المحركين لنشاط السفر، لكن هناك نقطة فارقة بين القسمين تمثل السبب الجوهري الذي أخرج هؤلاء الرحالة في هذا السفر مثلا:رحلةالورتيلاني يمكن أن نصنفها من الرحلات الحجازية(الدينية)؛ لأن نية صاحبها الأولى زيارة البقاع المقدسة، وأداء فريضة الحج، تخللت المدة التي قضاه في طريقه قبل أن يصل إلى الهدف وقفات علمية، مثل لقاءه للعلماء والأخذ عنهم ما أمكن من علم، وبهذا تكون رحلة حجازية.

و هكذا يمكن أن نميز بين الصنف الآخر من الرحلات – الرحلات العلمية- انطلاق من السبب الرئيسي دائما الذي جعل الرحال بمباشرة تلك الرحلة، وإن تضمّنت محطات دينية أثناء الرحلة قبل الوصول إلى المكان الهدف. إذا في تصنيفنا للرحلات طيلت مشوارنا هذا، أركز فيه على السبب المباشر الذي دفع بالرحال للسفر.

2. 2. 2. 1- الرحلات الحجازية(الدينية):

نقول أنّ هذه الرحلة رحلة حجازية(دينية)، عندما يكون الدافع إليها " العامل الديني الذي يهدف صاحبه إلى شد الرحال قاصدا البقاع المقدسة في الحجاز بغرض أداء فريضة الحج...والقيام بمناسك العمرة بالبيت الحرام ، وزيارة الروضة النبوية الشريفة..."[1] وأول رحلة حجازية ذكرتها المصادر هي " رحلة البوني المسماة(الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) لكنها ضائعة."[2] ومادامت رحلة(البوني) ضائعة على حد تعبير المؤرخ الكبير(أبو القاسم سعد الله) نتركها جانبا، ونمثل لهذا الصنف من الرحلات برحلة كل من(المقري الحفيد) و(الحسين الورثيلاني) لوجود نص الرحلة بحوزتنا.

2. 2. 2. 1. 1- رحلة المقري(ت1041هـ / 1632 م)[3]:

عرف أحمد المقري، بكثرة الترحال في البلدان المغربية والمشرقية، [1] وهو بهذه الصفة يتصدر قائمة الرحالين

[1] باعزيز بن عمر، رحلتي إلى البقاع المقدسة، ثالة، الجزائر، ط2، 2007، ص13

[2] ينظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص390

[3] هو الشيخ أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد، أبو العباس المقرّي، التلمساني المولد، المالكي المذهب...كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ومعجزة في الأدب والمحاضرات، ولد بتلمسان ونشأ بها، وحفظ القرآن، وقرأ وحصّل بها على عمّه الشيخ الجليل العالم (أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّري...وكانت وفاته في جمادي الآخرة سنة (1041هـ) ودفن بمقبرة (المجاورين)...وقيل توفي في الشام مسموما سنة(1041هـ) من مؤلفاته الشائعة: (عرف الطيب، في أخبار ابن الخطيب) و(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب)و(روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين: مراكش وفاس)...الخ، ينظر: أبي القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الدبسي ابن سيدي إبراهيم الغول: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، تح: خير الدين شيترة، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2015م، ص544- 557

الجزائريين في العهد العثماني، وعنوان رحلته التي بين أيدينا هي: الموسومة ب(رحلة المقري إلى المغرب والمشرق) والتي قام بتحقيقها: محمد بن معمر أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة وهران.

ورحلة المقّري صاحب(نفح الطيب) رحلة حجازية، وإن كانت بعض الآراء تتفق على أنها سياسية وذلك لأن " سلطان فاس هو الذي أرغم المقري على مغادرة المدينة، وأنّه خرج منها متخفيا، وهو رأي مجانب للصواب بدليل ما ورد في الرحلة من أنّ المؤلف هو الذّي استأذن ملك المغرب صاحب فاس...في السّماح له بالرحيل، وقد أذن له في ذلك."[2]وهذا ما ذهب إليه، صاحب كتاب(رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة)عبد الهادي التازي؛ أنّ المقري صاحب(نفح الطيب) استأذن العاهل المغربي للقيام بمناسك الحج، وهي عادة كبار المغاربة إذا أرادوا التخلص من وظائفهم السياسية. [3] و رحلاته أخذت وجهتين هما على التوالي:

:أولا – نحو المغرب:

لما كبر المقري وصار شابا يافعا وعمره آنذاك لا يتجاوز الرابعة والعشرين سنة، ولأنه من المحبين والمولعين بالتحصيل العلمي في شتى العلوم؛ قرّر الرحيل إلى مدينة فاس لطلب العلم " التي حلّ بها في صفر سنة(1009هـ) ومنها إلى مراكش حيث اتصل (بأبي العباس أحمد المنصور الذهبي)، أشهر سلاطين السعديين...وكانت فترة حكمه من أزهى فترات التاريخ السعدي سياسيا واقتصاديا وثقافيا...ومكث المقرّي هناك متنقلا بين(فاس)(ومراكش) حتى ذي القعدة(1010هـ)...ولم يرجع إلى تلمسان إلا في نيته العودة إلى المغرب الأقصى ثانية، وبالفعل فقد عاد المقرّي إلى المغرب الأقصى سنة(1013هـ) بعد سنة من وفاة الخليفة (المنصور الذهبي)واستمرت إقامته هناك حتى سنة(1027هـ)".[4]

:ثانيا – نحو المشرق:

وبعدما مكث في(فاس) وهي مدينة من مدن المغرب الأقصى ماشاء له الله تعالى أن يمكث قرر أن يغادرها ميمما وجهه شطر البيت الحرام ، والبقاع المقدسة وكان ذلك أواخر رمضان من عام(1027هـ) فوصل(تطوان) في ذي القعدة من ذلك العام ومن هذه المدينة العريقة ركب السفينة التي عرجت به إلى تونس ، وسوسة حتى وصلت

[1] – ينظر سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري– دراسة في النشأة والتطور والبنية–، ص62

[2] أبي العباس أحمد المقري:رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنّشر والتوزيع بالجزائر، دط، 2004م، ص10

[3] ينظر عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات...مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ص188

[4] أبو العباس أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، ص 06

الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة فالحجاز بحرا، فوصل مكة المكرمة في ذي القعدة من العام التالي أي:(1028هـ) وبعد تأدية مناسك العمرة ظل فيها حتى موسم الحج وبعد تأديته هذا الركن العظيم توجه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم غادر إلى مصر عام(1029هـ)، وزار بيت المقدس وأخذ يتردد إلى مكة والمدينة، حتى كان في عام(1037هـ) قد زار مكة خمس مرات والمدينة سبع مرات، وفي أواخر رجب من العام المذكور زار بيت المقدس وألقى فيه عدة دروس، زار مقام الخليل إبراهيم عليه السّلام، كما زار دمشق ومنها قرّر العودة إلى مصر، وفيها أزمع الهجرة إلى الشام، لكن قدر الله كان أسبق حيث وافته منيته في جمادي الآخرة سنة 1041هـ.[1]

2. 2. 2. 1. 2- رحلة الورثيلاني ت:(1193هـ، 1779م)[2]:

تعتبر رحلة الورثيلاني من الرحلات الحجازية التي قام بها صاحبها بغية زيارة بيت الله الحرام، والأماكن المقدسة، وهي من الرحلات التي أنجزت في فترة الحكم العثماني، والتي وسمها صاحبها بـ:(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) ومن خلال عنوانها تتجلى لنا الفائدة العظمى التي تنضوي عليها الرحلة، فهي مصدر من مصادر التاريخ العربي بعامة والجزائر بخاصة، وأخبار متنوعة ومتعددة تشمل معظم ميادين الحياة: كالسياسة والاقتصاد والدين...وتورد المصادر أنّ (الحسين الورثيلاني) حج عدة مرات "الأولى صحبة أبيه وهو ابن الثامن عشرة(1153هـ، 1740م) والثانية عندما بلغ الواحد والأربعين(1166هـ، 1752) والثالثة استغرقت ثلاث سنوات(1179هـ- 1181هـ/1765م-1767م) أتمها في الرابعة والخمسين من عمره.[3]

وقد اشتهر الحسين الورثيلاني بفضل كتابه الموسوم بـ:(نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار) الذي وصف فيه أخبار رحلته إلى الحجاز، وأخباره والعلماء والصالحين الذين التقى بهم وأخذ عنه العلم، كما ذكر فيها مزاراته لقبور أولياء الصالحين، بداية من قبور الأولياء المتواجدين في تراب بلده، إلى قبور في بلدان أخرى كمصر وليبيا وحتى الحجاز. وهي رحلة أتمها في الرابعة والخمسين من عمره؛ أي عام(1182هـ).[4]

ورحلة الحسين الورثيلاني متواجدة بعدة نسخ مخطوطة قام بتصحيحها " محمد بن أبي شنب اعتمادا على

---

[1] ينظر أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج1، ص5 -11

[2] هو الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، رحالة مؤرخ، فقيه، متصوف، ولد ونشأ في قبيلة بني ورثيلان (قبيلة قرب بجاية) سنة (1125هـ 1713م)، وأخذ عن والده وغيره، ثم رحل إلى المشرق، فحج وأخذ عن علماء مصر والحجاز، من آثاره: كتاب (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) ويعرف بالرحلة الورثيانية، وهو عبارة عن وصف لرحلته إلى الديار المقدسة سنة(1179هـ) وما شاهده من الاماكن والآثار، ومن لقيهم من العلماء والأعيان وغيرهم، وكتاب (شرح القدسية للأخضري) في التصوف، وكتاب (حاشية على كتاب المرادين)، وقصيدة ميمية في مدح سيد الأنام صلى الله عليه وسلم...وافته المنية سنة (1193هـ، 1779م). ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر(من صدر الإسلام حت العصر الحالي)، ص340

[3] ينظر:ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للعرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحّالة وجغرافيين)، ص418 -419

[4] ينظر المرجع نفسه، ص419

أربعة نسخ مخطوطة، ونشرها بالجزائر(1908م) ثم أعيد نشرها مصورة ببيروت سنة(1974م) مما سهل الرجوع إليها والانتفاع بها."[1] وقد اعتمد (الحسين الورثيلاني) في تأليفه لرحلته بعد المشاهدة الشخصية، على عدة مصادر نذكر منها: رحلة العياشي ورحلة الدرعي...وغيرها من المصادر التاريخية ، والجغرافية التي أثرت رحلته ووسعت أفقها، ويؤكد هذا الكلام (حنيفي هلايلي) بأن الورثيلاني كان على " علم برحلات السابقين مطلعا عليها فكان أكبر اعتماده على الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصر الدرعي(ت1717هـ) وماء الموائد لأبي سالم العياشي(ت1681م).[2] كما اعتمد على العديد من كتب التاريخ، سنأتي على ذكر بعضها في المبحث التالي.

:أولا– وصف الرحلة الورثيلانية:

وقد جاء في وصف الرحلة على لسان صاحبها أنها "رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية، مع ما فيها من التصوف، مما فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة سيما وأنّ اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله تم عليه اعتمادنا(سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري) هذا وإني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ ك(نبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة) و(مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان) وكذا(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)... وغيرهما.[3]

2. 2. 2. 2 – الرحلات العلمية:

ونقصد بالرحلة العلمية تلك الرحلات التي خرج فيها أصحابها لأجل طلب العلم، والاستزادة فيه، ولقاء العلماء، والالتحاق بالمدارس والمعاهد أو الجامعات أو حضور ندوات أو ملتقيات...التي اشتهرت بتفوق طلبتها وخريجيها.وأقدم الرحلات العلمية هي " رحلة عاشور بن موسى القسنطيني المعروف ب(الفُكيرين)[4] بضم الفاء وفتح الكاف وهو لقب والده...فشد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان، وطالت غيبته عن بلاده نحو العشرين

[1] المرجع نفسه، ص421

[2] حنيفي هلايلي أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ص216

[3] الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج1، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، روبية، الجزائر، ط1، 1432هـ/2001م، 16- 17

[4] هو عاشور الفكيرين (القسنطيني) ابن أبو عمران موسى الفكيرين، قرأ على الفكون المرادي في النحو، والمكودي على الألفية، فبل أن ينتقل إلى تونس وكان ذلك حوالي سنة(1024م) ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/1986م، ص96

سنة...[1]

ويمكن أن نمثل لهذا النوع من الرحلات برحلتين: رحلة عبد الرزاق بن حمادوش المعروفة ب(لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والآل)، ورحلة أبي راس الناصر المعسكري والمعروفة(فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته).

2. 2. 2. 2. 1- رحلة ابن حمادوش(ت:بين 1197هـ و1200هـ)[2]:

رحلة ابن حمادوش الجزائري " هي رحلة قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى(تطوان) ومكناس وفاس، ثم عاد إلى الجزائر من(تطوان)...وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب.[3]تعددت غايات خروج ابن حمادوش في رحلاته منها غاية تجارية بحكم مهنته التي مارسها لمدة سنوات طوال، ودينية لخروجه للحج، وعلمية أيضا والدليل على ذلك "سعيه إلى ملاقات العلماء والأخذ عنهم في البلدان التي يحل بها مثل لقاءه في تونس سنة (1130هـ/1718م) ب(الشيخ محمد زيتونة ت 1725/1138م)ولقاءه في المغرب الأقصى ب(أحمد المبارك السجلماسي ت.1156هـ/1743م) والعالم الطبيب(عبد الوهاب بن أحمد أدراق ت.1159هـ/1746م)...إلا أنّ اهتمام ابن حمادوش العلمي لم يكن منحصرا في ملاقاة العلماء في البلدان التي زارها، بل كان له اهتماما أيضا بدراسة المحيط الطبيعي في تلك البلدان، وخاصة دراسة أعشابها ونباتاتها."[4]ومن العلماء الذين أعطوا اهتماما بأعماله(أبو القاسم سعد الله) المؤرخ الجزائري الكبير صاحب الموسوعة التاريخية(تاريخ الجزائر الثقافي) " الّذي عرّف بحياته وأعماله في عدة دراسات، كما نشر رحلته(لسان المقال)(الجزء الثاني) بعد أن حققها وعلق عليها اعتمادا على مخطوط المكتبة العامة بالرباط(رقم ك

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 384

[2] هو عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، ولد في مدينة الجزائر سنة (1107هـ) الموافق ل:(1695م) وجاء في بعض المصادر أن عمره تجاوز التسعين سنة، تاريخ وفاته مجهول، والغالب على الظن أنه: بين 1197هـ و1200هـ بالمشرق كان والده وعمه يمارس الدباغة، تزوج مرتين، كان ميالا بطبعه لقراءة الكتب العلمية، ولا سيما كتب الطب، كان معاصر لبعض علماء الجزائر: كالحسين الورثيلاني وابن عمار...كانت ثقافته مبنية على الرحلة والمشاهدة والتجربة، بدأ الرحلة صغير السن: 1130هـ رحل إلى تونس، غير أنه أكثر الرحلة إلى المغرب الأقصى، حيث سجل العديد من الملاحظات العلمية الهامة أثناء مروره من(تطوان) إلى (فاس) منها: عذوبة وملوحة المياه، وأنواع الأشجار..من بين العلوم التي اهتم بها: الطب والفلك.من مؤلفاته: الجوهر المكنون من بحر القانون، وكتاب بغية الأديب من علم التكعيب: وكتاب فتح المجيب في علم التكعيب، وتأليف في الطاعون الذي أصاب الجزائر في وقته لا نعرف عنوانه...كما كانت له كتب في الادب والرحلة والمنطق والنحو والصرف. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص425- 431

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، ص385

[4] إبراهيم بن مراد: المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، تونس، ج1، دط، دت، ص229

463) وصدرت(1982م)مما جعلها في متناول الباحثين."[1]

ويبدو أنّ المؤلف باشر بكتابة رحلته عام "(1156هـ)، (1743م) من دون تحديد المكان، لا في هذه البداية، ولا في تاريخ الفراغ من كتابتها(1160هـ)، (1747م) ويتضح شكل الرحلة في القسم الخاص بحديثه عن المغرب الأقصى فقط."[2]

من المميزات لهذه الرحلة عن غيرها من الرحلات الجزائرية التي كتبت خلال نفس الفترة" كونها خاصة بالمغرب دون المشرق، وهذا ما جعلها مصدرا مهما ومرجعا أساسيا للتعرف على الحياة الاجتماعية والثقافية للجزائر والمغرب في القرن الثاني عشر للهجرة(الثامن عشر الميلادي).[3]

2. 2. 2. 2. 2- رحلة أبي راس الناصر المعسكري ت:(1238هـ/1824م):[4]

تضاربت الآراء حول الخانة الّتي يمكن تصنيف رحلة (أبي راس الناصري)، الموسومة ب(فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته). طائفة من الباحثين تصنفها من الرحلات الحجازية، وطائفة أخرى تصنفها من الرحلات العلمية، ولكل حججه وبراهينه، وأن الرأي السديد هو القول بامتزاج الدافعين: لتصبح رحلة حجازية علمية، وبالتالي يمكن لنا أن نصنفها في الخانتين الحجازية والعلمية وهذه الأخيرة هي من تهمنا.غير أنّ المطلع على هذه الرحلة؛ يجدها "علمية أكثر منها دينية إذ اهتم الناصري بجانب العلم والعلماء، "[5]والأخذ عنهم ما تيسر من العلوم، وربما هذا ما جعل أبو (**القاسم سعد الله**)يدخله في خانة العلماء الجزائريين الذين أكثروا الترحال والكتابة لأجل التحصيل العلمي في شتى العلوم، من كتب أبي راس التي تدخل باب التاريخ على حد تعبير (سعد الله) رحلته المسماة(فتح الإله ومنّته) التي قسمها إلى خمسة أبواب.تحدث في الأول عن ابتداء أمره من طفولة وتعلم وحالة الأسرة وزواجه وحجّاته، وتحدث في الباب الثاني عن شيوخه والعلماء الذين ناظرهم، أو التقى بهم أو أجازوه ابتداء من والده مرورا بعلماء الجزائر والمغرب وتونس ومصر والحجاز والشام، وخص الباب الثالث عن رحلته إلى المشرق، ولعلى هذا الباب هو الذي أطلق عليه أحيانا اسم(رحلتي ونحلتي في تعداد رحلتي) وتناول في الباب الرابع

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحّالة وجغرافيين)، ص434-435

[2] نقلا عن: مقدم فاطمة، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، رسالة ماجيستير، جامعة وهران –السانية-2010م، 2011م، ص14

[3] المرجع السابق، ص434

[4] هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعروف ب(أبي راس) مؤرخ، حافظ، رحالة، مولده ووفاته في (معسكر) سنة 1150هـ 1737م) مولدا وسنة (1238هـ، 1824م) وفاة، من آثاره: كتاب (شرح المقامات الحريرية) و(ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس) وله(تفسير القرآن) و(شرح العقيقة) ورحلة ذكر فيها سياحته للمشرق والمغرب ومن لقي من الاعيان، و(فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته)...وغيرها.ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 306-307

[5] حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ص219

الأسئلة التي وردت إليه، أو ألقيت عليه أثناء تنقلاته كما ذكر الأجوبة عليها، أما الباب الخامس فقد ذكر فيه تآليفه مرتبة حسب موضوعاتها ومادتها.[1]ولعل الباب الثاني من هذه الرحلة هو الذي جعلها تدخل دائرة الرحلة العلمية.

3- رحلات جزائرية حديثة:

شهدت هذه الفترة من الزمن العديد من الرحلات، سلك أصحابها اتجاهات متباينة؛ منهم من كانت وجهتهم شطر البيت الحرام لأداء الفريضة، وزيارة قبر خير الأنام، ومنهم من امتزجت الغاية فيها بين أداء الفريضة وطلب العلم، ومن الرحلات من كانت وجهتها بلدان عربية أخرى:كتونس والمغرب ودمشق...ومنها من كانت وجهتها بلاد الأعاجم كفرنسة والصين وبلاد الترك...هذا عن الرحلات الخارجية.أما عن الرحلات الداخلية فهي كثيرة جدا، خاصة إبان القرن العشرين لتوفر وسيلة النقل المريحة والسريعة، وخير من يمثل هذا النوع من الرحلات شيخنا الفاضل(عبد الحميد ابن باديس)رئيس ومؤسس جمعية العلماء المسلمين، ورحلاته الداخلية تضمنها كتابه المعنون(ابن باديس حياته وآثاره) كل رحلاته الداخلية كانت تهدف لتوعية الشعب وتجلية ظلمات الجهل التي نشرها المستدمر بين الشعب، فهي رحلات إصلاحية دعوية، ويتضح ذلك من خلال عناوينها ، أما الأولى فحملت عنوان(التعارف والتذكير) والثانية(جولة صحفية) والثالثة(في بعض جهات الوطن)و الرابعة(ثلاثة أيام ببسكرة)والخامسة(رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية).

كما كانت له رحلات خارج الوطن لكن قليلة مقارنة بالداخلية، ربما يرجع السبب التضييق الّذي فرض عليه من طرف إدارة المستدمر، لأنها كانت تدرك الخطر الذي يمكن أن ينجم على مثل هؤلاء العلماء الكبار.

ومن المآخذ التي يمكن أن تأخذ على رحلات العصر الحديث : أنها لا ترقى إلى مستوى الرحلات العربية كرحلة (ابن بطوطة وابن جبير والمقدسي)...وهذا ما صرح به شيخ المؤرخين الجزائريين "أبو القاسم سعد الله" حين قال: "لدينا رحلات عديدة في اتجاهات مختلفة، ولكن ليس من بينها رحلة معتبرة على غرار الرحلات القديمة، باستثناء ربما رحلة(المشرفي)، ولكن الرحلات جميعا تقدم لنا معلومات ذات قيمة في بابها، ومنها ما كان صغير الحجم في نحو الكراس، وما كان متوسط الحجم."[2] رغم ما قدمه شيخ المؤرخين من نقد لاذع لفن الرحلة الجزائري،

[1] ينظر أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ص94-95

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص459

إلا أنه يستدرك في آخر المطاف القيمة الكبيرة التي تحملها هذه الرحلات، وإن تميزت بصغر الحجم، فهي ذات قيمة تاريخية وجغرافية وعلمية وفنية، بداية برحلة(الأمير عبد القادر) ورحلات رجال الإصلاح(البشير الإبراهيمي) و(ابن باديس) ورحلات رضا حوحو وابن صيام، و رحلاته...وغيرها كثير.

3. 1- أشكال الرحلات الجزائرية الحديثة:

3. 1. 1- الرحلات الحجازية:

نقصد بها الرحلات التي خرج أصحابها للقيام بمناسك الحج، أو العمرة، أو زيارة قبر الرسول صلى اله عليه وسلم، والأماكن المقدسة، ومختصر الكلام أنها رحلة دينية، ويمكن أن نمثل لها ب:

3. 1. 1. 1- رحلة الأمير عبد القادر(ت 1300هـ/1883)[1]: رائد النهضة الأدبية الجزائرية في بلادنا، وهو من الرجال الجزائريين الذين أنجزوا رحلات عديدة داخل وخارج الوطن، وهو مخضرم شهد الفترتين، الفترة التي كانت فيها الجزائر تحت ظل القوة العثمانية، والفترة التي عاشها في ظل الاستعمار، وهي الفترة المهمة من حياته، والتي عرفت بإنجازاته العسكرية والسياسية، وكذا العلمية والأدبية، وما يهمنا هنا هو رحلاته التي قام بها.

تذكر المصادر التاريخية أن (الامير عبد القادر) قام بحجتين: الأولى وهي الأهم انطلق فيها مع والده(محي الدين)[2] من منطقة وهران بالجزائر إلى تونس، حيث صار في وفد من الحجاج الذي أبحر معهم إلى الإسكندرية، فالقاهرة إلى جدة ومنها إلى بيت الله الحرام، فقد جاء في سيرته أنّه خرج في سفره " من وهران مع كبار دولتها يوم السبت ثاني يوم من شهر شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف(1230هـ) الموافق ل 22 مارس 1825م لزيارة بيت الله الحرام على حسب رحلات وطننا المعروفة التي تبدأ من(واد سيق)إلى واد سيد المقداد...إلى أن حل بجدة

[1] هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار الحسني الجزائري، أمير مجاهد، شاعر، أديب، عالم، صوفي، ولد بالقيطنة من قرى وهران بالغرب الجزائري سنة(1222هـ/1807م)، تعلم في وهران، أدى فرضة الحج مع والده سنة(1241هـ)، ثم زار بغداد ودمشق وعاد على الجزائر، بايعه الشعب وولاه القيادة، والقيام بأمر الجهاد سنة(1833م)، وبعد ضعف أمره ومحاصرته قرر الاستسلام بشروط، في 21 ديسمبر (1847م)، فنفي إلى طولون ومنها إلى أنبواز، زار باريس والأستانة، ثم توجه إلى سورية حيث استقر بدمشق سنة (1871م) إلى حين وفاته (1300هـ/1883م). من آثاره: كتاب (ذكرى العاقل)و(المواقف)و(ديوان شعر)(والمقراض الحاد في قطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل).ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 103-104

[2] هو محي الدين بن مصطفى بن محمد الحسني الجزائري، عالم بالفقه من الأعيان، ولد بالقيطنة سنة (1190هـ/1770م)، وتعلم بها وبمستغانم، حج ثلاث مرات ومر في آخر حجاته على بغداد، وهو والد الأمير عبد القادر، وله ذكر في سيرته التي كتبها (الأمير محمد بن عبد القادر) وكانت وفاته سنة(1249هـ/1834م).ينظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 114

"[1] أما الثانية فكانت من(دمشق)إلى الحجاز، وذلك سنة(1243هـ). وهاتان الحجتان "تضمنتها مذكراته الخاصة التي تحمل تجربة الرجل الشخصية، وهو ينقل لنا خبرته بالحياة والأشخاص، والبلدان، فكان حديثه عن حجتيه، وعن التاريخ من أهم العناصر فيها..."[2] ويمكن أن ندخل في هذا الباب كل من رحلة (الطيب المهاجي) سنة(1350هـ)[3] لأجل القيام بفريضة الحج، وكانت رحلة بحرية من وهران إلى جدة، ورحلة (أبي القاسم سعد الله) إلى الحجاز حيث اغتنم وجوده بالبلاد الحجازية لأداء مناسك العمرة...[4] ورحلة (محمد المنصوري الغسيري) إلى الحج "التي جاءت ضمن رحلاته العامة من الجزائر إلى الشرق العربي التي نشرها في حلقات بجريدة(البصائر) الأسبوعية."[5] وللقايد (ابن الشريف) رحلة حجازية بعنوان(في الأماكن المقدسة الإسلامية)، ولم يذكر معها اسم المؤلف بالتفصيل، وإنما جاء فيها اسم(سي أحمد بن الصادق) وقد كان القايد الشريف قد شارك في الحرب العالمية الأولى إلى جانب القوات الفرنسية، ثم ذهب إلى الحج وزار أيضا سوريا وفلسطين."[6]

3. 1. 2-الرحلات العلمية:

من الصعوبة بمكان أن نجد رحلة، اقتصر صاحبها على دافع واحد أخرجه في هذه الرحلة، فجل الرحلات التي تركها أصحابها مكتوبة عند قراءتها نجد أنّ الدوافع المحركة فيها متعددة، حتى أننا أحيانا يختلط علينا الدّافع القوي الّذي أخرج الرّحال؛ فرحلات الحج(الدينية)، مزجت في أغلبها بدوافع أخرى، ولاسيما منها الدافع العلمي.لكن الغالب على كل رحلة دافع يمكن نعته بالدافع الرئيسي،إذ يصبح بمثابة المحرك الأول لهذه الرحلة، إضافة لدوافع ثانوية تولدت بفضل الدافع الرئيسي، ويمكن أن نمثل لمثل هذه الدوافع؛ برحلات المؤرّخ الكبير(أبو القاسم سعد الله) الّتي يمّم فيها وجهته نحو(الجزيرة العربية السعودية)، والتي تعتبر " من الرحلات العلمية؛ إذ كانت بهدف حضور الندوة العالمية الأولى المخصّصة لمصادر دراسة الجزيرة العربية في 21أفريل 1977م، وهذا بدعوة موجهة إليه من جامعة الرياض، إلى جانب النّشاط العلمي الّذي أداه في الندوة.[7] كما جاء في رحلته الموسومة ب(رحلتي إلى المغرب)؛ أنّه توجه " إلى الخزانة العامة(المكتبة الوطنية) بحثا عن المخطوطات...وعن

---

[1] الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر، تح:يحي بو عزيز، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2009م، ص 96-99

[2] عمر بن قينة: رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 2009، ص29

[3] – وردت رحلاته في كتابيه (أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر، وكتاب الأعلام بمن حل بوهران من الأعلام طبع بدار الغرب الجزائرية سنة2002م.)

[4] ينظر سميرة أنساعد: الرحلة غلى المشرق في الأدب الجزائري، ص 76، 77

[5] عمر بن قينة: الأعمال الكاملة في أدب الرحلة ج1، كولوريوم (وزارة الثقافة) الجزائر، دط، 2013م، ص339

[6] ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص467

[7] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص98

كتاب(العكازين) الّذي ألفه القسنطيني خلال القرن السادس عشر."[1]

3. 1. 3 – الرحلات السياسية والسياحية:

يمكن أن نمثل لهذا النوع من الرحلات، برحلات كل من(سليمان بن صيام) والموسومة ب(الرحلة الصيامية) قام بتحقيقها(خالد زيادة)، وهي من أقدم الرحلات إلى أوروبا، وتدخل في إطار الرحلات الرسمية تمت بأمر الحاكم العام بالجزائر لحضور مهرجان تنصيب (نابليون الثالث)؛ لأنّه كان أحد المقربين من السلطات الفرنسية الحاكمة آنذاك.[2]

أما عن المدة التي استغرقتها هذه الرحلة يقول (سعد الله) إنّها :" استغرقت شهرا – 25 أبريل إلى 25 مايو 1852م وهي رحلة كانت بأمر الحاكم العام(المارشال راندون) لمجموعة من الأعيان من الولايات الثلاثة، وكان(ابن صيام) من ضمن هذه المجموعة، إلى العاصمة الفرنسية لحضور توزيع الأولوية على جنود وكبار الجيش الفرنسي تحت إشراف(نابليون الثالث).[3] ورحلة(محمد السعيد بن علي الشريف)[4] إلى فرنسا، أيضا تدخل ضمن الرحلات السياسية، فقد تزامنة مع الرحلة الصيامية " فقد ترافق الرجلان في السفر لنفس الغرض."[5]ومن الرحلات السياسية " الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير البادية"، تأليف(أحمد ولد قادي القاضي) رحلة حصلت سنة(1878م)...لحضور المعرض الدولي في فرنسا، وقد نشرت تباعا في(المبشر)، ثم نشرت في كتاب صغير بعد ذلك، والمؤلف كان:(باشاغا فرندة)...فقد أظهرته رجل محافظا ومتحررا...في نفس الوقت نادى بالإصلاحات وأظهر تأثره بما شاهد في فرنسا من تقدم وما عاشه قومه من معاناة، وقد اغتنم وجوده بفرنسا وطالب برفع بعض المظالم عن مواطنيه..."[6]

ورحلة الشيخ(الصالح رمضان) الموسومة ب(عائد من الصين) "وللحديث عن تاريخ الصين وحضارته العريقة يعتمد الكاتب مرجعين هما(دائرة معارف القرن العشرين للسيد(فريد وجدي)...لينتهي من ذلك إلى علاقة(الصين

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983، ص209- 220

[2] ينظر بوشعيب الساوري: جدل الذاتية والموضوعية في رحلة ابن صيام، جريدة القدس، العدد: 5461، السنة الثامنة عشرة: 19 كانون الأول (ديسمبر) 2006م -29 ذو القعدة 1427هـ، ص11

[3] ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، 475

[4] ولد بقرب بجاية حوالي (1826م) وتوفي حوالي (1896م) وهو من أسرى تنتمي إلى إحدى الطرق الصوفية التي تعاونت مع الإدارة الفرنسية، منذ بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر.ينظر: عبد الله الركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2009، ص58

[5] المرجع نفسه، ص476

[6] المرجع نفسه، ص473، 474

بالعرب)..."[1] ورحلة محمود بوزوزو الموسومة(من وحي البرلمان الفرنسي) هي " من الرحلات الجادة إلى الغرب بطابعها الوطني، وخلفيتها الإنسانية في إدانة الاستكبار الأوروبي والسخرية من الشعارات البهتانية التي يرفعها كواجهة ليغطي بها مخازيه المتناقضة، التي في مقدمتها الحرية، والديمقراطية، والعدالة التي يستأثر بها الإنسان في أوطانه ويحجبها دون غيره..."[2] ورحلة(أحمد رضا حوحو)[3]الموسومة ب(وراء الستار الحديدي (عدت من الإتحاد السوفياتي)[4] يمكن عدها من باب السياحة والاطلاع ؛كما كانت له محطات تحدّث فيها عن السياسة السوفياتية بشكل سريع. من فوائده التي عادت ثمارها على المؤلف، أنه أطاح بالصور السلبية التي تشكلت في ذهنه من هذا البلد جرّاء قراءاته إضافة للدعاية والإعلام الكاذبين الّذين شوها صورة السوفيات وسكانه، لتحل مكانها صورة إيجابية بكل أبعادها الثقافية والسياسية والاقتصادية...

3. 1. 4 – رحلات التجسس:

هناك العديد من الرحلات أو المذكرات التي خدمت العدو الفرنسي يمكن عدها من قبيل التجسس الذي أطال عمر الاحتلال الفرنسي في بلادنا، من بين هذه المذكرات و الرحلات: مذكرات(الحاج أحمد باي قسنطينة). "وهي التي أملاها على أحد الضباط الفرنسيين(المترجمين) بعد استسلامه سنة(1848م) [5].و من بين هذه الرحلات : رحلة(إسماعيل بوضربة) إلى (غات) كلفه بها الحاكم العام(راندون)، لجمع الاخبار عن أحوال الصحراء...وبين سنتي(1858م- و1859م) بعثه إلى اكتشاف المنطقة الواقعة بين ورقلة وغات. [6] ورحلة(الحاج البشير) حوالي سنة(1867م) "وقد أملاها على أحد الفرنسيين وهو، (ف.فيليب)؛ عندما كان الحاج البشير في الخامسة والعشرين من عمره...بدأ الحاج إبراهيم يملي رحلته في 12 مايو وانتهى في 13 سبتمبر 1867م"[7]

---

[1] المرجع نفسه، ص188، 190

[2] عمر بن قينة، رحلات ورحالون في النثر العربي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 2009، ص97

[3] ولد أحمد رضا حوحو عام(1911م) ببلدية سيدي عقبة من ولاية بسكرة الجزائر وفيها حفظ القرآن وتعلم العربية والفرنسية ولما بلغ 15سنة توجه إلى سكيكدة ليتابع دراسته في "الكوليج" وبعد أربع سنوات من دراسته عاد إلى بلدته ليعمل موظفا في البريد وفي عام 1934م) هاجر مع أسرته إلى المدينة المنورة، وفيها تحصل على الشهادة العليا 1938م في العلوم الشرعية...وفي عام 1949م أصدر مع فئة من الشباب جريدة الشعلة تولى رئاستها، أتيحت له القيام برحلات متعددة زار خلالها روسيا وفرنسا وإيطاليا ، وتشيكوسلوفاكيا، استشهد عام 1956م من مؤلفاته غادة أم القرى /مع حمار الحكيم /نماذج بشرية /ورحلة وراء الستار الحديدي...ينظر محمد بوزواوي: معجم الأدباء والعلماء المعاصرين من (1798م)إلى(2009م)، الدار الوطنية للكتاب نشر وتوزيع دراية، الجزائر، دط، 2009، ص185

[4] – نشرها في جريدة (الشعلة)الأسبوعية الصادرة بقسنطينة التي كان ينشر فيها القصة والمقالة الأدبية الساخرة سنة(1950م) استغرقت رحلته سبعة وعشرين يوما ابتداء من (19اوت 1950م) ينظر عمر بن قينة: الاعمال الكاملة، ص115، 116

[5] –أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص452، 453

[6] – ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 459-462

[7] –المرجع نفسه، ص460، 461

ورحلة مصطفى بونمان " وهو جزائري تشبه حياته حياة (إسماعيل بوضربة) في مهنته وتكوينه، فقد قام(بونمان) أيضا برحلة صحراوية وصل فيها إلى غدامس، وعبر فيها بلاد الهقار...والّذي يدرس تاريخ قسنطينة في الخمسينات والستينات، سيلاحظ تكرار اسم هذا الضابط الرحالة الّذي كرّس حياته لخدمة المصالح الفرنسية العسكرية والمدنية."[1]

3. 1. 5 – رحلات رجال الحركة الإصلاحية:

وهي رحلات إصلاحية إرشادية توعوية...، الغاية منها يقظة الشعب من سباته العميق الّذي أوقف تقدمه وصحوته، بسبب الجهل، والأمية التي زرعتها فرنسا بين أفراده؛ حيث كانت تمنع محاولة هؤلاء الرجال من أفعالهم الرامية و المضنية لإيقاظ الشعب من غفلته، لكن رغم كل المحاولات المبذولة من المحتل لإبطال هذا السعي المبارك لزرع الصحوة بين أفراد الشعب الجزائري المغلوب على أمره إلا أنها فشلت؛ لأنّ الله تعالى أراد أن تعلو راية المسلمين، و لو كره المبطلون، في هذا الوطن الذي عان أهله كل أنواع العذاب، والتهميش، والفقر، والجوع ،والأمراض...فكانت رحلات(ابن باديس)[2]و(البشير الإبراهيمي) بنوعيها الداخلية، والخارجية نبراسا ينير طريق الجزائريين ليخرجوا من ظلمات الجهل والأمية والعجز إلى نور العلم والحرية والسّلام الّذي ينعم به شعوب العالم فهذا (ابن باديس) كانت له رحلات داخلية استغرقت جل مدن ،وقرى الجزائر، والغاية منها على حد تعبيره الّذي يقول فيه: " ما كنت ادعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله، والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ورفع الأمية، والجد في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة...والبعد عن الخيانة والظلم."[3]من هذه المدن والقرى(العروش، عزابة، سكيكدة، سانطارنو(العلمة) ومجاز الدشيش وسيدي مزريش، عين مليلة، أم الباقي....) [4]كما كانت له رحلة داخلية موسومة ب(جولة صحفية) زار فيها العديد من المناطق الجزائرية، وقد كانت رحلته على هذا الترتيب "سطيف، البرج، تازمالت، آقبو، زاوية سيدي عبد الرحمان اليلوي بسيدي عيش، بجاية، عزازقة ، تيزي وزو...إلى قسنطينة."[5]

---

[1] – نقلا عن أبي القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص462-463

[2] هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس: من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، والزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ بدأ قيامها إلى وفاته ولد بمدينة قسنطينة عام 1308هـ/1889م تعلم بمسقط رأسه، ثم بتونس، من إصداراته جريدة المنتقد ومجلة الشهاب...توفي بقسنطينة عام 1359هـ/1940م من آثاره: مجالس التذكير والعقائد الإسلامية...ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص82

[3] عبد الحميد ابن باديس: آثار عبد الحميد بن باديس، تح:عمّار الطالبي ، الشركة الجزائرية، ط3، 1417هـ/1997م، مج4، ص297

[4] عبد الحميد ابن باديس: آثار عبد الحميد بن باديس، تح:عمّار الطالبي ، ص305

[5] المرجع نفسه، ص306

أما عن رحلاته الخارجية تمثلت في زيارت تونس العزيزة؛ لحضور حفل بمناسبة الذّكرى التي أقيمت للرجل العظيم: (السيد البشير صفر) رحمه الله [1] "كما رحل إلى المشرق وحج، ولقي في رحلته جماعة من العلماء، وعاد سنة 1913م."[2] أما عن الشيخ(البشير الإبراهيمي)[3] فقد سار على نهج(ابن باديس)، فقد كانت له رحلات كثيرة خارج الوطن، تنوعت مقاصدها وغاياتها، من بين هذه المقاصد الأساسية يقول: البشير الإبراهيمي " التعريف بجمعية العلماء وأعمالها للإسلام والعربية، والتعريف بالجزائر والشمال الإفريقي كله، فإنّ إخواننا في الشرق لا يعلمون عنّا إلا القليل المشوّه، وقد قمت بهذا التعريف في دواخل باكستان على أكمل وجه."[4] فهو قبل وصوله إلى المكان الهدف –باكستان– فقد مر بالعديد من الدول لعلّ أولها باريس يقول:" ووصلت إلى باريس بعد زوال ذلك اليوم...ولبثت في باريس يومي الجمعة والسبت...وفي مساء الأحد تاسع مارس على الساعة السابعة؛ ركبت القطار السريع إلى(رومة)...فوصلنا مطار(فاروق) بالقاهرة على الواحدة بعد نصف اللّيل."[5] ومن القاهرة يواصل سفره إلى(باكستان) لحضور اجتماعا يعقد في(كراتشي)[6] كما كانت له تنقلات إلى أقطار عربية كثيرة منها: العراق والسعودية، والكويت، وبغداد، ودمشق، وعمان ، وفلسطين...و رحلات داخلية مست بعض المدن والقرى الجزائرية، لكن كانت قليلة جدا مقارنة بتنقلات(ابن باديس)، ومن يريد التعرف أكثر على رحلاته ، وتنقلاته يرجع إلى كتابه المعنون ب(آثار البشير الإبراهيمي).

عرف المغرب العربي كما هائلا من الرحلات، البعض منها وصلنا والبعض منها ضائع، والبعض الآخر نائم على رفوف المكتبات يحتاج من ينفض عنه غبار السنين والاهمال، ومدامت الجزائر من دول المغرب العربي فالقول السالف ينطبق عليها، لأنّ دول المغرب العربي عاشت تقريبا نفس الظروف؛ من بينها تكالب الدول الأوربية عليها، واحتلالها وتجويع أهلها وسفك دمائهم، وتعطيل فكرهم، ومسح معتقداتهم وثقافتهم، ونهب ثرواتها الفكرية

[1] المرجع نفسه، ص325

[2] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 28

[3] – هو رائد الحركة الأدبية والإصلاحية في الجزائر، ولد عام(1889م) في قرية أولاد إبراهيم بسطيف في أسرة شريفة عرفت بالعلم والدين، وفيها تلقى علومه على يد عمه (محمد المكي الإبراهيمي) فأتم حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، هاجر إلى المدينة المنورة متخفيا سنة1912، وفي عام 1917م هاجر إلى دمشق فاختير أستاذا للمدرسة السلطانية، فدَرّس الأدب للصفوف النهائية، ثم عاد إلى الجزائر سنة1920م فشارك في الحركة الإصلاحية إلى جانب ابن باديس، وبعد وفات ابن باديس انتخب غيابيا رئيسا للجمعية وفي عام 1952م كلفته الجمعية بمهمة في المشرق العربي؛ وهي السعي لدى الحكومات العربية لقبول البعثات الطلابية الجزائرية في جامعاتها.ولما اندلعت الحرب أصدر بيان يؤيد فيه المجاهدين، عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال، وأصدر بيانا يندد فيه بتوجهات الرئيس أحمد بن بلة، ففرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته عام 1965م، ينظر: محمد بوزواوي: معجم الأدباء والعلماء المعاصرين من(1798مإلى 2009م) الدار الوطنية للكتاب، دراراية، الجزائر، دط، 2009، 33-35

[4] البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج2(1940م-1952م)، تقديم:أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، 1997م، 28

[5] المرجع نفسه، ص29

[6] ينظر المرجع نفسه، ص32

والمادية...هذا حال جل دول المغرب العربي تقريبا. لذلك تشابهت أحيانا أفكارهم وثقافاتهم، وحتى تحركاتهم.التي مثلتها رحلاتهم والتي ضمّتها بطون كتبهم، التي كتب لها القدر أن تصلنا رغم كل الظروف.

وبعد هذه الدراسة التاريخية المتفرقة الأطراف، والمختصرة لمختلف أنواع الرحلات في المسار الرحلي الجزائري ، بالإضافة لأهم الدوافع التي شكّلت المحرك والباعث الحقيقي للقيام بمثل هذه التحركات، ودراسات أخرى رأيت أنها ضرورية لمثل كذا دراسة؛ تطرقت إليها بإيجاز شديد تنويها لا تفصيلا ك: الحياة الثقافية والفكرية الجزائرية في فترة العهد العثماني وقبله النشأة والتدوين لمثل هذه النّصوص، ثمانتقلنا إلى دراسة هذا الفن أو الشكل من الكتابة من ناحية البنية الخارجية، والنمطية التي شكلت غموضا والتباسا شديدين في حياة هذا الفن، ولا سيما "التجنيس" الذي وجدنا فيه حين تتبعناه بعض الصعوبة في التصنيف، مع وجود اختلافا وتناقضا أحيانا أخرى حول المكانة أو الخانة التي يمكن وضع "أدب الرحلة" فيها، وفكرة الأدبية أو الشعرية التي يتميز بها؛ وبالتالي إدراجه تحت النصوص الأدبية، والبنية السردية التي هي جزء من قوانين الشعرية. كما لا أنس العلاقة الوطيدة بين الرحلة والسيرة الذاتية التي يصعب على كل ناقد أو كاتب التملص منها.

الفصل الثاني

أدب الرحلة(التجنيس ، التقسيمات ، والبنية:"الأدبية والسردية")

1– تجنيس الرحلة:

2– التقسيمات الشكلية التقليدية في جنس الرحلة.

2. 1– عناصر التقسيمات الشكلية في نص الرحلة

2 2 –نماذج للمقارنة

3– مفاهيم عامة حول الأدبية/ الشعرية

3 1– أصول ومنابع الشعرية

3 2 – الأدبية/ الشعرية في العصر الحديث

4– أدبية/ شعرية نصوص الرحلة

5– البنية السردية في الرحلة

5 1 – مقومات السرد

5 2 – البنية السّردية في الرحلات:

1- تجنيس الرحلة:

قبل التطرق إلى البنيات الّتي يتشكل منها نص الرحلة، نقف وقفة مختصرة للحديث عن قضية الأجناس الأدبية عموما، ثم عن جنس الرحلة خصوصا، وما هي نظرة النقاد والمتخصّصين في هذا المجال، وعرض أهم الآراء الّتي سيقت حولها وأي الخانات صنفت فيها، وهل هي جنس متفرد بخصائصه النّوعية الّتي تجعله يعد فنا قائما بذاته، أم هي مجرد مذكرات ويوميات كتبت لا تخضع لأي تصنيف؟ هذه بعض النقاط الّتي سنحاول الإجابة عنها بإيجاز في هذه الأسطر.

نظرية الأجناس الأدبية من النظريات الشائكة والخطيرة في آن واحد؛ فقد حظيت هذه القضية باهتمام كبير منذ العصور الغابرة، وتعددت فيها المقاربات، وتضاربت فيها الآراء بدءا من(أفلاطون)، و(أرسطو طاليس) في كتابه الشهير(فن الشعر) الّذي عرف بتقسيمه الثلاثي الملحمي والدرامي والغنائي، بحيث حدد أرسطو الخصائص المميزة لكل جنس من الأجناس، ولازالت هذه القضية المعضلة ترهق من يخوض فيها إلى وقتنا الراهن.

ومفهوم الجنس في الأدب من أشد الأمور استعصاء على التعريف كما يقول(إيف ستالوني)[1]، لكن هذا لم يمنعه من تقديم تعريف يقترب به من هذا المفهوم يقول: "الجنس مقولة تمكن من ضم عددا من النّصوص بعضا على بعض بناء على معايير مختلفة."[2] نفهم من القول أنّ النصوص لا يمكن لنا أن نضمها تحت مضلة جنس واحد، حتى تتوفر فيها معايير وشروط معينة وخاصة ومتباينة، وجاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة لسعيد علوش أنّ " النوع أو الجنس تنظيم عضوي لأشكال أدبية" [3] الملاحظ أن الكاتب جمع بين مصطلح النوع والجنس مما يدل على أنّ المصطلحين يتقاربان في المعنى فكلاهما يُعنى بتصنيف الأشكال الأدبية التي توافرت فيها خصائص مشتركة، وقد تبنى هذه الفكرة الكثير من النقاد الّذين زاوجوا بين المصطلحين في الاستعمال. وكتعريف مبسط لمفهوم عملية التجنيس في الأدب حتى لا نشتت ذهن القارئ ونقع في الاستطرادات، لأن الغاية هنا الحديث عن الرحلة من باب هل هي جنس أم غير ذلك.

يعرف صاحبا معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: الجنس الأدبي بأنّه" أحد القوالب الّتي تصب فيها الآثار الأدبية، فالمسرحية مثلا جنس أدبي، وكذا القصة وهكذا..."[4]إذا الغاية من تصنيف الآثار الأدبية هو

[1] ينظر إيف ستالوني، الأجناس الأدبية:تر: محمد الزّكراوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2014، ص 8

[2] المرجع نفسه، ص 25

[3] سعيد علوش، المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص223

[4] مجدي وهبة وكمال المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص141

فهمها، وفهم المعاني الكامنة والمتخفي، وراء جدار الكلمات المتسقة. وفي هذا الشأن يقول:(إيف ستالوني) في الحديث عن الفائدة المرجوة من تصنيف الأعمال الأدبية أنّ من خلالها يتم " استخلاص المبادئ والمفاهيم الّتي من شأنها المساعدة على فهم النصوص، وإدراك الروابط الّتي تصل الأعمال بعضها ببعض، والوقوف على الثوابت والفروق عبر العصور، وتعرّف المواضعات(والخروق) المطّردة، ليست تلك أمور اقتطعتها رؤية معيارية للأدب بل وسائل في سبيل تأويليات، والغاية القصوى من كل عمل نقدي، هي قراءة العمل وفهمه، فلا ينبغي إقصاء أيّة أداة من الأدوات الّتي تمكن من بلوغها."[1] إذا عملية التجنيس أداة من أدوات فهم الأعمال الأدبية، لها أهميتها في الدراسات النقدية فلا يمكن إهمالها.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: أين تكمن المعضلة الّتي يتحدث عنها النّقاد عند الحديث عن قضية التجنيس؟؛ تجيبنا عن هذه الإشكالية الكاتبة والنّاقدة(ساميا بابا) قائلة:" تعتبر عملية تجنيس وتصنيف النّصوص الأدبية من أعقد المعضلات الّتي يعاني منها الحقل الأدبي، ومرد ذلك صعوبة وضع حدود قارة تفصل بين الأجناس الأدبية، وكذا الحسم في تبويبها داخل خانات أجناسية ثابتة. وعموما يتعذر اتفاق الآراء حول تجنيس النصوص عامة لتداخل الأجناس فيما بينها، وعجزت نظريات الأدب في الفصل بينها، ويظهر هذا العجز خصوصا على مستوى تصنيف السير ذاتية."[2] والقول يسفر عن تعريف للتجنيس الأدبي؛ وهو تصنيف النصوص، والآثار الأدبية في خانات ثابتة، كما يحدد لنا المعضلة العويصة التي وقفت حائلا بين نقاد الأدب والدارسين في وضع القانون القطعي والأخير لهذه القضية، ألا وهي صعوبة وضع حدودا قارة وثابتة تفصل بين الأجناس الأدبية، وبالتالي عجزنا في فصل هذه النصوص بعضها عن بعض، لأن طبيعة النص الأدبي المرنة، تسمح له بأن تسبح في فضائه مجموعة من الأجناس مثل: جنس الشعر باختلاف أغراضه وأشكاله، وجنس المقامات، والأسطورة، والسيرة بشقيها الذاتية والغيرية، وجنس القصة وهكذا..." ولعل هذا التداخل هو ما دفع كثيرا من النّقاد إلى الفرار من تحديد الجنس الأدبي الّذي ينتمي إليه النص هذا أو ذاك، وأطلقوا على النّص مصطلحات أخرى مثل الإنتاج الأدبي، أو العمل الأدبي، أو الأثر الأدبي، وقد يستعيضون عن تسمية الجنس بذكر النّص أو الخطاب..."[3] هنا المشكلة فالفرار لا يزيد الطين إلا بلة، والمشكلة تعقيدا، فلا بد علينا كدارسين أن نتصدى لكذا مشاكل والبحث عن الحلول الناجعة؛ فلكل مشكلة حل مهما بلغت صعوبتها؛ فإن كان حزب من هؤلاء يعدون تداخل النصوص

[1] إيف ستالوني، الأجناس الأدبية، تر: محمد الرّكراوي، ص239

[2] ساميا بابا، مكون السّيرة الذاتية في الرواية 'حكايتي شرح يطول لحنان الشيخ'، جامعة الجزائر، ط1، 1433هـ/2012م، ص 21

[3] إبراهيم عبد الفتاح رمضان، التناص في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تأصيلية في ببليو غرافيا المصطلح–، مجلة الحجاز العالمية المحكمة للدراسات الإسلامية والعربية، ع5، محرم 1435هـ، نوفمبر 2013، ص199

معضلة ومتاهة ليس لها مخرجا، فهناك في الجهة المقابلة حزب ثاني يقلب الموازين ويعد التداخل في النصوص جمالا،وتوسيعا لأفاق النصوص وإثراء لمضامينها وتنويعا لها؛ إذ يمكن أن ننعت مثل هذه النّصوص بالنص الجامع لما حواه من ككتال من النّصوص المتنوعة والمختلفة "لأن فيها شيء من الرواية، وشيء من القصة، وشيء من الرسائل هذا فضلا عن المقامة، وهذا ما يُسوغ الزعم بأنّ هذا النص نص استثنائي يتخطى قواعد التصنيف.."[1] ومنهم من يصف مثل هذه النصوص الّتي تأبى عن التجنيس بالنص الفائق.[2]

لكل عصر علماءه البارزون، كما لليونان مؤسس للعلوم والفلسفة، لنا نحن في عصرنا الحديث ناقد كبير هو(سعيد يقطين)، الّذي سار على خطا(أرسطو طاليس) محاولا أن يقدم لنا تقسيما ثلاثيا للأجناس على غرار تقسيم أرسطو للأجناس؛ بحيث يمثل تصورا شاملا تنضوي تحته كل الأجناس، مع مراعاة خصائص كل جنس والمبادئ المنطلق منها وهذا التقسيم هو كالآتي: الشعر، والحديث، والخبر حيث قال: إنّ كل كلام العرب يدخل بهذا الشكل أو ذاك ضمن هذه الأجناس. وبعد تحديده لأجناس الكلام ينتقل إلى تحديد الأنواع وهي كالتالي:

أ/الأنواع الثابتة: نقصد بها الأنواع الأصول وهي الأقرب إلى الأجناس، أدرج تحتها الخبر، الحكاية، القصة، السّيرة.

ب/لأنواع المتحولة: وهي الأنواع الفرعية...وعلى سبيل المثال: الحكاية نوع أصلي، لكن حكاية الصّالحين نوع فرعي..وهكذا.

ج/ الأنواع المتغيرة: على حد تعبير يقطين هي: الأنواع المختلطة، ويمكن أن ندخل ضمن هذه الأنواع كل من قصص الحيوان(كليلة ودمنة)، والرحلة الّتي يراها البعض سيرة ذاتية، والبعض الآخر قصة، والآخر تاريخا أو جغرافيا، ويكمن هذا الاختلاط في كونها تضم مقومات جنسين مختلفين، أو مكونات أنواع مختلفة.[3]

من خلال ما سبق يمكن وصف الرحلة بالنص الجامع، أو النوع المختلط، أو النص الفائق، أو من النصوص الأكثر جمالا وذلك لتعدد الأجناس المتمثلة فيها [4]...لما تضمّنته من أجناس أخرى تتفاوت من نص لآخر حسب ما تمليه الظروف المحيطة بصاحب الرحلة. كما يمكن أن نقول في هذا الصدد أنه من غير الممكن وجود نص نقي

---

[1] بحري نصيرة، أدب الرحلة في الجزائر، 'عبد الرزاق بن حمادوش أنموذجا ' رسالة ماجيستير، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، 2014م/2015م، ص6

[2] ينظر في نظرية الأدب وعلم النّص –بحوث وقراءات– الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1 ، 2010م، ص 23

[3] ينظر سعيد يقطين، الكلام والخبر –مقدمة للسّرد العربي –، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص 193- 197

[4] ينظر إبراهيم عبد الفتّاح رمضان، – التناص في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تأصيلية في ببليوغرافيا المصطلح، مجلة الحجاز العالمية المحكمة للدراسات الإسلامية والعربية، ص 199

وخال من تداخل الأجناس، ولا سيما في نصوص الرحلة القديمة كرحلة (ابن بطوطة) و(ابن جبير) و(رحلة الورثيلاني)... وهذا العرض المبسط لبعض ما جاء به النّقاد في حديثهم عن جنس الرحلة يفضي إلى نتيجة حتمية تمثلت في: عدم وجود نظرية قاطعة تقول: بأنّ نص الرحلة جنس أدبي بفضل مقوماته الّتي تهيئ له الأساس المتين الّذي يقوم عليه، وتقطع الشك في كونه جنسا أدبيا قائما بذاته. وفي خضم هذا التضارب، في الآراء والاختلاف في الرؤى حول كون الرحلة جنسا، أوليست جنسا أدبيا، ظهر فريقان هما: فريق يقول بأنّ الرحلة جنس أدبي، وفريق آخر يقول بأنّ الرحلة ليست جنسا أدبيا. لكن ما يهمنا في هذه العجالة هو آراء وتصريحات الّذين قالوا: بأنّ الرحلة جنس أدبي من علماء الأدب والنّقد، وبعض الباحثين في هذا الميدان، وهم كثيرون.نورد بعضهم على سبيل الذكر لا الحصر:

– **فؤاد قنديل**: وهو كاتب وناقد معروف له إسهامات عديدة في أدب الرحلة منها: كتابه المعروف ب(أدب الرحلة في التراث العربي) وفيه تصريح مباشر بأنّ الرحلة جنس أدبي؛ ودليل ذلك يظهر من خلال كتابه المذكور آنفا، حين تكلم عن المنهج الأنسب لدراسة أعمال السلف، وخاصة رحلاتهم المدونة، أو ما يعرف بأدب الرحلة؛ ليصل إلى تحديد الفترة الزمنية والذهبية التي نشط فيها هذا النوع من الدراسة، والّتي وصفها بالمرحلة الأولى والعظمة في مسار هذا الجنس الأدبي، وهنا بيت القصيد يقول قنديل:" وهذه هي المرحلة الأولى والأعظم في مسار ذلك الجنس الأدبي..."[1] ويقصد به أدب الرحلة.

– **شعيب حليفي**: بعد حديثه عن صعوبة إعطاء تعريفا محددا وموحدا عن الرحلة؛ والّذي يرجعه إلى التراكم الّذي أدى إلى تنوع أشكال الرحلة وتشكيلها الفني، والتيمات الموجهة يعلن بأنّه " الأمر الّذي يقود إلى الحديث عن الرحلة باعتبارها جنسا مؤطرا بعناصرها ومكوناتها..."[2]، وفي موضع آخر يذكر بأن الرحلة جنس أدبي، وذلك حين قام بطرح تساؤله المتعلق حول:" لماذا تلاشى جنس الرحلة مثل غيره من الأشكال السردية(التراثية)."[3]

– **كمال بولعسل**: صاحب كتاب(رحلة أبو حامد الغرناطي –دراسة في فضاء الرحلة)، يجيب على من يعتبر الثراء الّذي يميز نصوص الرحلة، والروافد المتنوعة كجنس السيرة الذاتية، وجنس القصة، والمقامات..الّتي شكلت بنية معظم هذه النصوص عائقا أمام تصنيفها في خانة الأجناس قائلا:"وإنّ هذه النّصوص تعد هجينة في هذا

[1] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي:،ص 07

[2] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي – التجنيس آليات الكتابة خطاب المتخيل-:،كتابات نقدية، مكتبة الأدب المغربي دط،، 2002م، ص40

[3] المرجع نفسه، ص 470

الجنس الأدبي حيث يخترقه عدّة تخصّصات وممارسات فكرية."[1] أي أنّ الأجناس المتوافر في نص الرحلة الواحدة،على اختلافها؛ طُوّعَت لخدمت الرحلة كنص لإثراء مضامينه وتنويعها. وأيضا تتجلى لنا فكرة أنّ الرحلة نص جامع لانطوائه على العديد من النّصوص، إذا الرحلة جنس يتضمن مجموعة من الأجنس.

– عبد الرحيم مؤدّن: من أنصار الرأي القائل: إنّ الرحلة جنس أدبي قائم بذاته، يقوم على محكي السفر: ويظهر هذا كله في هذا القول:"والرحلة جنس أدبي يقوم على محكي السفر."[2] وفي كتاب آخر من كتبه يواصل في تأكيد هذه الفكرة والّتي مفادها أن مكون السفر لا ينفصل عن " باقي مكونات الرحلة من فضاء وشخصية وصيغ سردية، وتميّز الرحلة عن نصوص أخرى، استندت بدورها إلى السّفر، يتجسد في تحويل هذه المكونات إلى خصائص مميزة لنص الرحلة عن غيرها مما يجعل من النص –نص الرحلة– جنسا أدبيا قائما بذاته." [3] والمراد بذلك أنّ كل نص رحلي لابد وأن يقوم على بنية السفر، وبالتالي يكون من مكوناتها الأخرى من فضاء وشخصيات وصيغ سردية. ولتصنيف مثل هذه النصوص في خانة أدب الرحلات لابد أن تتوفر فيها خصائص نوعية يتفرد بها عن سواها، وهي الّتي سماها (إيف ستالوني) بالبنية المهيمنة يقول:" ينتسب عمل إلى جنس بعينه متى كانت مهيمنة فيه كافية. سمات خاصة بذلك الجنس."[4] والبنية المهيمنة على النصوص الرحلة هي دون شك السفر؛ لكن هنا يجب أن ننبه على أمر خطير هو أن تكون النصوص نابعة من بنية السفر، وليست تيمة أو موضوعة فيه،

إذا كانت النصوص على اختلافها تتحدث عن السّفر، وهذا ما أكده الناقد عبد الرحيم مودن حين قال:" فالرحلة أو النص المنتمي إلى أدب الرحلة يجب أن يكون نابعا من بنية السفر قبل أن يكون نابعا من موضوع السّفر الّذي قد يتوفر في العديد من النّصوص سواء انتمت إلى المتن الرحلي أو لم تنتم إليه."[5]إذا كل نص رحلي يجب أن تتوفر فيه خصائص نوعية تميزه عن سائر النصوص السردية الأخرى أهمها بنية السفر .

– العلوي بن سعيد: وهو صاحب كتاب(أوربا في مرآة المرحلة) من أنصار الرأي أيضا يقول:" تشكل الرحلة

---

[1] بولعسل كمال، رحلة أبو حامد الغرناطي –دراسة في فضاء الرحلة–، نوميديا للطباعة والنّشر والتوزيع)، الجزائر، دط، دت، ص48

[2] عبد الرحيم مؤدن، الرحلة في الأدب المغربي –النص –النوع –السياق، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2006، ص 5

[3] عبد الرحيم مودّن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد)، دار السويدي للنّشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006، ص29

[44] ايف ستالوني: الأجناس الأدبية: تر: محمد الزكراوي، مر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص47

[5] عبد الرحيم مودن: الرحلة في الأدب العربي –النص، النوع، السياق، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2006، ص6

جنسا أدبيا يتسم بالطرافة متى قورنت بالأجناس الأدبية الأخرى، ويمتاز بجمعه بين الإفادة والإمتاع."[1] فالرحلة عندا هذا النّاقد جنس أدبي غني من حيث المضمون بما ضمنها من أخبار وعلوم، وقدمها بأسلوب ممتع.

– **عيسى بخيتي**: صاحب رسالة الدكتوره الموسومة ب:(أدب الرحلة الجزائري الحديث) من الباحثين في هذا النوع من الدراسة، ومن مؤيّد فكرة الرحلة جنس أدبي، ويظهر ذلك من خلال تصريحاته العديدة الّتي وردت في أطروحته وبصريح العبارة، ولعل أول هذه العبارات(الجنس الأدبي الرحلي) و(جنس الرحلة).[2]

– **جميلة روباش**: صاحبة الأطروحة الموسومة ب:(أدب الرحلة في المغرب العربي) تقول بنص العبارة إنّ" الرحلة من بين الأجناس الأكثر ثراء وغنا، وانفتاحا، وتعددا للأصوات، والخطابات، ومن أكثر تجارب العالم الخارجي تعقيد."[3] فهي تصف الرحلة بالجنس الأدبي.

– **حطاب طانيا**: من الباحثات في ميدان أدب الرحلة لها مساهمة في هذه المسائل النقدية الشائكة، حيث تؤيد فكرة –أنّ الرحلة جنس أدبي –؛ وذلك عندما تكلمت عن المصادر الّتي تستقي منها الرّواية مادتها وتتعالق معها في نفس الوقت، والتي وصفّتها بالأجناس؛ وهي:(السيرة الذاتية، أدب الرّحلات ، والأسطورة)."[4]

– **عواطف محمد يوسف نواب**: وهو صاحب رسالة الماجيستير(الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين –دراسة تحليلية مقارنة– هو من الباحثين المدافعين عن هذا النوع من الكتابة، وإن لم يصرح بلفظه، لكن يكتفي بوصفه بالفن القائم بذاته، مع التحديد في نفس الوقت للشّروط الأساسية الّتي لابد من توافرها في مثل هذه الأنواع من الكتابات، من تاريخ الخروج والوصول مع إعطاء لمحة وافية عنها...[5]

أكتفي بهذا القدر على التدليل بأنّ الرحلة جنس أدبي، لكن لكل شيء مقابل وضد، ومخالف، يخالف ما ذهب إليه هؤلاء، لأن طبيعة الأدب تقتضي ذلك، لأنها ليست أمور دقيقة يفصل فيها فصلا قطعيا، فلولا الاختلاف لما كان النقد أصلا، لكن لا داع لذكرها حتى لا يعد من قبيل التناقض أو التنويه بأقوال المعارضين، لأنّ

[1] سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة المرحلة: صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة، دراسات في الأدب الجغرافي دار السّويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006، ص11

[2] ينظر عيسى بخيتي: أدب الرحلة، 8، 9

[3] جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014م/2015م، ص(ب)

[4] ينظر حطاب طانيا: إشكالية التجنيس في الرّواية العربية المعاصرة –دراسة نماذج عربية–، أطروحة دكتوراه، جامعة مستغانم (عبد الحميد ابن باديس)، 2010م- 2011م، ص (ب)

[5] ينظر عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة–:،مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، دط، 1417هـ/1996م، ص71

وأنا أحترم ما ذهبوا إليه في عدم إقرارهم بجنسية هذه الكتابات، فهم لهم حججهم ، لكن من باب الاجتهاد رأيت أن أسير في طريق هؤلاء القائلين بأنّ أدب الرحلة جنس أدبي قائم بذاته مستأنس بأقوالهم، بشهادة ، لذا دافعت عن الفكرة بمن وجدته أنسب من أراء النّقاد الكبّار والمتخصصين في هذا الميدان ك:(فؤاد قنديل)، وبعض الباحثين بعد القراءة المتمعنة في بحوثهم المتعلقة بأدب الرحلة .

2- التقسيمات الشكلية التقليدية في نصوص الرحلات :

من المسلم به أنّ الرحلة نص كسائر النّصوص؛ له بنية شكلية لكن مغايرة نوعا ما عن النصوص الأخرى مثل: المقامة أو الرواية أو القصة...، وذلك بسبب طبيعة مضمونه الخاصة، والمتفردة عن سائر النصوص الّتي اعتدنا عليها وألفناها، ولعل أقوى عنصر يميزه عن غيره هو **بنية السفر** الّتي تتحكم في جميع البنى الأخرى.وهذه البنية صارت على مر التاريخ **بنية نمطية** مألوفة تقمصها العديد ممن خاضوا في مثل هذا اللون من الكتابة. والسؤال الّذي يمكن أن نجيب عليه في هذا المبحث هو: ما هي أهم التقسيمات الشكلية الّتي نهجها الرحالة القدماء في تدوين رحلاتهم؟.

كما هو معلوم أنّ الشكل أو التقسيمات الشكلية للنصوص متغيرة ومتبدلة، وهذا التبدل يخضع لطبيعة النص ومضمونه، فنص السيرة بخلاف نص الرواية وكذا مع باقي الإبداعات الأخرى، وهذا ما أكد عليه النّاقد(مرشد أحمد) في كتابه تنويعات سردية" فالشكل يتعرض للتحوير والتبدل، وهذا يتفق مع طبيعة الإبداع الّذي هو اختراع دائم."[1] فالنصوص عامة ونص الرحلة بخاصة يمكن أن تخضع لتقسيم واحد يجمعها، مع بعض التحوير.هذا التقسيم يتجلى في هذا الشكل:(بداية وسط ونهاية)، البداية عرفت بتسميات كثيرة منها: مقدمة افتتاحية، تمهيد. لكن لكل افتتاحية عناصر أساسية لا يمكن تجاوزها، وأخرى مغايرة قد تحضر في أخرى وتغيب في أخرى، حسب البنية الداخلية لكل نوع أو شكل، أو الموضوع المعالج، ويأتي الوسط أو ما يسم بالعرض، وهو جوهر النص ولبه ويمتاز بالتوسع ومعالجة القضايا وعرض الأحداث، ثم خاتمة وهي تمثل النهاية الحتمية لكل بداية ، وهي تختلف حسب اختلاف المضامين قد تكون سعيدة أو مأساوية، كما تكون خلاصة أو نتائج ، أو عبرة أو نص شعري، أو خطبة أو التعريف بقضية دينية، أو اجتماعية...يتماشى حسب ثقافة كل مؤلف والموضوعة أو التيمات المعالجة. وهذا ما سنحاول أن نبينه هنا: وممن

وجدنا أحد الباحثين يشاطرني الفكرة الّتي ذكرناها آنفا وهو الباحث(إسماعيل زردومي)إذ أكدا على توافر هذه البنى الخارجية في كل الرحلات يقول: لا تخلو يعني الرحلة " من افتتاحية وسفر فعلي يتغير معه المسرود بتغير المكان الّذي يتم فيه الاستعراض الثقافي الموسوعي المهتم بعلوم العصر...وينتهي بخاتمة تشعر بانتهاء المسرود ووصول السارد إلى غايته.[2] وهذا مذهب الكثير من النقاد منهم (ناصر عبد الرازق الموافي) حيث جعل البنية في

[1] مرشد أحمد تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة، الهيئة العامة السّورية، دمشق، دط، 2019م، ص86

[2] إسماعيل زردومي فن الرحلة في الأدب المغربي القديم –رسالة دكتوراه دولة –كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة باتنة، 2005/1426، ص 10

الرحلات أربعة أقسام هي: البنية النمطية، البنية المحورية، البنية الانتقائية، البنية التضمينية [1] ما يهمنا من بين هذه الأقسام البنية النمطية وهي المعول عليها في هذا المقام بخلاف بنيات أخرى سيأتي الحديث عنها في سياقات مماثلة.فماذا يعني الموافي بالبنية النمطية؟.

يعني عبد الرازق الموافي بالبنية النمطية " تلك البنية الّتي تتبع نمطا معتادا قريبا من صورة الرحلة الواقعية ويكون الزمان والمكان –فيها– منسقين مرتبين– حسب واقع الرحلة وبذلك تتكون الرحلة من أربعة وحدات هي:

أ– المقدمة أو التمهيد

ب– رحلة الذهاب

ت– وصف هدف الرحلة

ث– رحلة العودة والخاتمة."[2] نفهم من كلام الناقد أنّ تقسيمه خاضع لمسار الرحلة كما هي في الواقع وذلك حسب زمان الرحلة ومكانها(الزمكانية).

وهذا التقسيم الرباعي اعتمده الكثير من الرحالة العرب وقد ذكرهم(ناصر عبد الرزاق الموافي) بعد دراسة معمقة أجراها على بعض الرحلات: منها رحلة(أبي دلف) حيث قال عن هذه الرحلة الّتي خلّفها هذا الرحال أنها " عبارة عن رسالتين، والبنية الأساسية للرسالتين مختلفة تبعا لاختلاف الهدف، لذا فإنّ دراسة البنية في الرحلة تكون كل على حدة، ثم محاولة للتوفيق بينهما يكون أكثر جدوى.للوهلة الأولى يتضح أن بنية الرسالة الأولى رباعية تتكون من:مقدمة، ووصف رحلة الذهاب، ووصف لمنطقة هدف الرحلة، ووصف رحلة العودة."[3] وكذا رحال آخر رحلته لا تخرج عن هذا التقسيم الرباعي حيث يقول:" تسيطر البنية الرباعية التقليدية على رحلة سلام الترجمان الّتي تتكون من: مقدمة قصيرة، رحلة الذهاب، وصف المنطقة هدف الرحلة، رحلة العودة."[4] كما نجد ناقدا آخر قدم تقسيما يقترب من تقسيم الموافي الرباعي لنص الرحلة لكن بمنظار سردي إذ جعلها تدور بين مستويين.سمى الأول بمستويات سردية ثابتة، والثاني مستويات سردية متغيرة. حيث جعل أول هذه المستويات يضم المقطع الافتتاحي المقدمة أو التمهيد عند الموافي، المرحلة الثانية المجسدة في التعريف بالركب وأعضائه أو المرافقين للرحالة، ثم مرحلة الخروج أو مغادرة المكان الأليف، ثم تأتي مرحلة الدخول –دخول المكان – المرتحل إليه، ثم تأتي

[1] ينظر ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص 71

[2] ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص71

[3] المرجع نفسه، ص 132

[4] المرجع نفسه، ص222

مرحلة العودة الّتي تنتهي بالحمد والدعاء والدخول إلى المكان الأليف.[1] يبدو أنّ النّاقد(عبد الرحيم مودن) تقسيمه كان خماسيا كما هو موضح:

المرحلة الأولى: الافتتاحية(التمهيد أو المقدمة)

المرحلة الثانية: التعريف بالركب وأعضائه(المرافقين)

المرحلة الثالثة: مغادرة المكان الأليف(الخروج)

المرحلة الرابعة:دخول المكان المرتحل إليه(الوصول إلى مكان الهدف)

المرحلة الخامسة: العودة إلى المكان الأليف(مكان الخروج)

بعد تقديم أهم تقسيمات النقاد لبنية الرحلة؛ اتضح لنا وجود خلط بين الأساسيات والأمور الفرعية والأصل فيها أن يدرجها النّاقد تحت قسم أساسي حتى لا يتشتت ذهن القارئ؛ فيسهل عليه فهم المتن بسهولة تامة. ولكي تنجلي الرؤية وتتضح نقدم أهم العناصر أو المضامين التي اعتاد أصحاب الرحلة تضمينها في كل قسم من أقسام البنية الخارجية للنصوص الرحلية:

2. 1- عناصر التقسيمات الشكلية التقليدية في نصوص الرحلة:

2. 1. 1- المقدمات(الافتتاحيات أو التمهيدات): حاولت ذكر أهم التسميات الرائجة في الساحة النقدية والمستعملة في مثل هذه الدراسات الخاصة بدراسة الرحلات.لكن نؤكد على نقطة مهمة أنه ليس بالضرورة وجود المقدمة الافتتاحية في جميع الرحلات ولاسيما الحديثة منها؛ وهذا ما نبه إليه(حسين نصار) بقوله:" وتفتتح أغلب الرحلات بمقدمة، ولكن عددا لا بأس به أهملها."[2] كما قدم لنا عناصر مهمة تكاد تكون موجودة في أغلب الرحلات منها:[3]

- العناصر الدينية: وهي الّتي " يتبرك بها المسلمون عادة، وعلى رأسها التحميد، يليه على شيء من البعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى بعد بعيد التشهد.واختصر بعضهم على عبارة واحدة.قال(عبد الرحمن بك سامي):((الحمد لله قبل كل شيء)) والدعاء لأولي الأمر من الأمور المستحبة ذكرها في مقدمة

[1] ينظر عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد-:ص77

[2] حسين نصّار: أدب الرحلة، ص106

[3] -ينظر: المرجع نفسه، ص106 -109

الرحلة.[1]

– ظروف الرحلة: ويماثل العناصر الدينية في الكثرة الحديث عن الظروف التي قام الرحالة فيها برحلته، ودونها فيها، والعوامل الّتي دفعته إلى هذا وذاك.

– الحديث عن الأمور التي اعتنى بها الرحالة، وقصد إلى وصفها: من مشاهداته، وما تفرد به كل بلد عن بلد، وبيان مسافاته، ومعالمه، وآثاره، تاريخه...

– الحديث عن المنهج الّذي سلكه في تدوين الرحلة: كا لاختصار، والحكايات الخاصة، والوصف، واستخدام الرسوم

– اشتملت المقدمات على تاريخ الرحلات وتدوينها وتسميتها، وذكر رفقة السفر.

– الثناء على البلد المراد زيارته، والتنويه بأهمية السفر والخدمة الكبيرة الّتي يضطلع بها خدمة للإنسانية قاطبة.

.2. 1. 2– الوسط أو العرض:

هو جوهر البناء في كل رحلة، هي اللّحظة الحاسمة والمثيرة للرحّالة، هي الّتي يطلق الرحال فيها العنان لقلمه، وخياله فيبدأ يحكي وقائع قد عاشها أو صادفته في هذه المسافة(الزمكانية) قصيرة كانت أم طويلة، بحلوها ومرها.تبدأ من الساعة الصفر الأولى وهي ساعة الانطلاق إلى الساعة الصفر الأخيرة وهي ساعة الانتهاء – الوصول–نهاية وقت الرحلة والّذي لا يكون إلا بوصول الرحالة إلى هدفه الّذي أخرجه في هذه الرحلة، والّذي تنوعت مقاصده وغاياته قد يكون لأجل العلم أو لتأدية فريضة أو سنة(عمرة)، أو من أجل السياحة، أو مهمة سياحية...فالمقاصد كثيرة ومتنوعة حسب حاجة كل رحالة، وبين الزمنين الانطلاق ، وزمن الوصول هناك أحداث ووقائع عديدة ومتنوعة؛ قد يحكيها صاحب الرحلة كلها أو يستأثر ببعض منها ويسكت عنها لأنه لا يجد فيها حاجة لإعادتها، أو قد تأذيه... أرادها أن تبقى سرا بينه وبين نفسه.لذا تمثل المرحلة الوسط **مركز النص الرحلي**، وأساسه الّذي يستحيل التخلي عنه.إذا هو الرحلة بعينها؛ ويمكن لنا أن نوجز الأمور الأساسية الّتي ينبغي أن لا يغفل عنها مدون الرحلة حيث تمثل شرطا ضروريا لكل نص. أولها: التصريح بزمن ومكان الانطلاق ووسيلته والرفقة المصاحبة إن وجدت، وثانيها وصف الأماكن الّتي زارها والشخصيات الّتي التقى بها والتعريف بها، وذكر دورها الإيجابي أو السلبي لها عليه، وعلى هدف الرحلة، وآخر هذه الشروط وصف البلد الهدف وأهله.

[1] ينظر عبد الرحمن مودن الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد–، ص77

2. 1. 3– العودة، أو الخاتمة: وهي المرحلة النهائية من حياة كل رحلة مهما طالت مرحلة الرجوع إلى الوطن، والأهل، والأولاد، والأصحاب...هي مرحلة "قد ترتسم الطريق ذاته، مع اختلاف لحظات السرد...وتتسم هذه المرحلة باختلاف عن المرحلة السابقة من حيث الإيقاع السردي المتسم بالتكثيف والتلخيص والإشارة.وتنتهي هذه المرحلة، مرحلة العودة، بالحمد والدعاء والدخول إلى المكان الأليف.[1] وهذا الكلام يكشف عن الفكر البنيوي الّذي تمتع به الناقد عبد الرحمن مودن؛ لأنه مدرك أنّ "الخاتمة لا تبنى إلا وفق سياق فعل البداية، وهذه خصيصة من خصائص البنائية.[2]

2. 2– نماذج للمقارنة:

نريد من هذه الحيثية توضيح البنية الشكلية الّتي بنيت بها نصوص الرحلة القديمة، والوقوف على أهم العناصر الّتي شكلت بناء كل قسم من أقسام الرحلة، المقدمة الافتتاحية، ووسط الرحلة(العرض)، والخاتمة(رحلة العودة). لذا انصب اختياري على نموذجين من نصوص الرحلة: رحلة ابن بطوطة، ورحلة الورثيلاني.

2. 2. 1– رحلة ابن بطوطة :

2. 2. 1. 1– عناصر المقدمة في رحلة ابن بطوطة:

من العناصر الأساسيةالّتي اشتملت عليها مقدمة رحلة (ابن بطوطة)، والّتي لا تكاد رحلة من الرحلات القديمة تغفل عنه ألا وهو تلك الكلمات المنتزعة من بيئة دينية خالصة من حمد وشكر لله، والصلاة على النبي المصطفى، وعلى أصحابه الأخيار، والتشهد، وذكر للكثير من آيات الله تعالى ونعمه على العباد، في أسلوب جميل وبليغ ومسجوع أخذت ألفاظه في أغلبها من القرآن الكريم مما يسفر على الثقافة الدينية التي تمتع بها صاحب الرحلة...إلى غير ذلك.الّتي يمكن أن ننعتها ب :

–المقدمة الحمدية: يقول ابن بطوطة في مقدمة رحلته المسماة((تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)):" الحمد لله الّذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتا

[1] عبد الرحمن مودن الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد –ص77

[2] عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد –في القصة والرواية والسّرد– منشورات اتحاد الكتاب العرب، دط، 2000م، ص375

وإعادة وإخراجا.دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد...وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الّذي أوضح للخلق منهاجا...ورضي الله تعالى على المتشرفين ب الانتماء إليه أصحابا وآلا وأزواجا..."[1] بعدها يأتي:

– الدعاء والمدح للخليفة وأولياء الأمر: يقول:" ونستوهب الله تعالى لمولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله –أبي عنان فارس... نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا وسعدا يكون لزمانه الزمان علاجا، كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا، وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا...[2] ثم:

– ذكر اسم الرحال والتنويه برحلته: يقول "جوال الأرض ومخترق الأقاليم والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الّذي طاف الأرض معتبرا، وطوى الأمصار مختبرا..."[3] هذا المقطع من المقدمة ل(ابن جزي)، ذكر اسم (ابن بطوطة) والتنويه برحلته وبعظيم انجازه.

– مدح البلد وأهله الّذي استقر فيه:(المقطع لابن جزي) يذكر فيه سبب بقاء ابن بطوطة في هذا البلد دون غيره يقول:" ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا...وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب، اختيار بعد طول اختبار البلاد والخلق..."[4] ثم عنصر جديد لم نعهده في رحلات أخرى هو:

– قرار إملاء مشاهداته وأخبار رحلته: يقول:" نفذت الإشارة الكريمة أن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار وما علق في حفظه من نوادر وأخبار، وما لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار..."[5]

– ذكر كاتب ومدون رحلة ابن بطوطة: من العناصر المهمة الّتي على الرحال أن لا يغفل عليه يقول ابن جزي:" وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد ابن محمد بن جزي

[1] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار– تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1407هـ/ 1987م، ص 29، 30

[2] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار– تح: محمد عبد المنعم العريان،ص30

[3] المصدر نفسه، ص31

[4] المصدر نفسه،ص 31

[5] المصدر نفسه، ص32

الكلبي...أن يضم أطراف الرحلة."[1] يسفر القول بأنّ الخليفة أبي عنان أصدرا أمرا لكاتبه(ابن جزي) أن يدون أخبار رحلة ابن بطوطة.

– ذكر منهج وأسلوب الرحلة: ورد في الرحلة بيان المنهج الّذي نهجه ابن جزي في كتابة رحلة ابن بطوطة، كما أنّ أسلوب الرحلة يكاد –في أغلبه –يكون لابن جزي لكن المعنى يبقى لصاحبه وهذا ما صرح به ابن جزي يقول:"...متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمدا إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف، ويعظم الانتفاع بدرها...ونقلت معاني كلام الشيخ (أبي عبد الله) بألفاظ موفية للمقاصد الّتي قصدها...وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار...وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء الأعجمية..."[2].

2. 2. 1. 2– وسط الرحلة(العرض):تشكل هذا القسم من رحلة ابن بطوطة من عدة عناصر منها:

– زمن ومكان الانطلاق: هذان العنصران أساسيان يلازمان جلّ نصوص فن الرحلة، ولاسيما القديمة منها،وجرت العادة أن يصرح به في بداية هذا القسم؛ أي بعد المقدمة الافتتاحية مباشرة.وهذا ما نلمحه في نصوص الرحلة القديمة يقول ابن بطوطة:"كان خروجي من(طنجة) مسقط رئسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرون وسبعمائة."[3] وعلى هذا النهج سارت جل الرحلات الحديثة والمعاصرة، إلا في حالات نادرة يغيب ذكر هذا العنصر.

– دوافع الرحلة: تتنوع أسباب ودوافع خروج الرّحال في رحلته بين دوافع علمية ودوافع روحية، ودوافع عملية وأخرى علاجية، وقد يجتمع في الرحلة الواحدة أكثر من دافعين.لكن من بين تلك الدوافع نجد من هو مقدم على بقية الدوافع كما هو واضح في رحلة ابن بطوطة، وإن قدم دافعه الروحي لكن المتمعن في طيات رحلته يجد الدافع الّذي شده للقيام برحلة استغرقت سنين عمره أكثر من ثلاثين سنة، يدرك أنّ الدافع القوي هو حب السفر والتجوال والسيّاحة فوق وجه المعمورة، وهي فطرة الله في عباده.يقول ابن بطوطة:"...معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.[4] فدافع الّذي أخرج ابن بطوطة في رحلته الطويلة كان دافع ديني

[1] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ص32

[2] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار– تح: محمد عبد المنعم العريان، ص 32

[3] الصدر نفسه، ص33

[4] المصدر نفسه، ص33

فكانت الشرارة الّتي أيقظت العملاق النائم "حب السفر"في قلب هذا الرجل؛ ليصير ودون جدال السياحة وحب التجوال الدافع القوي في رحلته.

– **ذكر رفيق السفر**: كم أسلفنا الحديث في الفصل التمهيد عن شروط السفر اختيار الرفيق أو الرفقة الآمنة ، والمستحسن أن تكون أكثر من رفيق؛ لما فيه من التقيد بسنة المصطفى نجد صاحبنا يشق الفيافي والبحار والجبال دون رفيق يؤنسه، أو يعينه على طول الطريق يقول" منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته.[1]

– **ذكر سن وعمر الرحال**: يقول ابن بطوطة:" وسني يومئذ اثنان وعشرون سنة."[2]

– **ذكر خلفاء وسلاطين البلد**: يذكر ابن بطوطة الخليفة، الّذي شد الرحيل في زمانه، وهذا يسفر عن الجانب التاريخي الّذي تمتعت به الرحلة. يقول شمس الدين " وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين...الإمام المقدس أبي يوسف ابن عبد الحق.[3]

– **ذكر أماكن العبور ووصفها**: الرحال وهو متوجها نحو المكان الهدف لابد أن يعبر العديد من الأماكن، وهذا حدث مع الكثير من هؤلاء منهم من يكتفي بذكر البلد وتاريخ وصوله، ومنهم من يصف عمرانه وأهله وعاداتهم وتقاليدهم...تتفاوت عقول الرحالة وتختلف حسب دافع الرحلة والانطباع الّذي تركه فيه ذلك البلد؛ فهنا تظهر ذاتية الرحّال، أما ابن بطوطة فدخل الكثير والكثير من القرى والمدن والبلدان...وللتمثيل هنا نذكر أول مدينة دخلها وهي مدينة (تلمسان) حيث أخبرنا عنها أنه التقى فيها ببعض الشخصيات الحاكمة.يقول:"فوصلت تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى...[4]

– **ذكر وسيلة السفر**: يبدو أنّ ابن بطوطة لم يذكر وسيلة السفر، لكن في غمار الرحلة يذكرها ويصفها مرة بالدابة ولم يحدد جنسها يقول:" فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها...فقال لي أما إن عزمت فبع دابتك

[1] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار– تح: محمد عبد المنعم العريان،ص 33

[2] المصدر نفسه، ص33

[3] المصدر نفسه، ص33

[4] المصدر نفسه، ص34

وثقل المتاع، وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا[1]. ومرة يحدد جنسها قائلا:" واشتريت جملين لركوبي..."[2] ومن وسائل السفر ركوب البحر يقول:"ثم سافرنا من تونس في البحر مع القطلانيين، فوصلنا إل جزيرة سردانية."[3]

2. 2. 1. 3- رحلة العودة(الخاتمة): لكل بداية نهاية؛ تبدأ نهاية رحلة ابن بطوطة منذ أن أشار عليه الشيخ (برهان الدين) أن يعود إلى الصين وهو مكان الخروج قبل تمكن الفتنة منها تبدأ رحلة العودة مرورا ب(الهند)متجاوزا الكثير من المدن البلدان منها من(كولم) إلى(قالقوط) إلى(ظفار) ثم إلى(مسقط)....(فالشام) و(مصر) القاهرة إلى(تونس) نحو(سردانية) إلى(تنس) إلى(مازونة).....ثم سافرت عن(تازي) فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة...فمثلت بين يدي مولانا الأعظم الإمام الأكرم أبي عنان. "[4]

- جاء فيها الحديث عن طريق العودة(أماكن العبور): وقد سبقت الإشارة إليه.

- ذكر الخاتمة النمطية المتبوعة بالحمد ومدح أولي الأمر والدعاء لابن عنان: يقول:"والله يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه...والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى."[5]

نلاحظ أنّ البنية في رحلة العودة تشبه البنية في رحلة الانطلاقة لكن بتكثيف واختصار شديدين.

2. 2. 2- رحلة الورثيلاني :

2. 2. 2. 1- المقدمة /الافتتاحية :

وعلى منوال ما شكّل بنية المقدمة في الرحلة السابقة، مضى الورثيلاني افتتاحية رحلته مع اختلاف يسير في العناصر المشكلة، وهذا أمر طبيعي بين البشر، فالظروف تختلف وتتباين وهذا ما سنوضحه في هذا المثال:

- العنصر الديني: الملاحظ أنّ في البنية التقليدية للرحلة العنصر الديني حاضر بقوة، وبأسلوب جد راق؛وهذا إن دل فإنه يدل على براعة الرحال في الكتابة وتمكنه من لغته بشكل جيد لما تضمنته من صور صوتية

[1] ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار- تح: محمد عبد المنعم العريان، ص35

[2] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتي: رحلة ابن بطوطة –تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار- تح: محمد عبد المنعم العريان، ص712

[3] - المصدر نفسه، ص 669

[4] - ينظر المصدر نفسه، ص658 -670

[5] - المصدر نفسه، ص 714

وبلاغية. فهو يقول فيها:" الحمد لله الّذي خلق الإنسان أطوارا، وجعل الشمس والقمر والنجوم أنوار...والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم...وعلى أله وأصحابه أجمعين....و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له..."[1] نلاحظ أن العناصر الأساسية الّتي لا تغيب في كل المقدمات الدينية هي: الحمد، الصلاة على النبي وأصحابه، والتشهد.

– **ذكر أسباب تدوين الرحلة:** إن كان تدوين أخبار وحوادث رحلة ابن بطوطة كان بطلب من السلطان (أبو عنان)،أم هذه الرحلة فهي رغبة تخرج من قلب صاحبها وهذه حال الصوفي يقول:" فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والربا ع: والقفار، والديار...والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء...أنشأت رحلة عظيمة.[2]

– **ذكر مضمون الرحلة:** يقول:" فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف..."[3]فهي غنية إذا بالأخبار والأحكام الشرعية، والغرائب والعجائب مما تسفر عن وعي صوفي بامتياز.

– **مصادر الرحلة:** بالإضافة إلى الذاكرة يستعين في كتابته لهذه الرحلة بالعديد من الكتب منها كما صرح به في قوله: "...مما فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة سيما وأنّ اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا...سيدي أحمد بن(محمد بن) ناصر(الدرعي الجعفري)، هذا وإني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاج في ذكر ملوك صنهاجة ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرهما."[4] والنقل من كتب التاريخ والرحلات يثري الجانب التاريخي وبالتالي التغلب على الجوانب الأخرى، ولعل هذا واحد من الأسباب الدافعة إلى تسميتها(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار).

2. 2. 2. 2– وسط الرحلة(العرض): ويتكون من عدة عناصر هي:

– **ذكر سبب الخروج وتاريخه:** يقول " اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة وتسعين ومائة وألف(1199م)."[5] ووافق خروجنا يوم الخميس عملا بالسنة يقول:"

[1] – الرحلة الورثيلانية: الحسين بن محمد الورثيلاني، ج1، ص 14، 15

[2] الرحلة الورثيلانية: الحسين بن محمد الورثيلاني، ج1، ص116

[3] المصدر نفسه، ص16

[4] المصدر نفسه، ص16، 17

[5] المصدر نفسه، ص 17

خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن والبركة."[1]

– **ذكر مكان الخروج:** " ولما ودعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا، عازما على السفر، وجاءنا الركب من جبل الزواوة نحو الثلاثمائة رجل، واشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينة ثم إلى تونس ليذهبوا في البحر.[2]

– **ذكر الرفقة:** هذه المرة خلاف رحلة ابن بطوطة الّذي خرج وحده؛ فرفقاء (الورثيلاني) يعدون بالمئات منهم الرفقة المقربة من ذو الفضل والعلم والصلاح كما ذكرهم صاحب الرحلة " فلما كان ذات ليلة من الليالي إذ اجتمع سيدي أحمد الطيب مع أخينا في الله سيدي أحمد بن حمود وسيدي مهنا وكلهم ذوو الفضل والعلم والصلاح في دارنا فأخذوا في حديث الانتقال من الوطن فترقى بهم الكلام إلى التحدث على الحج.[3] والركب الذي جاء من جبل الزواوة نحو الثلاثمائة رجل.[4]

–**ذكر وسيلة الخروج:** الأمر بديهي وسائل السفر تمثلت في الخيول والجمال، والسفن كما هو مبين في الأقوال المقتبسة

– **وصف أماكن العبور:** أمر بديهي جد حتى يصل المسافر لمكان الهدف لابد أن يمر على الكثير من المدن والقرى.

– **مكان الوصول:** مكان الوصول كما هو مبين من أول عنصر من عناصر الرحلة ألا وهو مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج.يقول واصفا ذاك المنظر البديع والشعور الرفيع:" فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل قرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس تزهق غير أنّ سرورنا بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب والنّصب كأنّ النفوس في وليمة عظيمة..."[5]

2. 2. 2. 3– رحلة العودة(الخاتمة): أما طريق العودة تقريبا هو نفس طريق الذهاب؛ " فقد مر بالقاهرة والإسكندرية، وطرابلس وتونس، والكاف وقسنطينة، وزمورة قبل أن يحل ببلده ورتلان."[6]كما تضمنت رحلته الحديث عن الأماكن الّتي عاد عن طريقها ولوبشكل سريع؛ لأنه سبق وتحدث عنها في طريق الذهاب، كما نجده يغفل ذكر التاريخ وذكر تسمية اليوم على نقيض الرحلة السابقة مخالفا في ذلك "رحلة ابن بطوطة"، والغريب في

[1] الرحلة الورثيلانية: الحسين بن محمد الورثيلاني ، ص184

[2] المصدر نفسه، ص73

[3] الرحلة الورثيلانية: الحسين بن محمد الورثيلاني، ج1 ص19

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 73

[5] المصدر نفسه، ج 2، ص311

[6] ناصر الدين سعيدوني من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي (تراجم ومؤرخين)، ص419، 420

الأمر أنّ خاتمة رحلته ضمّنها الحديث عن أربعة مسائل شرعية هي على الترتيب: شروط قيام السّاعة، العلامات الكبرى لقيام الساعة، العلامات الصغرى لقيام الساعة، مشروعية صلاة التسابيح وكيفيتها، شعر في فضل صيام التطوع، وفقرة قصيرة تحدث فيها عن تاريخ الفراغ من نسخ الرحلة وهو يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام(1182هـ).[1]

وبعد إظهار البنية النمطية الّتي كتبت بها الكثير من الرحلات العربية القديمة، وسار على إثرها من جاء بعدهم من رواد هذه الكتابات، نلاحظ اختلاف في العناصر المعتمدة في كل قسم من أقسام الرحلة مم يفصح عن الصعوبة الكبيرة لهذا النوع من الكتابات الّذي يصعب على النقاد أن يجدوا له ترتيبا قارا يجمع نصوصه ؛ بسبب التجدد الدائم والمستمر في مضمون هذه النصوص؛ وهذا التجدد الدائم بحاجة " لأشكال جديدة تواكبه لذا كان تجدد المضمون مقرونا دوما، بتجديد في الشكل، حتى ليمكن القول بأنّ للرحلة أشكالا بعدد نصوصها."[2] وأنّ كل محاولة " لدراسة هذا النوع الأدبي لابد أن تصدم بعقلية(عدم الانضباط المنهجي) ولابد أن نعترف بها؛ لأنّ الزعم بغير ذلك ينطوي على عدم فهم حقيقي لهذا النوع."[3]

وينبغي علينا أن نذكر البنية الكبرى أو الشاملة الّتي تجمع شتات البنيات الصغرى، لولاها لصار مجرد وثائق وكتابات إنسانية وانتربولوجية لا غير؛ لأنّ كل نص "بالمعنى الانطولوجي، رحلة في الزمان والمكان، والكلمات، غير أن عملية التصنيف، على المستوى ألأجناسي تقتضي وجود البنية المهيمنة، وبالتالي المستوعبة لباقي البنيات."[4] فكل نص مهما كان نوعه أو جنسه إلا ويتضمن بنية شاملة تؤطر مفاتحه ومغالقه.[5] وهذه البنية هي بنية السفر؛ فكل نص ينتمي إلى أدب الرحلات لابد وأن " يكون نابع من بنية السفر قبل أن يكون نابع من موضوع السّفر الّذي قد يتوفر في العديد من النّصوص سواء انتمت للمتن الرحلي أو لم تنتمي إليه."[6]

وهذا لا يمنع بتاتا من الاجتهاد والبحث عن بنية شكلية تكاد تكون عناصر أقسامها مشتركة بالرغم من اختلاف مضامينها والتي تكون كما هو مبين في الشكل الآتي على سبيل التقريب :

[1] ينظر حسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، ج3، ص493 – 510

[2] – ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع هجري)، ص59

[3] – المصدر نفسه، ص47

[4] – عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد–، ص29

[5] – طعان صبحي: بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1 يوليو 1994م، ع (1، 2)، ص 436

[6] – عبد الرحيم مودن: الرحلة في الأدب المغربي –النص، النوع، السّياق –أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2006، ص6

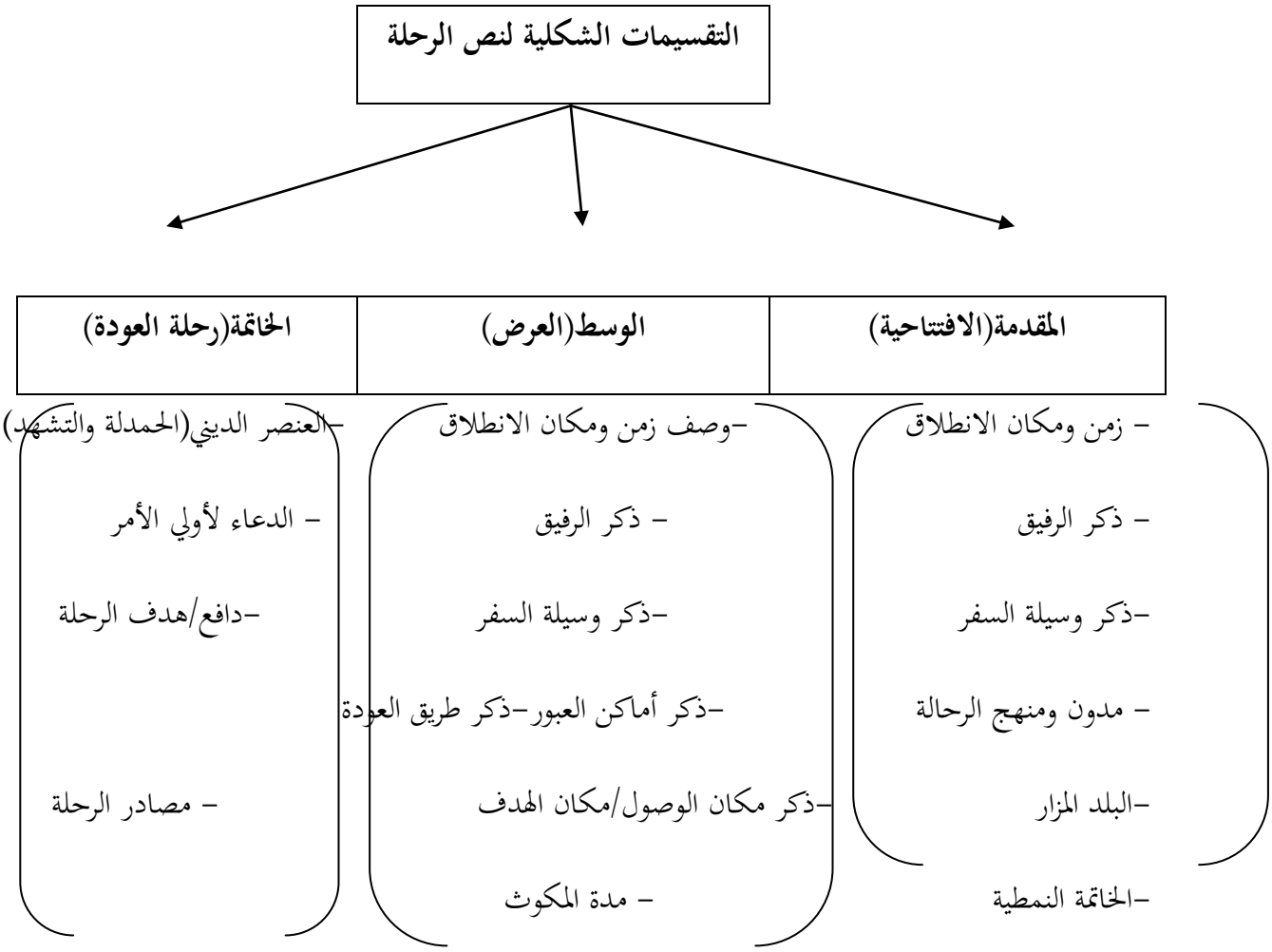

خطاطة تبين التقسيمات الشكلية الّتي نجدها تتكرر في معظم الرحلات ، خاصة الرحلات القديمة منها كما تم توضيحه آنفا في النموذجين المقترحين لأجل المقارنة(رحلة ابن بطوطة، ورحلة الورثيلاني)، فكل رحلة مهما كان زمنها لا تنفك عن هذا التقسيم : مقدمة وعرض و خاتمة ، لكن المختلف فيه هو العناصر المكون لكل قسم، وهذا راجع لطبيعة الرحلة ، ودوافعها .

3- مفاهيم عامة حول الشعرية/الأدبية:

حتى لا تتشتت أذهاننا، ونضيّع المقصد من هذه الدراسة والمتمثل في الطرح التالي:إلى أي مدى يمكن اعتبار نص الرحلة ظاهرة أدبية؟ وما هي أهم القوانين الّتي تجعل من هذا الأثر أثرا أدبيا، أم هو مجرد كتابات جغرافية علمية ووثائقية لا سبيل إلى انتمائها لفنون الأدب؟. لذا آثرنا استعمال المصطلحين بنفس المعنى لأنّ وظيفتهما البحث في جمالية النصوص على اختلافها.

يعود المصطلح في ظهوره إلى زمن سحيق مع أفلاطون ومحاوراته الشهيرة، ثم أرسطو من خلال كتابيه: فن الشعر .poetics وفن الخطابة.هي إذا نظرية عريقة، حاول صاحبيها وضع حدودا فاصلة بين الأجناس الكبرى وكشف القوانين المتحكمة في بناء النصوص الأدبية؛ لكن بقية النظرية غير مكتملة حتى العصر الحديث.

جاء النقاد الغربيين فبلوروا العديد من المفاهيم، والقضايا الّتي تدخل في التنظير لهذا العلم الحديث الّذي يدور فحواه حول البحث عن القوانين العامة الّتي تنظّم ولادة العمل الفني.كما لا ننسى التنويه بجهود النّقاد العرب القدامى في بلورة هذه النظرية الأدبية حيث تشكل روافد لا غنى عنها في الساحة الأدبية العربية لعلم الأدب لأهميتها الكبيرة، المتمثلة في عرض أهم القوانين الّتي تبنى عليها الظواهر الفنية على اختلاف أشكالها.وعلى آثارهم سار نقادنا المحدثين العرب في بناء مفاهيم الشعر العربية.

3. 1- أصول ومنابع الأدبية / الشعرية :

عند الحديث عن الشعرية / الأدبية لا مناص من العودة إلى الوراء بقرون – العصر اليوناني-لنستذكر جهود أهم شخصيتين فلسفيتين بارزتين على الساحة النقدية الغربية والعربية على السّواء؛ ألا وهما: الأستاذ وتلميذه أفلاطون وأرسطو على التوالي، وذلك من خلال نظرية المحاكاة الّتي نشأت على يد (أفلاطون)والّتي صاغ مبادئها وفق نظرته للعالم؛ الّذي قسمه إلى عالمين عالم الحقيقة المجردة- عالم المثل – وعالم الموجودات العالم الحسي أو عالم المشاهدة، ثم تكتمل بعده على يد تلميذه أرسطو.

3. 1. 1- المحاكاة عند أفلاطون :

ربط أفلاطون نظريته المتمثلة في المحاكاة بنظرة ميتافيزيقية(ما ورائية) غيبية؛ فهو يرى " أنّ ما ندركه من الأشياء يشبه ما يدركه أناس ينظرون إلى ظلال نار على جدران كهف، وقد أداروا ظهورهم إلى فتحته الّتي تتأجج

أمامها النّار؛ فهؤلاء إنما يدركون الظلال المرتسمة على جدران الكهف فيخايلونها حقيقة."[1] إذا نفهم من هذا الكلام نظرة أفلاطون لعالمنا عالم المشاهدة حيث يشبهه بالظلال، وأنّه انعكاس لعالم الحقيقة عالم المثل. ومن خلال فكره المثالي " يحدد موقفه من الفن ويعتبر أنّ الفن باعتباره محاكاة لما يوجد في الطبيعة ابتعاد عن الحقيقة؛ إذ هو محاكاة للعالم المحسوس الّذي هو بدوره محاكاة للعالم المعقول."[2] من خلال كلامه تتضح لنا النظرة السلبية له من الفن حيث يصف الفن أو الفنون(رسم، شعر، نحت، موسيقى..) بالبعد عن الحقيقة لأنها تحاكي عالم الظلال أو ما هو موجود في الواقع، وما هو موجود في الواقع هو انعكاس لما هو في المثل، بالتالي يصبح ما هو محسوس عالم غير حقيقي ومشوه، والفن على حد تصوره محاكاة لما هو مشوه لذلك نجده يقصي الشعر الّذي يحاكي ما هو غير أخلاقي من جمهوريته؛ كما اتهم الفنانين"بأنهم لا يستطيعون أكثر من خلق مرآة للطبيعة بتصوير مظهرها دون حقيقتها؛ فأقصى عن جمهوريته الشعر الغنائي، وشعر الملاحم، كما منع تداول أشعار هوميروس؛ لأنها تساعد ‘على إفساد الجيل الناشئ ولم يسمح إلا للفن الّذي يمدح بالخير ويمجد الآلهة والأبطال."[3] حكم أفلاطون على الشعر كان من وجهة نظر أخلاقية، فهو يرفض كل شعر لا يحاكي الأخلاق ولا يمجد الآلهة والأبطال.أما ما عداه فهو مطرود من جمهوريته.

3. 1. 2- المحاكاة عند أرسطو:

استخدم أرسطو مصطلح المحاكاة الّذي ورثه عن أستاذه أفلاطون استخداما مغايرا لما ذهب إليه أستاذه وربما يعود هذا الاختلاف لتباين الفلسفتين؛ فأفلاطون كان ذو نزعة صوفية غيبية، وأرسطو ذا نزعة علمية تجريبية.فهو على عكس أستاذه الّذي ذهب إلى أنّ الشاعر يحاكي أشباحا وظلالا، فهو يبتعد عن الحقيقة بدرجتين، وهذا ما دفعه أن يضع الشعراء في المرتبة السادسة مع الرسامين كما أقصى الشعر الذي يسهم في إفساد الجيل الناشئ كالشعر الغنائي، فأرسطو " جعل للشعر مقاما عليا إلى جوار الفلسفة، لأنه لم يكن ينظر إلى الشعر نظرته إلى مرآة تعكس أشباح الأشياء، وإنّما كان ينظر إليه رؤية تميط لثام الظواهر عن روح الطبيعة، وجوهر الأشياء، لتستلهم منها صورة مثالية للطبيعة ذاتها."[4] فالشاعر ليس حامل مرآة تعكس له مظاهر الأشياء الموجودة في الطبيعة " فهو يحاكي ما يمكن أن يكون لا ما هو كائن."[5] أي الشاعر في التصور الأرسطي ينطلق من الموجود

[1] – عصام قصبجي: أصول النقد العربي القديم، مطابع الأصيل، سوريا، دط، 1981، 39

[2] – أفلاطون: جمهورية أفلاطون: أحمد المنياوي، دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 2010، ص174

[3] – المصدر نفسه، ص174

[4] – عصام قصبجي: أصول النقد العربي القديم، ص51

[5] – المصدر نفسه، ص51

ليخلق عالم مثالي على عكس أستاذه، فجوهر الفن عند أرسطو هو الطبيعة لا عالم الغيبيات كأفلاطون.وثمة فارق جوهري بين محاكاة الأستاذ وتلميذه ألا وهي أنّ الشاعر عند أفلاطون كالمصور في ملاحظة مظاهر الأشياء وذهب أرسطو إلى أنّه كالموسيقي في ملاحظة معاني النفوس وكالراقص في ملاحظة الأفعال وهما لا يصوران وإنّما يعبران.[1] هذه بعض من القوانين الّتي جاء بها فلاسفة اليونان(أفلاطون، أرسطو)، يقوم عليها الفن في عمومه والأدب بخصوصيته.

3. 1. 3- الشعرية عند العرب القدماء:

المتأمل في الكتب النقديةعند قدماء العرب، يجد إسهامات رائدة في ميدان الشعريات، أو علم الأدب(الأدبية)، والّتي عرفت آنذاك بتسميات عديدة كالصياغة، السبك، النظم، الصناعة...كلها حاولت البحث في القوانين التي بفضلها تميزت الأعمال الإبداعية عن بعضها البعض، فعرف غثها من سمينها، وجيدها عن رديئها، ومن خلالها صرنا نفرق بين النصوص الأدبية وغير الأدبية...وبفضلها عرفنا الشعراء، هذا فحل وهذا مقلد، هذا من الطبقة الأولى وهذا من أدناها...من هؤلاء الّذين أطلقوا العنان لأقلامهم، وحاولوا البحث عن تلك القوانين الّتي تقف خلف هذه الإبداعات، وجمعوا شتاتها وصاغوها تحت نظرية كاملة وشاملة؛ تكون لمن أراد الخوض في مثل هذه الكتابات نبراسا يقتدوان به. والّذين أدركوا أسرار وخفاي الكلام ذو السمات الجمالية والشعرية الّتي تأثر في النّفوس: الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني...وغيرهم.لكن أقتصر على هؤلاء منوها بأهم أعمالهم، لأنّ المجال لا يسمح بذكر كل ما قدموه خدمة للعربية عامة، وللشعرية والأدبية خاصة:

- الجاحظ(255هـ):ترجع المحاولات الأولى له حين حاول تحديد مفهوم للشعر، وتبيين الطريقة المثلى الّتي ينبغي أن ينتهجها أهل هذه الصناعة، وله في هذا الباب كلام جميل جدا قال فيه:" المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي، والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنّما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التصوير.[2] الواضح من كلامه أنه يقدم اللّفظ على المعنى، ويجعل مركز شعرية الكلام تدور حول اللّفظ، لأنّ المعاني معروفة لدى العام والخاص، لكن الشأن في طريقة تقديم تلك المعاني وإخراجها، والفائدة الّتي نخرج بها أنّ ما توصل له الغرب والعرب المحدثين لا يخرج عن دائرة ما توصل النقاد القدامى.

---

[1] ينظر: عصام قصبجي: أصول النقد العربي القديم ، ص 53

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج 3، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الباي الحلي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ/1965م، ص131، 132

– الجرجاني(471هـ): لـه إسـهامات رائـدة في مجـال الشـعرية العربيـة ولمـن أراد الاسـتزادة عليـه بالرجـوع إلى كتابيه(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز). ومن نظرياته الّتي لها صدى قويا في ميدان علم الأدب نظرية النّظم الّتي استوحاه من بيئة قرآنية خالصة وبخاصة إعجازه يقول معرفا نظريته:" اعلم أنّ ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه(علم النحو)، وتعمل على قوانينه، وأصوله، وتعرف مناهجه الّتي نهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم الّتي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها."[1] في موضع آخر يتمم ما جاء به في نظريته قائلا: " ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، تلاقت معانيها، على الوجه الّذي اقتضاه العقل."[2] ويعلق على هذه النظرية أحد النقاد قائلا أنّ الجرجاني: " انتهى به البحث إلى أنّ الجمال ليس في اللفظ أو في المعنى، وإنّما هو في نظم الكلام أي في دقة العبارة عندما تؤدي وظيفتها على أفضل ما يمكن." [3] نفهم من هذا أنّ (الجرجاني) يبعد سر جمال الكلام أو إعجاز آي القرآن باعتباره أنه بحث في سر إعجاز القرآن عن المعنى واللفظ، وجعلها في طريقة نظم الكلام.والّتي لا تتحقق حتى تتناسق الدلالة، وتوائم اللفظة الأولى الّتي تليها.نحو: تواؤم لفظة علم مع كلمة نور لأنّه لو وضعنا كلمة أخرى مكانها لمجا الكلام وبطلت دلالته، لو قلنا مثلا العلم قمر؛ هذا لا يصح لأنّ القمر اعتاد العرب وضع كلمة القمر لوصف شيء جميل مثل وجهه كالقمر.

– حازم القرطاجني:(684هـ): قبل أن يكون ناقدا؛ فهو شاعر وأديب أندلسي، أهم مؤلفاته الّتي بلغ صيتها الأفاق كتاب(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) عالج فيه أهم القضايا المتعلقة بالشعر، والبلاغة. هي محاولة منه ليعالج الضعف الّذي مس هذه الصنعة، فاجتهد ووضع كتابا شهد إقبالا كبيرا عليه؛ لما فيه من القضايا النقدية التي استعصت على التنظير حتى في العصر الحديث.من بين القضايا الّتي تلقيتها بالقبول والإعجاب هي رده على النّقاد الّذين ظنّوا أنّ الشعر كلام موزون ومقفى، وأنهم بمجرد كلام خضع لوزن، وقيد بقافية هو من قبيل الشعر فإنّ" مثله في ذلك مثل أعمى آنس قوما يلتقطون درا في موضع تشبه حصباؤه الدر في المقدار والهيئة والملمس فوقع في يده بعض ما يلقطون من ذلك فأدرك هيئته ومقداره وملمسه بحاسة المس، فجعل يعني نفسه في لقط الحصباء على أنها در، ولم يدري أنّ ميزة الجوهر وشرفه إنما هو بصفة أخرى غير الّتي أدرك، وكذلك ظن هذا أنّ الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع، وإنّما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنّفاذ به إلى قافية، فلا

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز تعليق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1413هـ/1992م، ص81

[2] المصدر نفسه، ص49، 50

[3] وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر سوريا، ط1، 1403هـ/1993م، ص173

يزيد بما يصنعه من ذلك علة أن يبدي عن عواره، ويعرب عن قبح مذاهبه في الكلام وسوء اختياره."[1] أسفر قول ابن حازم عن رؤية استشرافية؛ تكشف عن حسه النقدي الوقاد، في بيان خضوع صناعة الشعر لقوانين يحتكم إليها، تضمن له شعريته، وليس نظم الكلام كيفما جاء، كما يسفر القول أنّ (حازم) استخدم لفظ الشعرية بنفس المفهوم، الشائع في الدراسات الحديثة لكن بنظرة أضيق من نظرة النّقاد المحدثين إذ جعلوا الشعرية شعريات وليست خاصة بالشعر فقط.

3. 2- الأدبية / الشعرية في العصر الحديث:

بعد التنويه ببعض جهود الفلاسفة اليونان، ونقاد العرب الأقدمين نروح لتناول هذين المصطلحين بمنظار حديث، وأهم المفهومات الّتي سيقت حول هذين المصطلحين، وبيان نقاط التقاطع والاختلاف بينهما، وإن كانا المفهوم العام الّذي يجمعهما، هو البحث في جمالية الإبداع والتركيز على ما يجعل ظاهرة فنية ما ظاهرة جمالية متفردة بخصائصها النّوعية والذّاتية.

أحاول الاختصار قدر الإمكان على أهم المفاهيم لهذين المصطلحين من البيئتين الغربية والعربية على التوالي؛ لنخرج بتعريف موحد في الأخير.

3. 2. 1- عند الغرب :

مع ظهور المدرسة الشكلية بُدئ ببلورة مفاهيم كلية لدراسة الأعمال الأدبية، وُسمت هذه المفاهيم بالشعرية poiticsآملة منها أن تصبح نظرية موضوعية؛ كونها تدرس النّص وحده، ونوع الدراسة تتركز في كشف القوانين المتحكمة في العملية الإبداعية، وهو مفهوم كما بيّنا من قبل؛ أنّه ظهر مع المدرسة اليونانية وبخاصة أرسطو.ولعل أول رواد الشعرية في العصر الحديث مؤسس اللسانيات العامة:

- رومان جاكبسون(1896، 1982م)Roman jakbson): يعتبر من الأوائل المنظرين للشعرية انطلاقا من ذهنية لغوية لسانية بحيث عدها فرع من علم اللسان، ومنه تكتسب موضوعيتها وشرعيتها كعلم، كما وسع نطاقها بجعلها تهتم بالوظيفة الشعرية في الشعر وخارج الشعر،ودليل هذا يظهر في كتابه (قضايا الشعرية) عندما وصفها بذلك " الفرع من اللّسانيات الّذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقاتها مع الوظائف الأخرى للّغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية لا في الشعر فحسب حيث تهيمن هذه الوظيفة على

[1] أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، محمد الحبيب بن الخوجة، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط3، بيروت، 1986م، ص23

الوظائف الأخرى للغة.وإنما تهتم بها خارج الشعر حيث تعطي الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية."[1] ويعلق على هذا الكلام النّاقد (يوسف إسكندر)منوها: بأنّ " موضوع الشعرية poetic على وفق ياكبسون ليس الشعر بل الشاعرية poeticity؛ أي الخصائص النّوعية المميزة للّغة الشعرية."[2]

– جون كوهنjohncohen(1919م، م1994): يعرف اللّغة الشعرية بأنّها "انحرافا عن قوا قانون الكلام."[3] أي مدار اشتغال شعريته اللغة الخارجة عن العادة ومألوف الكلام: والّتي نعتها باللغة الشاذة في قوله: هي" دراسة للصيغ اللّغوية الشاذة."[4] وهذا الشذوذ على حد تعبيره "هو الّذي يكسبها أسلوبا، فالشعرية، هي علم الأسلوب الشعري.[5] نفهم من كلام جان كوهن أنّ الشعرية عنده هي علم الأسلوب.

–جيراردجينيت(Gérard Genette): يعرف جيرارد جينيت الشعرية بقوله:" ليس النّص هو موضوع الشعرية بل(جامع النّص) أي مجموع الخصائص العامة أو المتعالية الّتي ينتمي إليها كل نص على حدة، ونذكر من بين هذه الأنواع، أصناف الخطابات، وصيغ التعبير، والأجناس الأدبية."[6] حصر (جيرارد جينيت)موضوع الشعرية في مجموع الخصائص العامة أو المتعالية، أو ما يسميه بجامع النّص." ويلاحظ أنّ مفهومه ينحصر في وجهة تنظيرية شاملة على مستوى الأجناس الأدبية وصيغ التعبير وأصناف الخطابات."[7]

– تزفيتان تودوروف(Tzveten Todorov)(1939م، 2017): لهذا النّاقد العديد من الأعمال الّتي تدخل في صلب مقاربة مصطلح الشعرية منها: شعرية النّثر، مقدمة الشاعرية، الشعرية...من بين المفهومات الّتي قدمها لنا تودوروف أنّها " تسعى إلى معرفة القوانين العامة الّتي تنظم ولادة كل عمل...تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته فالشعرية إذن مقاربة للأدب(مجردة) و(باطنية) في الآن نفسه...هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقي، بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى تعنى بتلك الخصائص المجردة الّتي تصنع فرادة الحدث الأدبي أي الأدبية."[8] هو لا يخرج في تعريفه للشعرية عن المفهوم الّذي أتى به أرسطو، غير أنّ الجديد فيه نعته للشعرية بالعلم والأدبية و بالأدب الممكن، وهو يرى أنّ كل المحاولات المبذولة من أجل معرفة قوانين العملية الإبداعية ما هي إلا

[1] جاكسون رومان، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي، ومبارك حنان، دار توبقال، المغرب، 1988م، ص35

[2] يوسف اسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة – الأصول والمقولات – دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2008م، ص.32

[3] جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986م، ص105

[4] جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي، محمد العمري، ص49

[5] المصدر نفسه، 15

[6] جيرارد جينيت، مدخل لجامع النص، تر: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دط، 1985م، ص05

[7] حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص 34

[8] تزفيطان تودوروف، الشعرية، تر: بكري المبخوت، رجاء سلامة، دار توبقال، المغرب، ط1، 1987م، ط2، 1990 م ص23

تأويلات لنظرية سابقة تعود لزمن سحيق قدر بحوالي أربعة قرون قبل الميلاد(4ق م) هو قرن أرسطو يقول تودوروف:" لقد ترك لنا أرسطو أول كتاب منهجي، وليس هناك أي نص آخر يمكن أن يقارن بكتاب(فن الشعر) نظرا لقيمته التاريخية، وبشكل من الأشكال، فإنّ كل تاريخ لدراسة الشعرية ليس سوى إعادة تأويل للنّص الأرسطي."[1] كلام خطير حيث يجعل ما أنجزه النقاد طيلة قرون مجرد تأويلات واجترار لما جاء به أرسطو، وهذه نظرة تحقير وازدراء وإنقاص من شأن التنظير الغربي والعربي لعلم الأدب.

أحاول عرض بعض المفاهيم الّتي قدمها نقاد الغرب لهذا المصطلح(الأدبية)، أولهم الشكلانيون الروس الّذين كان هدفهم البحث " في الخصائص الّتي تجعل من الأدب أدبا بالفعل، ولخصوا هذه الخصائص في مصطلح واحد سمّوه الأدبية."[2] وأول من أبدع هذا المصطلح رومان جاكبسون سنة(1919م) وعرفه بقوله: موضوع علم الأدب ليس هو الأدب، ولكن الأدبية (littérarité) أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا.[3] ويورد (سعيد يقطين) قولا يكشف العلاقة بين الشعرية والأدبية يقول: " نادى الشكلانيون أولا بضرورة ميلاد علم جديد للأدب هو البويطيقا كمقابل لبويطيقا أرسطو، وموضوع هذا العلم سوف لن يكون الأدب كمفهوم عام، ولكن أدبية الأدب."[4] من هنا تتجلى لنا العلاقة بين الشعرية كعلم، والأدبية كموضوع لهذا العلم؛

اقتفى تودوروف أثر ياكبسون وجعل من الأدبية موضوعا للشعرية؛ أي هي تلك " الخصائص المميزة المتفردة الّتي تجعل من الأدب أدبا، وجعل من هذه الخصائص موضوعا للشعرية."[5] كما يسميها بالأدب الممكن في مواضع أخرى من كلامه قد سبق ذكرها في القسم المخصص بنقاد الغرب.

3. 2. 2- عند العرب:

والمتأمل في تعريفات النّقاد المحدثين لهذين المصطلحين، يجدها لا تبتعد عن التّعريف الشّائع منذ أربعة قرون مع فلاسفة اليونان والّذي مداره تشخيص " قوانين الخطاب الأدبي وهذا هو المفهوم الشائع والمستكشف منذ أرسطو وحتى الوقت الحاضر."[6] ومختصر الكلام أنّ كل محاولة لتقديم مفاهيم لهذين المصطلحين مجرد اجترار

---

[1] محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية – الفلاسفة والمفكرون العرب ما أنجزوه وما هفوا إليه، الدار العربية للكتاب، تونس، ص10

[2] حميد لحميداني، بنية النّص السردي من منظور النّقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ص11

[3] ينظر سمير بن نابت مفهوم الأدبية في النقد المغربي القديم، مذكرة الماجيستير، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة 2012/2011م، ص15

[4] سعيد يقطين تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت /الدار البيضاء، ط3، 1997م، ص13

[5] باية بن مساهل، أدبية الخطاب النثري في كتاب إحكام صبغة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2016م/2017م، ص31

[6] حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، ص5

وتكرار، وصياغة جديدة لما جاءت به المدرسة اليونانية، والعربية القديمة ثم الغربية، لكن مع شيء من التوسع. من هذه المفاهيم نذكر اجتهادات(حسن ناظم) في تقديم مفهومات للشعرية والأدبية على غرار المدرستين اليونانية والغربية يقول:" فمادامت الشعرية ومن بين مهامها الأساسية تستنبط الخصائص المجردة في الخطاب الأدبي، وهذه الخصائص هي الّتي تضفي على الخطاب أدبيته، أي أنّ الخصائص المجردة هذه هي اختصارا الأدبية ذاتها؛ فالشعرية اختصارا تستنبط الأدبية في الخطاب، ولهذا تكون علاقة الشعرية بالأدبية علاقة المنهج بالموضوع على التوالي."[1] فقد استطاع ناظم بحسه النقدي المرهف والنافذ أن يقدم تعريفا شافيا وكافيا، جمع فيه بين مفهوم الشعرية والأدبية والعلاقة القائمة بينهما والمتمثلة في علاقة المنهج بالموضوع. وفي موضع آخر يصرح بعلاقة الأدبية بالشعرية يقول:" الأدبية إذن مفهوما مواز لمفهوم الشعرية في أهدافه، وإلى حد ما في طرائقه.[2]

أما (عبد السلام المسدي) فقدم تعريفا أصب به لب الموضوع لا يبحث لعاقل وراءه وبه أكتفي؛ لأن جل التعريفات تكاد تكون متشابهة إلا من حيث العلاقة، والّتي أقف عندها بعد هذه الفقرة يقول هذا النّاقد مجيبا عن سؤال ما الأدبية: " هو لفظ وليد النّقد الحديث يطلق على ما به يتحول الكلام من خطاب عادي إلى ممارسة فنية إبداعية، ويختص هذا المصطلح أحيانا بصنعة علمية فيطلق على وجه من المعرفة الإنسانية قد تتبلور يوما ويكون موضوعها(علم الأدب) ومدار هذا العلم الافتراضي تحديد هوية الخطاب الأدبي في بنيته ووظيفته مما يبرز النواميس المجردة الّتي تشترك فيها كل الآثار الأدبية."[3] استطاع الناقد (عبد السلام المسدي) من خلال هذا القول أن يلم شتات هذه النّظرية، الّتي لم تكتمل معالمها إلى اليوم كي تصل إلى درجة العلم، فنجده ينعتها بالعلم الافتراضي، كأنه يجزم استحالت أن تصير نظرية علمية، لكن الأجمل ما في القول؛ أنّه استطاع أن يوحد بين المصطلحين؛ إذ الأدبية في نظره هي تلك الخصائص المجردة الّتي يتحول بها الخطاب العادي إلى خطاب أدبي يرقى إلى مصاف الأدب أي الأدبية، ثم يقول أنها تطلق على تلك المعرفة الّتي هدفها تحديد هوية الخطاب الأدبي وذلك بالوقوف على خصائص الخطاب الأدبي، وزبدة الكلام أنها الموضوع والعلم في نفس الوقت.

والخلاصة الّتي يمكن الخروج بها من هذا العرض الموجز، لبعض المهيئات لهذا العلم من العصر اليوناني، مرورا بإنجازات النقاد القدامى، وعلى منوال النقاد الغرب سعى نقادنا للملمة شتات كل هذا وإسقاطه على آثارنا الأدبية؛ للوصول إلى تحديد أدبية النصوص، كما حاولت استنباط نواميس عامة للظواهر الأدبية.أما عن علاقة

[1] حسن ناظم، مفاهيم الشعرية ن ص36

[2] حسن ناظم، مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم)، ص 36

[3] عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، دت، ص132

الأدبية بالشعرية؛ فقد تمثلت في أكثر من علاقة: أولها علاقة ترادف كما تظهر عند(رومان ياكبسون)، وثانيا علاقة المنهج بالموضوع وعلاقة توازي وهذا ما جاء به حسن ناظم، وعلاقة تعالي كما تظهر عند عبد السلام المسدي.

4- أدبية/ شعرية نصوص الرحلة:

منذ بدأ تدوين هذا النّوع من الكتابات، لم يكن يهتم أصحابه بطريقة تدوين رحلاتهم، ولا بأسلوبها، ولا كل ما هو متعلق بالأدب بقدر ما كان تركيزهم على وصف مشاهداتهم وانطباعاتهم من الأماكن المرتحل إليها ووصف عادات وتقاليد الآخر، أو باختصار وصف المحتوى(الإثنوجرافي) لتلك البلدان، وهذا لا يعني خلوها من مسحة أدبية عن وعي من صاحبها أو دون وعيه، لكن لم ترقى إلى مصاف الأدبيات؛ استوقفني عند هذه النقطة كلام جميل لأستاذي(عيسى بخيتي) يعلق فيه عن أسلوب كتب السّفر، أو ما كان يعرف بالأدب الجغرافي آنذاك قائل: "(ولم تكن هذه الجوانب الّتي تمثل الصور الأدبية في الحياة القديمة، إلا ضربا من حاجات نفسية شكّلت أدبا لا واعيا يتنفس من خلاله الإنسان دون أن يؤسس لقيمته المعاشة، حيث كانت درجة هذه القيمة ثانوية، في مقابل دوافع السّفر وأهدافه ذات المقاصد المحسوسة...وبعبارة أخرى، لم تخص الرحلة الأدب في أول الأمر بل انحصرت دائرتها لتشمل جوانب الحياة النّفعية المختلفة، اجتماعية، وسياسية، واقتصادية وثقافية وهلم جر، وأهملت الجوانب الفنية الّتي كانت تأتي اعتباطا)".[1]

يمثل القرن السادس الهجري العصر الذهبي للرحلة، أو عصر دخول الرحلة إلى عالم الأدب، ولعل أهم الرحلات الّتي وقّعت على هذا الهدف، رحلات كل من(ابن عربي ثم ابن جبير) وذلك بتذويت الخطاب الرحلي ، ومن هنا حققت الرحلة أدبيتها، ودخلت حيز الفنون.[2] ولإثبات هذه النقطة تستأنس بكلام الناقد (حسين محمد فهيم)، وذلك عند حديثه عن العنصر الأدبي من جمال الصياغة، وحسن الأسلوب، ورقة اللّفظ في رحلة (ابن جبير) يقول:" ولم يقتصر وصف ابن جبير للمدن على المحتوى الإثنوغرافي والمنهج، وإنما برز أيضا العنصر الأدبي متمثلا في جمال اللّفظ وحسن التعبير على النّحو الّذي ورد مثلا في وصف مدينة دمشق."[3] فقد دلّل الناقد على كلامه من مقطع من رحلة (ابن جبير) في وصفه لمدينة دمشق، ليثبت الجانب الأدبي في رحلته يقول:

" جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام الّتي استقريناها، وعروس المدن الّتي اجتلبناها قد تحلّت بأزهار الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت منصتها أجمل تزيين..."[4] إلى آخر كلامه.لغة راقية، وألفاظ معبرة، وأسلوب رصين...يشعر من

[1] ينظر عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (سياق النص، وخطاب الأنساق)، ص4

[2] ينظر المرجع نفسه، ص4

[3] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1989م، ص14

[4] المرجع نفسه، ص 14

يقرأها بمتعة ولذة.

وقد تكلم هذا النّاقد كثيرا عن الأسباب الّتي شكّلت أدبية الرحلة، وجعلتها محطة إعجاب من قبل الدارسين يقول:" لقد وجد الدارسون أنّ ما تركه الرّحالة من كتابات قد احتوت على الكثير من الملامح الأدبية ، والنواحي الجمالية الّتي برزت في اختيار الألفاظ، وحسن الأسلوب، وجمال التعبير، ولهذا أصبحت كتابات الرحال مجالا للتحليل الأدبي إضافة إلى كونها سجلا إثنوجرافيا ا هاما، وعلى هذا الأساس، فنحن نرى الرحالة كأدباء وإثنوغرافيين معا."[1] ويظهر هذه الطرح الأبي في طريقة عرض هذه المادة الّتي احتوتها الكتب الّتي صنفت في السفر، والمتمثلة في أحوال النّاس والمجتمعات، من عادات وتقاليد، وطقوس، وشعائر وثقافة...بأسلوب أدبي يبعث المتعة واللّذة في القارئ ليتابع قراءة نص الرحلة.ومنه يمكن أن نعتبر أدبا: "كل ما يمكن أن يعطي متعة واعية."[2] وقد فصّل في هذا الباب ووضعت معاير نميز من خلالها بين الفنون وما ليس بفن وهي كالتالي:[3]

4. 1– ما يدخل في دائرة الفن: يمكن حصر المتون التي تدخل في دائرة الفن كما هو مبين :

1 – ما عبر عن انطباعات المؤلف رحلة فنية

2– ما حمل آثار شخصية المؤلف رحلة فنية.

3– ما قصد إلى الإمتاع والتشويق رحلة فنية.

4. 2– ما يخرج عن دائرة الفن:

1–الرحلات الّتي كتبها العلماء للتزود من العلوم الّتي تخصصوا فيها مثل: علماء الحديث والجغرافيا والتاريخ والنبات والصيدلة، ماعدا فقرات منها أحيانا.

2 – الرحلات الّتي قام بها العلماء طلبا للعلم، واقتصروا فيها على ذكر من التقوا به من العلماء، والعلوم الّتي تحاوروا فيها، والكتب الّتي قرؤوهاعليهم.ما عدا بعض الاستطرادات الشخصية.

3– الأجزاء الّتي وصف فيها الرّحالة الطرق، والعمائر، وما ماثلها وصفا جافا مباشرا، لا يستهدف غير المعرفة، وإن كانت هذه الأجزاء في رحلات فنية.

[1] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،ص7، 8

[2] مجموعة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية: تر : طاهر حجاز، دار طلاس للدراسات والترجمة، والنّشر، دمشق، ط1، 1985م، ص20

[3] – حسن نصّار، أدب الرحلة، ص 131

هذه بعض المعايير الّتي يمكن أن نميز بها العمل الأدبي عن غيره؛ أما إذا نحن تأملنا هذه المعايير الثلاثة وجدناها تصب في قالب واحد هو ذاتية الكاتب وحضورها في نصه، وقد أكد الكثير من النّقاد على ذلك منهم: (محمد زكي العشماوي)حينما صرح بأنّ " الذاتية شرط أساسي لتفوق الفنان وامتيازه، وبلوغه درجة الأصالة الّتي هي سمة من سمات الابتكار والإبداع في العمل الفني."[1] وعلى غرار هذا الكلام سار (عبد الله الركيبي)مؤكدا هذه الفكرة بقوله:"...فإذا اعتنى الرّحالة بتصوير شعوره بوصف ما شاهد أو حاول استخلاص فكرة معينة؛ فإنّ رحلته حينئذ تدخل في مجال الأدب لأنه ينفعل، ويتأثر، ويصور لنا هذا من خلال عمله الأدبي، ولكن حين يصف الأشياء بنوع من التجرد فهنا يصبح مؤرخا لا أديبا؛ لأن حظ الخيال في رحلته يكون قليلا."[2] ولن يتأتى ذلك إلا بالحضور الدائم لشخص الرحال في رحلته.فإذا تحققت هذه الشروط الذاتية، وحضور الراوي كشخصية رئيسية في رحلته ما بوسعنا إلا أن نقول بأنّ "الرحلة كتابة أدبية بلا جدال."[3] ويضيف النّاقد(سيد حامد النساج) كلام يعزز من أدبية الرحلة يقول:" ومنهم(يقصد الرّحالة) من ينقل الصور والمشاهد على نحو يحقق التأثير الوجداني، أو ينقل الأحاسيس والعواطف الّتي يجدها في نفسه من يجتلي تلك المشاهد والآثار والصور، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلا من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود."[4] .

وتتأتى أدبية الرحلة من خلال استعانة الكاتب " بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللّفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة علاوة على ما قد يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي سلس، مشرق، وهذا هو الّذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي."[5] هذا القول على بساطته يختزل الكثير من القوانين الّتي تقوم عليها أدبية النّصوص، وإن أشار لبعضها لكن يمكن أن نصنفها إلى مجموعتين؛ الأولى الجمال الفكري ؛ويضم جميع التضمينات والاقتباسات الّتي يلجأ إليها الكاتب لإثراء وتوسيع من متن رحلته، وهو ما يشعرنا ما بين الفينة والأخرى بلذة ومتعة، بالإضافة إلى الفائدة والخدمة الّتي يقدمها للرحلة.كتدعيم لرأي أو إثبات قضية.أما الجمال الثاني فيتمثل في جمال الشكل والصياغة نحو الصور البلاغية والصور النحوية والصرفية، والصورة الصوتية(العروضية).**5**

[1] محمد زكي العشماوي، قضايا النّقد الأدبي – بين القديم والحديث، دار النّهظة العربية، بيروت، دط، 1979م، ص 9

[2] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009م، 56، 57

[3] أحمد المديني، الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية، دار الصدى، دبي، ط1، 2014م، ص 11

[4] سيد أحمد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديما وحديث)، مكتبة غريب، القاهرة، دط، دت، ص 7

[5] المرجع نفسه، ص 8

5- البنية السردية في الرحلة:

إذا تكلمنا عن السّرد، فنحن نتكلم عن فعل ليس له حدود، لشموليته وسعته؛ فهو " يشمل كل ما روي عن السالفين من أقوال وأفعال، أو قصص أو حكايات، وأخبار في كل المجالات والموضوعات."[1] و لما كان السرد بهذه السعة والشمول فحتما تتنوع وتتعدد أوعيته ومصادره الحاملة إياه منها:" الأساطير والخرافات والأخبار، وأيّام العرب، وقصص الأمثال والأسفار، وفي القرآن الكريم، وأحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم، ونجدها في أدب الرحلات..."[2] وغيرها وهذا الأخير هو موضوع حديثنا وعمدة بحثنا، فأدب الرحلات ونظرا للمرونة الّتي يتميز بها، وقابليته الّتي تسمح باحتواء العديد من العلوم مثل: الجغرافيا، التاريخ، الاقتصاد، السيّاسة، الدين، السير..."يشكل ثروة معرفية كبيرة، ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش، مما التقطته عيون تتجول، وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يسلم بالأشياء، ويحلل، ويراقب الظواهر ويتفكر بها."[3] وهذه الثروة المعرفية الكبيرة الّتي تمتعت بها متون الرحلات على اختلاف أنماطها لخير دليل " على التهمة الّتي طالما اتهم بها هذا الأدب؛ ونقصد تهمة قصوره في فن القص."[4]

وبعد تدليلنا بشكل مختصر على أنّ فن الرحلة ينتمي إلى فن القص، والحقيقة هو أمر بديهي لا يحتاج منا إلى برهان؛ لأنه قد سبقا لنا وأن تحدثنا عن أدبية الرحلة، وهذا دليل كاف على انتماء هذا النوع من الكتابة إلى حقل السّرد، وإذا تم التسليم بأدبية الرحلة؛ فهو الإقرار بتوفر في هذا النص – نص الرحلة – " على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي."[5] ولكن لكل شكل من أشكال السّرد العديدة خصوصية تتفرد بها عن باقي السرود الأخرى، يتم وفقها عرض الحكاية، وكذلك الرحلة باختلاف أنماطها تتفرد بأشياء منها حضور الرحال في رحلته وواقعية الرحلة، ووصف السّفر من موضع إلى آخر، ووصف كل مشاهداته، من بلدان، وسكان، وكل ما وقعت عليه عينه طول مسافة الطريق، كما ينقل لنا أخبار وعجائب الأسفار.بعد أن يلبسها لباسا ذاتيا، مما يدخلها في دائرة الأدب، وقد يجردها منها فتصبح أخبارا تعوزها لذة القراءة، وبالتالي تبتعد عن دائرة الأدب، وكل هذه الأمور تتحقق بفعل السّرد؛ فالسّرد إذا " هو العنصر الأساسي

[1] إبراهيم صحراوي، السّرد العربي القديم (الأنواع والوظائف والبنيات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 1429هـ/2008م، 37

[2] المرجع نفسه ص، 37

[3] محمد الخضر وآخرون، ة خمس رحلات إلى الجزائر (1904/1932م)، دار السويدي للنّشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، /المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الرئيسي، بيروت، ط1، 2004م، ص 09

[4] سيد حامد النّساج، مشوار كتب الرحلات (قيما وحديث)، ص05

[5] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، كتابات نقدية)، ص40

الّذي يتم عبره نقل تجربة السّفر، وأن نسرد الرحلة معناه أن نحول هذه التجربة إلى كتابة شاهدة عليها، ومقيدة لفعلها، وحامية لها من آفة النسيان."[1]

5. 1– مقومات السرد:

عندما نقول سردي؛ فهذا يعني حكاية أو قصة أو مادة حكائية تُنقل إلينا بواسطة راوي(المؤلف)؛ إذا كنا نقرأ ولا نسمع، وهذه الحكاية كي تصل إلينا لابد من طريقة يسلكها القاص /الراوي ليوصل لنا موضوع هذه الحكاية، وهذا ما قاله سعيد يقطين "يتشكل أي نص سردي أو حكائي من(مادة حكائية) و(طريقة للحكي)،كما غدا ذلك معروفا، ومتداولا نتيجة التطور الّذي حققته السرديات."[2] يقتضي المقام هنا توضيحا أكثر لهذين العنصرين الّذين يقوما عليهما السرد أولهما :

5. 1. 1– الحكاية:(المتن الحكائي): أو قصة السّفر في أدب الرحلة؛ ومعناه مجموع الأحداث الّتي يتولى القاص أو الرّوي نقلها إلينا عن طريق آلية السرد؛ إذا " الحكاية ليست عنصرا فنيا بل مادة سابقة على الأدب ومفهومها يعني عرضا تداوليا لما وقع، وتحكى من قبل طرف آخر هو السّارد وفق آليات صياغة، تسهل عليه عملية حكيها وهذا يعني أنّ السّرد بناء جمالي."[3] أي هي الموضوع والأحداث المصاحبة له الّتي تُنقل إلينا وفق قناة السرد. وهي المادة الأولية الّتي يقوم عليها أي محكي. كموضوع الحج في الرحلات الحجية، وطلب العلم من حضور ندوة أو ملتقيات.. في الرحلات العلمية وهكذا...

5. 1. 2– طريقة الحكي(المبنى الحكائي):هو الكيفية الّتي يقدم بها السّارد تلك المادة الحكائية، أو القالب الّذي يفرغ فيه السارد مادته ليوصلها للمتلقي، أو هي " الطريقة الّتي تحكى بها تلك القصة، وتسمى هذه الطريقة سردا؛ ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة."[4] والسّرد يقتضي التتابع والتسلسل في تقديم الأحداث.والرحلة على حد تعبير أحد النّقاد الأخت الشقيقة للرواية والقصة، لما تحفل به من المقومات الأساسية لفن السرد " من فكرة رئيسية، وبناء، وحبكة، وبنية زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة، والأسلوب...والشخصيات أدّت دورها واقعيا، وبطلها الرّحالة نفسه."[5] إذا نفس البنيات السردية في

[1] أحمد يوغلا: الرحلة الأندلسية –الأنواع والخصائص–، دار أبي، رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2000م، ص 134

[2] سعيد يقطين، الرواية والتراث السّردي (من أجل وعي جديد) المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م ن ص70

[3] مرشد أحمد تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة، الهيئة العامة السورية، دمشق، دط، 2019م، ص 18

[4] حميد لحميداني بنية النّص السّردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطّباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991م، ص 45

[5] فردوس أحمد بت، (أهمية أدب الرحلات من النّاحية الأدبية، مجلة اللغة، مجلة أدبية، فكرية، محكمة)، جامعة الهند، الكتاب الثاني، ع2، يناير مارس/1437هـ 2016م، ص21

خطاب الرواية، نجدها في خطاب الرحلة، لكن مع بعض الاختلاف.نحاول الوقوف عليها في المبحث الموالي كل عنصر على حدة.

5. 2- البنية السردية في الرحلات:

5. 2. 1- المؤلف/البطل:هذه الثنائية من الدعائم الأساسية في البنية السّردية للرحلة، وهي تمثل " موضوع السّرد عندما يحكي عن تجاربه، والأحداث الّتي تطرأ له في هذا الفضاء أو ذاك."[1] ومن الخصوصيات الّتي تفردت بها شخصية السّارد في الرّحلة " أنّها تتميز عادة، بالتّطابق بين السّارد والكاتب(المؤلف)."[2]أو يمكن أن ننعتها بالشخصية المحورية، الّتي تتمحور عليها أحداث قصة السفر، والسرد عموما.[3] وتضطلع هذه الشخصية بالعديد من الوظائف أهمها:[4]

-**الوظيفة السّردية**: وهي من الوظائف الأساسية الّتي يقوم بها المؤلف / البطل والمتمثلة في عرض الحكاية للمتلقي

– الوظيفة الوصفية: فالانتقال من السّرد إلى الوصف يؤدي إلى تغيير في وظيفة السّارد، إذ ينتقل من وظيفته الأساسية(عرض الحكاية على المتلقي)، إلى وظيفة الواصف، أي أنه يخرج من سرد الأفعال إلى تمثيل الموصوفات

5. 2. 2- شخصيات رئيسية:

لها أدوار رئيسية وهامة في الرحلة على حد تعبير النّاقدة سمير أنساعد منها:" تشجيع الرحالة الكاتب على السّفر، ومساعدته ماديا ومعنويا عليه، وهي المحادثة للرّحالة في الطريق، والمشاركة في أفراحه، والمواسية له أيّام الشّدة، وغيرها من الأدوار الإيجابية."[5]كما أنّها تظهر " بصورة الأفراد المهمين، رغم أنّ سلوكها لا يتسم بالسلوك البطولي." [6]كشخصيات المرافق للرّحالة وشخصية كان لها حضور قوي وبارز في الرحلة...وغيرها.

5. 2. 3- شخصيات ثانوية:

[1] سعيد يقطين: الرواية والتراث السّردي (من أجل وعي جديد)، المركز الثّقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م، ص64

[2] الطاهر حسيني: الشخصية المركزية في الرحلة العلمية بين سلطان الأنا، وصورة الآخر (فتح الإله ومنته لأبي راس الجزائري نموذجا) مقال، جامعة الشّهيد حمة لخضر، الوادي، ص8

[3] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص126

[4] مرشد أحمد: تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2019م، ص19، 130

[5] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)، ص193

[6] إنريكي اندرسون إمبرت: القصة القصيرة (النّظرية والتقنية)، تر:علي إبراهيم علي منوفي، مر: صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000م، ص339

وهي شخصيات عارضة لا يكون لها حضور قوي، إلا بقدر الحاجة إليها في زمن معين، أو حيز محدد، كشخصيات اللّصوص في الرحلة الورثيلانية، أو بعض الأشخاص الغير مهمين في الرحلة. يشغل الحديث عنها مساحة قليلة من نص الرحلة، وهي شخصيات" يقابلها الرحّال في جولاته المختلفة،...ولا تدخل في دائرة البحث إلا إذا كانت إيجابية، حتى لو كانت إيجابية لا تستغرق حيزا كبيرا."[1] كما يمكن أن ندخل في هذا النوع شخصية المرافق القليل الظهور، أو المختفي لعدم أهمية أدواره ، وهذا ما عبّرت عنه النّاقدة سميرة أنساعد قائلة :" وقد لا يكون للمرافق أهمية داخل سرد الأحداث، فيظهر مرة أو مرتين ويختفي بعد ذلك ، وقد يغيب ذكره تماما من قبل الرحالة، غير أن القارئ يتبين وجوده من النّص."[2]

5. 2. 4- البنية الزمانية:

الزمن في الرحلة أو في أي نص سردي زمنان؛ زمن القصة(الرحلة) كما حدثت في الواقع وهو زمن منطقي يخضع للتتابع، وزمن الرحلة كما هي منقولة على الورق، أو زمن الخطاب يتلاعب به منتج خطاب الرحلة؛ حيث يقدم ويؤخر كيفما شاء من الحاضر إلى الماضي، أو العكس إلى المستقبل، ويؤكد لنا هذا الكلام النّاقد أحمد يوغلا بقوله:" يتمظهر الزّمن في الرحلة عبر صيغتين اثنتين؛ زمن السّفر، وزمن الخطاب، وهو بذلك يتميز بالكثير من التعقيد."[3] وزمن السّفر يمثل المدة الّتي يستغرقها وقوع الحدث، فقد يكون ساعة، وقد يكون يوما، وقد يكون عاما كاملا، أما زمن المحكي (زمن الخطاب)فهو زمن فني يتلاعب به المؤلف كيفما شاء، وهو الطريقة الّتي يتبعها السّارد في سرده، وهو يتطلب الاجتزاء، والحذف، والتكثيف، والإضمار.[4] وهذا في كل النّصوص السردية على اختلافها، أما الخاصية الّتي يقدمها الزمن للرحلة: هي الواقعية ؛و ذلك عندما يلجأ المحرر لاستعمال زمن الحاضر بدل من الزّمن الماضي، المتصف بقوة الحضور في نصوص الرحلة، ويتم التدليل على واقعية الرحلة " ببعض المؤشرات الزماكانية ك (الآن والهنا).مستندتين إلى ضمير المتكلم، وكثيرا ما يحضر هذا الأسلوب عند الكتابة بطريقة، اليوميات."[5] وكذا تحديد الزمن والمكان يكسب واقعية للنص الرحلي يقول الموافي:" الزمن والمكان يلعبان

[1] – ناصر عبد الرازق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع)، ص257

[2] – سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)، ص 193

[3] – أحمد يوغلا: الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، دار أبي رقراق، للطباعة والنشر، ط1، 2008م، ص24

[4] – ينظر إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنّشر والتوزيع، والطباعة، عمان، ط1، 1424هـ/2003من 176، 177

[5] – أحمد يوغلا، الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، ص 24

دورا بارزا في الرحلة؛ فالزمان والمكان المحددان، يكسبانها الواقعية الّتي هي أساس الرحلة."[1] فتحديد الزمن في الرحلة، واستعمال صيغة الزمن الحاضر بين الفينة والأخرى يكسب الرحلة واقعيتها.

5. 2. 5- بنية المكان /المسار في الرحلة:

عندما نقول المكان فنحن نقصد الفضاء الّذي تجري فيه أحداث القصة أو الحكاية، وباعتبار الرحلة حكاية؛ فإن لها مجالا أو حيزا جرت فيه أحداثها، لكن لخصوصية النّص الرحلي؛ فضّل بعض النقاد كلمة(مسار) عند الحديث عن بنية المكان.وكوجهة نظر مني بدا لي أنّ هذا المصطلح أنسب في الاستعمال لأنه يدل على الحركة المستمرة، عكس المكان الّذي يدل على الثبات، وهذا يتنافى مع موضوع نص الرحلة.وعبره " تتراءى مختلف الأمكنة منها ما يستأثر باهتمام الرّحالة، ومنه ما يمر عليه مرور الكرام."[2] كما له فائدة أخرى تتمثل في إكساب هذا النص واقعيته وبالتالي إخراجه من دائرة الخيال. وأيضا لتميزه بالشمول؛ فعندما نقول(المسار)؛ فهذا يعني نقطة انطلاق، وأفضية كثيرة قد تجاوزها صاحب الرحلة، ونقطة وصول، وطريق للعودة...وغيرها مما يسفر عن تعدد وتنوع الأمكنة، وهذه الخاصية تتوفر في نصوص الرحلة دون سواها؛ فيصبح لكل منها حدث وإن تشابهت في نظر البعض، وبعبارة أدق هي: أنّه قد تتشابه الأحداث مع اختلاف الأمكنة.فالمكان في الرحلة بالغ الأهمية فهو" رحى النّص الرحلي، فعبره يُفعل الوصف وتنفعل الحواس لأجل رصده. [3]، والأمكنة ما هو منغلق على نفسه كغرفة أو مقهى...ومنها ما هو واسع منفتح كالشارع، والصحراء، والغابة...ويمكن أن نذكر نوعا آخر من الأمكنة وهي الأمكنة المتنقلة، كالسفينة أو السيارة أو الطائرة... لما يقع فيها من الأحداث.

5. 2. 6- آليتي الوصف والحوار في الرحلة:

5. 2. 6. 1- الوصف: تعد آلية الوصف أمر بالغ الأهمية لا غنى لأي رحال -مهما كان نمط رحلته - عنها. فهي وسيلته الّتي تبدي لنا انطباعاته الذاتية من مشاهداته، وعن المرتحل إليهم وموقفه منهم، وهذه من طبيعة هذه النصوص والوصف في الرحلة كالملح في الطعام؛ فهو شيء أساسي " لذلك عُدّت الرّحلة خطابا وصفيا بامتياز."[4] والوصف في الرحلة يلجأ إليه الرحالة؛ عند كل أمر غريب وفريد على طول مسافة الطريق قد شدّ انتباهه، يضمّنه في رحلته؛ فهو بهذا يمزج بين نقل الخبر والوصف بأسلوب أدبي يضفي على نص رحلته نوعا من

[1] - ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 255

[2] - أحمد يوغلا، الرحلة الأندلسية (الأنواع الخصائص)، ص 23

[3] - المرجع نفسه، ص 24

[4] - أحمد يوغلا، الرحلة الأندلسية (الأنواع الخصائص) ، ص26

الحيوية؛ تجعل القارئ لمثل هذه النّصوص يتابع القراءة بمتعة دون ملل، يدفعه إلى ذلك حب اكتشاف المجهول بعيون ذلك الرحّال.ولتقريب الموصوف يستند صاحب الرحلة لمجموعة من الآليات أهمها:" مقايسة ما يراه من عادات وتقاليد لدى الآخر مع ما تحمله ذخيرته من صور، كذلك الإحاطة بالمكان الموصوف عبر الحضور الجسدي، وذلك بقياس الأطوال والمساحات، وحساب المسافات وتحديد المواقع؛ فيتحول الرحّالة إلى جغرافي، وقد يتجاوز ذلك إلى الحفر في مضي المكان، وبشكله البدائي، مع رصد التحولات الّتي طالته ليقترب من المؤرخ."[1] إذا يضطلع الرحال عبر مسار رحلته وعند كل محطة بعدة وظائف، منها وظيفة المقارن بين الآنا والآخر، ووظيفة الجغرافي، ووظيفة التاريخي.ووظائف أخرى حسب نوعية الرحلة.

5. 2. 6. 2– الحوار: هو شكل من أشكال التخاطب، يتم بين شخصين، أو أكثر، وقد قدم لنا أحد النّقاد تعريفا جميلا مع تقديم بعض الوظائف الّتي تنجر من توظيف هذه الآلية في السرد عموما يقول: معرفا آلية الحوار" يتم إجراؤه بين اثنين أو أكثر من الشخوص، وهو الّذي يمكن تسميته باللّغة الأجنبية: (dialogue) وله وظائف عديد منها:

توقيف السّرد، وتدفق الحوادث لمدة قصيرة يلتقط فيها القارئ أنفاسه، ويتجنب الوقوع أسيرا للحظات الملل."[2] ومفهوم الكلام أنّ الرحال يلجأ للحوار من حين لآخر للإبعاد الممل، وقتل الروتين ول" إضفاء الحيوية" على ما يرويه من مشاهداته، ومن أحداث قد عاشها أثناء رحلته.

من خلال هذا العرض، يتضح لنا أنّ دراسة أي نص رحلي يخضع لنفس الشروط الّتي تخضع لها النصوص الأدبية الأخرى(رواية مقالة مقامة.)، وإذا كان هذا الكلام أغلبه مس الرحلات القديمة،أو هو بمثابة التنظير لها. السؤال الّذي يطرح نفسه هل الرحلات الّتي كتبت في العصر الحديث ينطبق عليها ما قد مر معنا؟، وهذه الغاية المنشودة من هذا البحث،وهل كتبها أصحابها على النمط المبين أعلاه،أم لها خصوصيات ميزتها عن القديمة، وما هي هذه الاختلافات؟.هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال تناول أربع رحلات حديثة كتبها(أبو القاسم سعد الله)،ثلاثة منها جاءت في كتابه(تجارب في الأدب والرحلة)،وواحدة أخرى ضمها كتابه الموسوم بـ(حصاد الخريف).

[1] – المرجع السابق، ص 26، 27

[2] إبراهيم محمود خليل، النّقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، ص181

الفصل التطبيقي

البنية الفنية في رحلات سعد الله

***:نبذة عن حياة الرّحالة(أبو القاسم سعد الله)**

1- مرحلة النشأة والمهاد

2- مرحلة التكوين والتعلم

3- مرحلة النشاطات(الثورية والاصلاحية والفكرية):

3. 1-النشاط الثوري

3. 2-النشاط الإصلاحي

3. 3- النشاط التعليمي

3. 4- النشاط الفكري/ مؤلفاته

***: التقسيمات الشكلية في رحلات سعد الله**

***: أدبية /شعرية رحلات سعد اله.**

*** : البنية السردية في رحلات سعد الله.**

1- بنية الشخصية.

2- البنية الزمكانية.

البنية الفنية في رحلات سعد الله:

نبذة عن حياة الرّحالة: يمكن تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل هي:

1- مرحلة النشأة والمهاد:

ولد المؤرخ الجزائري الكبير صاحب الموسوعة التاريخية(تاريخ الجزائر الثقافي) بضاحية من ضواحي الجنوب الجزائري تعرف بقرية(البدوع)الواقعة جوار مدينة قمار في(وادي سوف)، وتاريخ مولده يتأرجح بين تاريخين هما عام 1930م و1931م [1]لكن التاريخ الأرجح هو الأول لكثرة تداوله بين من تناولوا سيرته بالدراسة، وحسب ما جاء في العديد من كتبه الّتي بسط لنا فيها عن حياته خاصة كتابه(حياتي) يقول: كان عام ميلادي هو العام الّذي تحرّر فيه أهلي من سكنى البلدة(قمار) وانتقلوا إلى سكنى(البدوع)، ثم يعود ويكرر كلامه بأنّه يعرف سنة ميلاده، وهي نفس السنة الّتي جرى فيها الانتقال إلى(البدوع)، وهذه السنة هي 1348هـ/1930م، وبالتحديد في شهر وصفه بشدة الحرارة هو شهر يوليو.[2] أما تعليمه الابتدائي فكان في أحد جوامع(البدوع)، حيث حفظ القرآن الكريم وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره يقول: " عندما بلغت الخامسة من عمري أدخلني أهلي جامع البدوع الّذي يبعد عن حوشنا حوالي نصف كلم."[3] أما عن الأستاذ الّذي ختم على يديه القرآن يقول سعد الله هو:" الشيخ(بلقاسم الزبيري)...وقد أدبني فأحسن تأديبي رحمه الله إذ ختمت القرآن على يديه سنة 1944م."[4] كما حفظ بعض المتون الأساسية كمتن الأجرومية[5].

*** عائلته:**

– الوالدان: أما والده فهو أصغر إخوته الثلاثة، وهم على التوالي: عبد الله ومحمد وإبراهيم، وهو من مواليد سنة 1896م حسب الأوراق الرسمية، وأما الوالدة فهي(العبدية)ابنة الأخضر بن مبارك بن سالم [6]. إذا هذا الأخير جده من أمه.

– الإخوة: ل:(أبي القاسم سعد الله) العديد من الأخوة، حسب تصريحاته يقول: وقد ترك والدي من الأولاد:

---

[1] ينظر أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة، عالم المعرفة، الجزائر، ص 177

[2] ينظر أبو القاسم سعد الله: حياتي (مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله)، عالم المعرفة الجزائر، دط، 2015م، ص 7 – 9

[3] المصدر نفسه، ص 59

[4] المصدر نفسه، ص 64

[5] بشير مسيس: لقاء مع شيخ المؤرخين الأستاذ أبو القاسم سعد الله، حصة حوار، برنامج تلفزيوني، القناة الوطنية.

[6] ينظر أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص 10-21

البشير، والطاهر، ومحمد والصادق...، وعلي وإبراهيم وعمر(المدعو إسماعيل) وأبا بكر(المدعو خالد) بالإضافة إلى ثلاث أخوات[1].

– الزوجة: تزوج صاحب الموسوعة الثقافية(تاريخ الجزائر الثقافي) بإحدى طالباته الّتي درست عنده وهي " الحرة الشريفة (حفصة بنت سالم) من أعيان، وأشراف مدينة(بوسعادة)كان ذلك سنة 1969م"[2]

–**الأبناء:** فقدكان لسعد الله ولد وحيد هو: أحمد سعد الله يقول عن ولادته أنّه من مواليد 12 فبراير 1974م[3]

ثالثا– صفاته: من الصفات الخلقية التي عرف بها (سعد الله) منذ صغره سمتا الحياء، والخجل الّتي ظلّتا تلازمانه حتى بعد تخرجه من جامع الزيتونة يقول:" وقد ظلت سمة الحياء بل الخجل من النّاس والهروب من الحديث إليهم بارزة في حياتي حتى بعد أن تعلمت في الزيتونة، وخالطت النّاس، وأصبح لي أصدقاء "[4] ومن صفاته رحابة الصدر، وطيبة السريرة، وحسن الخلق...وأرجع أحد الباحثين طبيعة هذه الأخلاق الّتي ميّزت هذا الهرم الثقافي إلى: طبيعة الحياة الّتي كان يعيشها وهي حياة الصحراء بما فيها من شظف العيش [5].كما وصفه أحد طلبته بحكم المخالطة والتعامل معه بأنّه "كان حليما رقيقا، نعم النّاقد، ونعم الموجّه[6] وربما حسب فهمي الشخصي أنّ الشخص تعرفه أكثر، في معاملته مع أهله.استوقفتني فقرة جميلة في يومياته قصّ فيها المعاملة الطيبة الّتي قدمها لزوجته أثناء فترة مرضها، رغم كل الأعباء، والمشاغل الملقاة على عاتقه من تحضير الدروس، وإنجاز المقالات، وتأليف الكتب...أبا إلا أن يسخر وقته لخدمة رفيقة حياته(زوجته أم أحمد)، وهذا إن دل فإنّما يدل على الحب العظيم الّذي يكنه لزوجته، والوفاء الّذي هو من خصال الكرام يقول: " أخذت أحوال أم أحمد تتحسن صحيا والحمد لله، ولكنّها ما تزال في حالة نقاهة.ولذلك فأنا الآن طباخا وغسّالا، وكنّاس منزل، ومستقبلا للضّيوف، إضافة لعملي اليومي المعتاد بالجامعة."[7] صدق من قال «العلماء ورثة الأنبياء »؛ فسعد الله قد ورث من الأخلاق النبيلة والفاضلة الكثير، حتى كأنك تقرأ سيرت نبي، ويظهر ذلك بوضوح تام في معاملته مع زوجته.

---

[1] ينظر أبو القاسم سعد الله: حياتي ، ص 10، 11

[2] أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص 378

[3] ينظر أبو القاسم سعد الله: مسار قلم (يوميات)، ج3، ص 405

[4] أبو القاسم سعد الله: حياتي، 251

[5] مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، عصور الجديدة، ع 13، ربيع (أبريل) 1435هـ/2014م، ص 227

[6] عبد الحق: في الذكرى الثالثة لرحيل العلامة أبو القاسم سعد الله، "مقال " جامعة تيارت

[7] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج7، ط1، ص 42

– وفاته:

انطفأت شمعت هذا الصرح الثقافي، والمؤسس الحقيقي للثقافة الجزائرية كما وصفه مدير جامعة الجزائر(2) في أحد اللّقاءات الصحفية[1]" يوم 14 ديسمبر سنة 2013م بمدينة الجزائر العاصمة، وتحديدا بمستشفى عين النعجة العسكري –بعد معاناة مع المرض – عن عمر ناهز 83سنة."[2] إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

2– مرحلة التكوين والتعلم:

يمكن لنا أن نقسم هذه المرحلة من حياته إلى ثلاثة مراحل هي على التوالي: الدراسة في تونس، ثم القاهرة، وبعدها أمريكا.

2. 1– الدراسة في تونس:

وتبدأ هذه المرحلة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبالضبط في أواخر سنة (1947م)، وبعد حرص ورغبة جارفة تدفعه لإشباع نهمه العلمي قرر السفر إلى تونس ليدرس في جامع الزيتونة [3] حيث بقي في هذه الديار متنقلا بين مساجدها ناهلا ما تيسر له من علومها على يد صفوة شيوخها، وأساتذتها على اختلاف تخصصاتهم منهم: الشيخ(عبد الرحمن الخيثاني) الّذي كان يدرّس النحو والصّرف والإنشاء، والشيخ(محمد الفارح)مدرّس الأخلاق والآداب العامة، والشيخ(علي البلطي) الّذي كان يدرّس علم التجويد...[4] وغيرهم من النخبة وصفوة المشايخ، والأساتذة الّذين تتلمذ على يديهم.وهذه المرحلة قد استغرقت من حياته ست سنوات أي إلى أن انتهى من دراسته وتحصل على شهادة التحصيل(الثانوية العامة)، وكان ذلك من خريف سنة (1954م)[5].لم تكن سنوات تواجده بجامع الزيتونة سنوات عقيمة، بل أثمرت بمشاركة له في الوسط الأدبي بأول مقالة له نشرها " قي صفحة بارزة من البصائر هي(أمة المجد في الميدان)."[6] وربما هذه المقالة هي الشرارة الأولى للتّحول الطارئ من مساره الأدبي إلى المسار التاريخي.

[1] حميدي خميسي تصريحات مدير الجامعة جامعة الجزائر (2) تحمل اسم المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله، قناة الشروق نيوز.

[2] – صالح بوسليم: رصيد ببيلوغرافي لسيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله، مجلة الحوار المتوسطي، ع7، ديسمبر، 2014، ص 105

[3] – أبو القاسم أفكار جامحة، ص 177

[4] – ينظر أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص 85، 86

[5] – ينظر المصدر نفسه، ص 173

[6] – المصدر نفسه، ص 160

2. 2– الدراسة في المشرق(القاهرة):

بعد حصوله على شهادة التحصيل من جامع الزيتونة سنة (1954م) قضى " عاما معلما في مدارس جمعية العلماء في عاصمة الجزائر."[1]وبعد هذه المدة اليسيرة الّتي قضاها في التحضير والتهيء المادي والنفسي لانطلاقة جديدة نحو بلد جديد لتحقيق طموحاته، وإشباع نهمه العلمي، وبالضبط في 24 سبتمبر من عام 1955م) سافر إلى القاهرة [2]، (قد تتبلور في ذهن أحدهم، وهو يقرأ هذه الأسطر فكرة يحيطها هالة من الغموض عن نوع الطموحات الّتي كان يصبوا إليها هذا الشيخ)؛ فهاهو يجيبنا على هذه النقطة قائلا:"كان طموحي إلى مصر ليس للسّياسة، ولكن للثّقافة والأدب.كان اهتمامي النوادي الثقافية، والجمعيات الأدبية، والدواوين الشعرية، وحضور النّدوات والمساهمة فيها، وفي الكتابة في الجرائد والمجلات."[3]نفهم من هذا أنّ طموحاته لا تتعد تثقيف نفسه والإدلاء بدلوه بالمشاركة بما جادت به جعبته في المجلات والجرائد، وهي بعيدة كل البعد عن السياسة.

دخل إلى كلية دار العلوم في 12 ديسمبر 1955)م، والّتي أشرف عليها الأستاذ (الدسوقي)، واصل دراسته حتى حصل على شهادة اللّسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية في جويلية (1959م) ، ثم تابع دراسته العليا وسجل في السّنة الأولى ماجيستير، تخصص أدب عربي، وبعد أن أكمل السنة بنجاح، بدأ في إعداد أطروحته حول شعر الشيخ(محمد العيد آل خليفة)، إلا أنّه لم يناقشها، وتركها مخطوطة عند الشيخ(البشير الإبراهيمي).[4]كما حصل على دبلوم الصحافة بالمراسلة.[5]

هذه الفترة الّتي قضاها في القاهرة في التحصيل –حوالي خمسة سنوات –، لم تكن عقيمة بل هي أخصب الفترات لما أثمرت به من عديد المقالات، والانجازات عن الأدب العربي في الجزائر يقول: أبو القاسم سعد الله: " سنوات القاهرة الخمس كانت من أغنى وأجمل أيام العمر."[6] ولعل أكبر انجازاته التي وجدت صدى، وقبولا كبيرين لدى القرّاء: مجموعته الشعرية «النّصر للجزائر»التي صدرت سنة 1957م)، ومخطوطة أطروحته«شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة» الّتي تولى كتابة تصديرها(مقدمتها) البشير الإبراهيمي، كما بحث لها عن ناشر؛ فكان

[1] – أبو القاسم سعد الله: مسارقلم – يوميات –القاهرة 1956–1957م–، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1425هـ/2005م، ج1، ص11

[2] – ينظر المصدر نفسه، ص 5

[3] – أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 232

[4] – ينظر مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، عصور الجديدة، ع13، ربيع (أبريل)، 1435هـ/2014م، ص 237

[5]– ينظر أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 242

[6] – أبو القاسم سعد الله: مسار قلم – يوميات ج1، ص 8

قدرها أن تبصر النّور سنة 1961م.[1]

ومن أساتذته في القاهرة يقول: " الدكتور(ناصر الدين الأسد) درّسني سنة 1959-1960بمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة عندما كنت مسجلا للماجيستير في الأدب والنّقد." [2]و أيضا: "محمد غنيمي هلال كان يُدرس لنا النّقد الأدبي الحديث، وعبد الرحمن أيوب الّذي درست على يديه مقياس الصوتيات...[3] وغيرهم كثير، وكلهم من النخبة وصفوة الأساتذة، وخريجي جامعات غربية؛ وهذه الميزة الأخيرة الّتي تفرد بها أساتذة القاهرة، كان لها تأثير قوي في حياته، حيث زادت في توسيع طموحاته، وفتحت أمامه أفاق علمية جديدة، فصار يفكر في الدّراسة في دول أجنبية يقول:" ولكن تأثير الأساتذة علي ظهر بشكل أكثر وضوحا في القاهرة، لأنّ معظم الّذين درست عليهم في كلية دار العلوم قد تخرجوا من فرنسا، أو بريطانيا؛...فهذا(محمد غنيمي) الّذي تخرج من فرنسا كان يدرس لنا النّقد الأدبي الحديث...وهذا(عبد الرحمن) الّذي درّس لنا الصوتيات...درس بدوره في بريطانيا.[4] كل هذه الأشياء فتحت له نافذة أخرى يتطلع من خلالها إلى المزيد من العلم.

2. 3- الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية:

بعد تخطي كل الصعاب، والعقبات الّتي صادفها في طريقه، لعل منها ضعفه في اللّغات الأجنبية، ووضعه المادي الحرج، كما أنه لا يملك تجارب عن السّفر البعيد، ولا ثقافة كافية عن هذا البلد الأجنبي...وكل هذا لم يثني عزيمته، بل زاده حرصا وإصرارا، وسعى سعيه الدؤوب لتحقيق ما راوده من طموحات، "وسافر بعدها إلى أمريكا 1960م وعاد منها بشهادة ماجيستير، ودكتوراه في التّاريخ سنة 1965."[5] لكن هنا يقف القارئ وقفة طويلة مندهشا، ومتسائلا في نفس الوقت عن سرّ هذا التحول من الأدب إلى التاريخ، وبعد هذه المسيرة الطويلة وفجأة وبكل بساطة تتغير ميولاته الأدبية إلى ميولات تاريخية.يقول (سعد الله) مجيبا عن هذا التساؤل:" وفي هذه الأثناء كنت أطالع في أحد المراجع، أو المجلات فوجدت خبرا لفت نظري وهو **الوجود العربي الإسلامي في جزيرة سردينيا**...ولكني لم أكن أعرف عن الحكم العربي في سردينيا فتحركت في نفسي نوازع التاريخ وحب المعرفة وأخبار الأجداد."[6] وكانت معرفة الحكم العربي في سردينيا بداية التحول من مساره الأدبي إلى مساره الجديد الّذي قد عرف به، وصار يلقب باسمه(شيخ المؤرخين).

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م، ص 7

[2] - أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج7، ط1، 2015، ص 84

[3] - أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 247

[4] أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 245، 246

[5] محمد بوزواوي: معجم الأدباء والعلماء المعاصرين –من 1798 إلى 2009- الدار الوطنية للكتاب الدرارية، الجزائر، دط، 2009م، ص 323

[6] أبو القاسم سعد الله: حياتي، ص 301

بعد انسحابه من دائرة الأدب الأمريكي الّذي قد سبق وسجل فيه، وذلك بالطبع بعد إجراء امتحانات القبول الّذي قد كللت بالنّجاح، توجه إلى دائرة أخرى جديدة هي دائرة التاريخ وما يضمه من علوم أو مواد...فاختار مادة في العلوم السياسية، وهي مادة الإدارة المحلية والانتخابات في مدينة(مينيابلس)، وبعد انجاز ما كان ملقى على عاتقه من المواد، والبحوث للماجيستير حصل عليها سنة 1962م التي أشرف عليها(هارولد توتيش)، الّذي واصل إشرافه أيضا على عمله العلمي الكبير(أطروحة الدكتوراه) [1] الّتي حصل عليها سنة 1965م من جامعة(منيسوتا) في التاريخ الأوربي الحديث والعلوم السياسية."[2] وموضوع أطروحته كان الجزء الثاني من كتابه الموسوم(الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930).[3] الّتي" ترجمت إلى العربية سنة 1968."[4]

3- مرحلة النشاطات(الثورية والاصلاحية والفكرية) :

نشاطاته كثيرة ومتعددة تحتاج لوقفة مطولة ليس مكانها هنا، لكن نقتطع من كل اتجاه ما يكفي لإثبات مشاركاته القيمة في كل حقل من هذه الحقول الآتية، لذا ذكرها يكون على سبيل التنويه بجهود هذا العلّامة والمجاهد الكبير.

3. 1- النّشاط الثوري :

من خلال قراءتي لكتب (سعد الله) خاصة كتبه الّتي كتب فيها عن حياته منها:(مسار قلم، حياتي، جوامح فكرية)، وحتى هذه الكتب نفسها تعد نشاطا ثوريا وهو يقدم لنا سيرت حياته بكل ما تحمله من أبعاد، ومرامي لعل منها تعريف الناشئة، ومن يأتي من بعده من طلبة العلم ببعض الحقائق كانت قد كتمت عن الثورة التحريرية المجيدة، وحقائق أخرى جرت أحداثها بعد ثورة التحرير الوطنية، على الصعيد العالمي، والعربي بخاصة.

لكن ما يهم في هذه العجالة هو الكلام عن نتف من نشاطاته الثورية، التي شارك بها وهو طالب علم وكيف استطاع التوفيق بين كفاحه، ومسيرته العلمية الحافلة.وأنا أقرأ في أحد كتبه استوقفتني فقرة جميلة حُقّ لها أن تكتب بماء الذهب؛ لما تحمله من وطنية قد تمتع بها هذا المجاهد الكبير، وكيف لم يشغله شاغل عن متابعة أخبار بلده، وكيف كان يتابع أخبارها بشغف في كل حين، ورغم عوزه المادي إلا أنّه لم يتوانى يوما واحدا في شراء الجرائد الّتي كانت تحمل أخبارا عن الحياة النضالية في الجزائر، فكان في اليوم يشتري أكثر من جريدة ليس للتسلية أو مجرد

[1] ينظر أبو القاسم سعد الله، ص 302- 311

[2] ينظر أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة، ص 178

[3] ينظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص5

[4] جمال الدين الألوسي، الجزائر بلد المليون شهيد، السلسلة الإعلامية 12، وزارة الثقافة والإعلام، دط، 1390هـ/1970م، ص 252

القراءة فقط، بل لما تضمنته من عناوين متعلقة بالثورة الجزائرية، فكان يشتري الجريدة الواحدة تلوى الأخرى دون شعور لمعرفة كل صغيرة، وكبيرة عن أحوال الثورة والثوار في الجزائر يقول: **قرأت الجمهورية، وفي الطريق اشتريت الأهرام عندما رأيت فيها عنوانا جذب نظري...وعند رجوعي أبدلت الأهرام بالأخبار...ونزلت إلى القاهرة فاشتريت الآداب...وعند رجوعي رأيت عنوانا في جريدة القاهرة...فاشتريتها دون شعور ورحت أقرأ.**[1] وكان يقرأ أكثر من جريدة في اليوم الواحد، كما أسفر القول آنفا لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عما يحدث في بلاده، فكانت الجرائد رفيقته في حله، وترحاله، لا تفارقه لحظة واحدة، وكانت جريدة الجمهورية من أكثر الجرائد قراءة عنده، فهي كظله الّذي يتبعه أينما كان، وللتدليل على هذا الكلام نذكر بعض المقاطع من يومياته مسار قلم منها قوله:" حضرت عدت محاضرات، وكانت معي في الطريق جريدة الجمهورية."[2] وقوله أيضا:" أتيت بالفطور والجمهورية الّتي قالت عن الجزائر ما قالته."[3]

ومن نشاطه الثوري مشاركته في العديد من الأنشطة الطلابية في فترة تواجده بمصر منها: " أسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية، وأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية، والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي والتطوع في جيش التحرير الجزائري، ونشاط الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ونشر المقالات والقصائد..."[4] وهذا الأخير(نشر المقالات والقصائد)، لا يقل أهمية عن أنشطته الأخرى، فإن كان قد حُرم من حمل السلاح؛ فإنه لم يحرم الجهاد بالكلمة المعبرة والهادفة، الّتي نابت عن السّلاح، والرصاص بل فاقته أحيانا لما قد ينجر عنها، من شحذ الهمم، وتنبيه الغافلة قلوبهم إلى القضية الجزائرية، ومن بين تلك القصائد الثورية المعبرة، والّتي تحمل عاطفة صادقة، لأنها تصدر من شخص غيور على وطنه: قصيدة(الثورة) الّتي نظمها في خريف سنة(1955م).ومما جاء فيها:

كان حلما واجتمار

كان لحنا في السنين

كان شوقا في الصدور

أن نرى تثور

[1] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج1، ص 28

[2] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم،ج2، ص 90

[3] المصدر نفسه، ص 138

[4] المصدر نفسه، ج2، ص 10

:ومن بعد مرور سنة نظم قصيدة(ليلة الرصاص) هي الأخرى عن الثورة ومما جاء فيها

وكان اختمار وكان ضباب

وكانت زلازل رغم المطر

وكانت قنابل قاصفات

وكان الرصاص يجيب القدر [1]

وقصائد كثيرة تحمل هما ثوريا لمن أراد المزيد منها عليه الرجوع إلى ديوانه، والتمتع بما جادت به قريحة الشاعر من .أشعار ثورية.

3. 2- النشاط الإصلاحي :

على غرار من سبقوه من المصلحين، وحتى من عاصرهم أراد شيخ المؤرخين أن يقتفي أثرهم، ويسهم في تغيير بعض القضايا الأساسية الّتي تبنى عليها الأوطان، وأكبر قضيتين كانت تشغل بال(سعد الله) هما على التوالي : قضية التعريب، و قضية الوحدة، وبعض القضايا الفرعية كإصلاح التعليم، لكن ما يهم هنا هو الحديث باختصار عن التعريب، والوحدة ورأيه فيهما.

لطالما دافع (سعد الله) عن هاتين القضيتين الأساسيتين، وخاصة قضية التعريب الّتي أكثر الحديث عنها في يومياته، وكتابه(تجارب في الأدب والرحلة)، وغيرها من الكتب والمقالات؛ ومدار إصلاحه لهذه القضية يبدأ بتعريب الكلية أولا لكن صداها تجاوز محيط الجامعة إلى الشوارع الجزائرية، بعد لأي وجهد كبيرين كادا يحبطان تحقيق عزيمة(سعد الله)؛بسبب وجود من يعرقل مسار تقدم فكرة التعريب يقول(سعد الله):"كان الّذي يشغل أوقاتي كلها تقريبا هو دراسة موضوع الإصلاح في الكلية...ذلك أنني أدافع دائما عن قضية التعريب لكن الأعداء كثيرون والأنصار قليلون لهذه القضية كأننا في بلاد عدوة لكل ما هو عربي."[2] يتأسف (سعد الله)عن قلة الأنصار لهذه اللّغة، والصمت الرهيب الّذي يطبق على أصحابها، ويرجع سبب تأخير مسألة التعريب في الجامعات لكثرة أعدائها يقول(سعد الله): " إن الاستعمار وبقاياه الجزائريين الآن يعرقلون وجود هذه اللغة في الجامعة ولكنهم

[1] ينظر مصطفى عبيد: النّشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، عصور الجديدة، ع13، ربيع (أبريل) 1445هـ/2014م، ص 237، 238

[2] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج3، ص 261

فشلوا منذ أمس، وسيفشلون بحول الله."[1] رغم ما تمر به اللّغة العربية من إعراض من قبل أعدائها، من الاستعمار أو من بقاياه الجزائريين، إلا أنّ(سعد الله) يستبشر خيرا، ويرى أنّ محاولتهم ستفشل بحول الله.ورويدا رويدا بدأت الفكرة تؤتي أكلها مع مرور الأيام، إما على مستوى الشوارع بتعريب شوارع المدن الجزائرية، والواجهات والمحلات العمومية، وإما على مستوى الإدارات ونحوها. [2]

ومن المسائل الإصلاحية الّتي حاول أن يخوض فيها، ويبدي رأيه فيها قضية الوحدة بنوعيها الوطنية والشاملة، ويقف موقفا معاديا لدعاة التفرقة، الّذين يتسللون من مدخل حساس هو: اللّغة، فيحاولون بما استطاعوا أن ينفثوا سمومهم بين أهل البلد الواحد، لا حبا فيهم بل لإضعاف شوكتهم ولزرع التفرقة بين النّاس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.كانوا يسعون جاهدين لزرع أفكار تضليلية ظاهرها يطمس الخلفية الحقيقية لها، منها أنّ " **الشعب الّذي يتكلم لغات خير من الشّعب الّذي يتكلم لغة واحدة.**"[3]يرى سعد الله أنّ مثل هذه الأقاويل الّتي تصدر من هؤلاء هي إما للتضليل، أو عن قصور عقولهم وجهلهم بمصلحة بلادهم، ونفس الوقت يرد عليهم بقول يحمل شحنة تحذيرية من دعاة التفرقة والتضليل قائلا:" **إذا كان شعب بلاد ما يتحدث أكثر من لغة وطنية، ورسمية فهذا لم يعد شعبا واحدا، وإنما مجموعة شعوب.**"[4] ثم في موضع آخر من نفس الكتاب يقطع كل الشكوك، أو الاحتمالات لمن يرى خلاف ذلك بقوله:" **أما اللغة الوطنية فواحدة، ويجب أن تكون واحدة وهي العربية.**"[5] هذا عن الوحدة الداخلية أو الوطنية، أما عن الوحدة الشاملة كما يسميها أو الوحدة العربية؛ فهو يرى من العار التكلم عن هذه الوحدة المزعومة، ونحن مكبلون بحدود تفصلنا يقول:" إنه لمن العار أن نتحدث عن الوحدة ثم نشاهد، ونمر بمثل هذه الحدود."[6] ولعل من أجمل اقتراحاته لتحقيق وحدة شاملة بين المسلمين هي فرض " وحدة الصوم والإفطار على جميع المسلمين في وقت واحد، وإلا ما معنى الوحدة بين المسلمين."[7] يرى سعد الله لتحقيق الوحدة الشاملة بين المسلمين أن نوحد الشعائر الدينية كشعيرة صوم رمضان، ويوم العيد كخطوة أولى للوصول لهذه الغاية السامية.

3. 3– النّشاط التعليمي : من خلال قراءاتي لهذه المرحلة يمكن أن نصفها كالتالي:

[1] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج3 ، 193
[2] المصدر نفسه، ج3، 354
[3] أبو القاسم سعد الله: مسار قلم ، ج7، ص24
[4] المصدر نفسه ، ج7، ص24
[5] المصدر نفسه، ج7، ص 25
[6] المصدر نفسه، ج2، ص 125
[7] المصدر نفسه، ج3، ص 278

تبدأ رحلته التعليمية منذ تخرجه من تونس سنة 1954 في أحد مدارس الجزائر العاصمة الّتي كانت تابعة لجمعية العلماء المسلمين آنذاك الّتي كان من اهتمامها(نشر الإصلاح)، وإحياء التراث الديني والعربي، والّتي حملت على كاهلها الفكر التوعوي بكل مستوياته، كما بذلت قصارى جهدها لنشره بين أفراد المجتمع الجزائري للقضاء على الجهل، والفكر الماسوني الّذي نشره أعداء الوطن والدين بين عامة النّاس يقول سعد الله: "التحقت بمدرسة الثبات في الجزائر يوم21 نوفمبر سنة 1954م."[1] غير أنّ المدة الّتي قضاها معلما في مدارس الثبات لم تتعدى السنة الواحدة [2]؛ لأنه كان مقبلا على مشروع كبير هو مواصلة تعليمه بمصر.كما درس في العديد من الجامعات خارج الوطن كجامعة أسيوط وجامعة عين شمس المصرية [3]، وكذا جامعة آل البيت الفنية بالآردن سنة 1996م [4]، وجامعات غربية منها جامعة(أوكلير) الّتي درس فيها عام 1967م [5]. هذه لمحة سريعة عن هذا النشاط الحيوي.

3. 4– نشاطه الفكري/مؤلفاته:

عندما تأتي للحديث عن أعماله وآثاره تصاب بالدهشة والحيرة لكثرتها، وتنوعها في نفس الوقت –وهذا ما حصل معي– فهي مزيج من مصنفات أدبية، وتاريخية؛ فسعد الله هرم كبير من أهرامات الثقافتين الأدبية والتاريخية في الجزائر، فهو مرجع لا غنى عنه لمن أراد معرفة المراحل الّتي مرت بها الثقافة الجزائرية في مختلف عصورها، وكيف تكونت، وتأصّلت.ويمكن تصنيف مؤلفاته، أو بعضها على المنوال التالي:

3. 4. 1– مصنفات أدبية: نذكر منها:

- النّصر للجزائر(شعر)، دار الفكر، القاهرة، 1957

- ثائر وحب(شعر)، دار الآداب، بيروت، ط2.1977

- محمد العيد رائد الشعر الجزائري، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1976

-محمد الشاذلي القسنطيني، الشركة الوطنية، الجزائر، 1974

-دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الأدب، بيروت، ط2، 1977

[1] أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص 184

[2] ينظر أبو القاسم سعد الله، مسار قلم ج1، ص11

[3] ينظر المصدر نفسه، ج 4، ص 18-21

[4] ينظر أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله –حياة وأثار شهادات ومواقف –دار النعمان للطباعة والنّشر، الجزائر، دط، 2017م، ص 21

[5] ينظر المصدر نفسه، ص ج3، ص 121

-حكاية العشاق(تحقيق) الشركة الوطنية، الجزائر، **1977**

- تجارب في الأدب والرحلة، الشركة الوطنية الجزائرية، 1983

- سعفة خضراء(قصص) 1986

- الزمن الأخضر(ديوان)، 1985

- محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث 1984

- حكاية العشاق في الحب والاشتياق، رواية، تحقيق، 1983

- القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، 1985

3. 4. 2- مصنفات في التاريخ:

- تاريخ الجزائر الثقافي، في 10 أجزاء دار الغرب الإسلامي، بيروت 2007

- الحركة الوطنية الجزائرية، في أربعة أجزاء

- محاضرات في تاريخ الجزائر الثقافي الحديث، الشركة الوطنية الجزائر، ط3، 1982

- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، في خمسة أجزاء، صدر في سنوات مختلفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2011م

- الجزائر وأوروبا ترجمت كتاب جون وولف، 1986

- تاريخ العدواني(تحقيق)، 1989

- شعوب وقوميات، 1985

3. 4. 3- دراسات عامة:

- منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، تونس –ليبيا، ط2، 1982

- المفتي ابن العنابي، رائد الإصلاح الإسلامي، الشركة الوطنية، الجزائر، 1976

- الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982

-رحلة ابن حمادوشالجزائري(لسان المقال)، نشر مشترك بين المكتبة الوطنية والشركة الوطنية، الجزائر، 1983م

3. 4. 4- كتب مترجمة منها:

-شعوب وقوميات (peoples and nationalism)، الجزائر 1985

- الجزائر وأوروبا.جونب.وولف(john.b.wolf)

-الجزائر في العهد العثماني (algier sunder the turks)

- حياة الأمير عبد القادر.تأليف هنري تشرشل الجزائر تونس، ط2، 1982 (ch.hchurchill.the life of abdelkader)

3. **4. 5- بحوث**: وهي كثيرة جدا نذكر منها:

- المترجمون الجزائريون وإفريقيا، بحث نشر في مجلة الثقافة، ع 113.1996

-أول بيان فرنسي إلى الجزائريين في مجلة المعرفة 17مارس، 1960

- العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776م 1830م في مجلة المعرفة 15سبتمبر، أكتوبر 1964م، نوفمبر 1964م

- العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا، ودول المغرب العربي 1776-1816م في مجلة المجاهد الثقافي العدد 9، 1969ترجمة السيد كاوش إلى الفرنسية ونشرتها الجمهورية وهران 17يناير 1970م.

هذا غيض من فيض من نشاطاته الفكرية الّتي تسفر في مجملها عن الثقافة الموسوعية الّتي تحلى بها هذا العالم الجزائري الكبير، الّذي زاوج بين ثقافتين ثقافة الأدب، وثقافة التاريخ وقلّ ما نجد هذه الميزة الفريدة في علماء آخرين، ثم وأنت تقرأ أي كتاب في التاريخ تشعر كأنك تقرأ رواية، أو قصة، وهذا ما اعترف به العديد من قرائه لتناوله حقائق تاريخية بأسلوب أدبي سلس.أما من أراد التعرف على كتبه، وبحوثه الغزيرة ما عليه إلا بالرجوع إلى الكتب والمجلات الّتي تناولت دراسة سيرته وحياته .

*** البنية الشكلية في رحلات أبي القاسم سعد الله:**

انطلاقا من فكرة أنّ لكل رحلة شكل خاص بها، وأنّ الرحلات تتعدد بتعدد أصحابها، نحاول من خلال هذا الفصل الوقوف على بعض كتابات المؤرخ الكبير (أبو القاسم سعد الله)، والمتمثلة في بعض التجارب –كما سمّاها – في فن الرحلة، ونحاول أن نجد لها شكلا ضمن الأشكال، والمجال الّذي أحاول فيه أربع رحلات ثلاثة منها جمعها صاحبها، تحت عنوان كتابه(تجارب في الرحلة).و هي كالتالي: رحلتي إلى المغرب ، ورحلة إلى الجزيرة العربية، والثالثة انطباعاته من زيارة قام بها(أبو القاسم سعد الله) إلى(خنقة سيدي ناجي). وأخرى موجودة في كتابه موسوم (بحصاد الخريف)، نشير إلى أمر آخر في كتابه" تجارب في الأدب والرحلة " وهو أنّ هذا الكتاب لا يقتصر على رحلاته المذكورة آنفا فحسب بل ضم رحلة أخرى مترجمة عن الانكليزية قام بها أحد أمراء الألمان إلى عنابة.بالإضافة إلى" مجموعة من التجارب في الأدب والقصة والشعر، وآراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي والوطن العربي على العموم."[1] والطريقة الّتي انتهجتها في الكشف عن بنية رحلات (سعد الله)بعد تحديد مجال دراستي هي دراسة كل رحلة على حدا، ومحاولة التوفيق بينهما؛ للوصول إلى شكل عام يجمعهم، مع مقابلتها مع نظيرتها من الرحلات القديمة، واستخلاص أهم الفروق أو الاختلافات بين الرحلة الحديثة والرحلة القديمة، على مستوى البنية الشكلية.

1– البنية في رحلته الموسومة ب:(رحلتي إلى المغرب):

هي رحلة قام بها (سعد الله) متجها صوب المغرب، لجمع المادة العلمية لإتمام كتابه أو موسوعته الثقافية(تاريخ الأدب الجزائري)، هي إذا رحلة علمية، صاحبتها رغبته الجارفة وحبه للسّياحة، اتبع في تدوينها أسلوب اليوميات؛ مركزا على الحادثةكسابقة من نوعها.

حتى لا نقع في التكرار هذه الأمور وغيرها سنأتي عليها بالتفصيل عند حديثنا عن عناصر الافتتاحية الّتي افتتح بها صاحب الرحلة رحلته. وبعد القراءة المتمعنة في مضمون الرحلة وجدناها تأخذ الشكل أو البنية التالية: افتتاحية : مهد بها للرحلة ضمّت العديد من العناصر، ورحلة خارجية أطلقت عليها بنية كبرى، ورحلات داخلية أو ما أطلقت عليه بنية صغرى؛ وهي مجموعة من التنقلات والجولات الداخلية داخل مدن المغرب الأقصى الّتي قام بها (سعد الله)لتحقيق الغاية الّتي جاء لأجلها.

1. 1– الافتتاحية: جرت العادة أن تفتتح مثل هذه النّصوص بمقدمة، أو افتتاحية تختلف عناصرها

[1] – أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 7

أو مكوناتها من رحلة إلى أخرى، وهذا ما تلمّسناه في هذه الافتتاحية من رحلة (أبي القاسم سعد الله)إلى المغرب وهذه أهم العناصر الّتي ضمّنها سعد الله في افتتاحيته:

1. 1. 1 – التنويه بالرحالة المغاربة ووجهتهم ودوافعهم: سار الرحّالة الجزائريون على خطى إخوانهم المغاربة في ضعنهم وترحالهم لاسيما لتأدية نسك الحج، وطلب العلم أو للهجرة نحو المشرق، أضف إلى ذلك المعلومات القيمة الّتي حوتها بطون تصنيفاتهم في مجال الرحلة؛ وفي هذا يقول سعد الله:" قلما اتجه الرحّالة الجزائريون في القديم إلى المغرب والأندلس.كان اتجاههم مثل اتجاه المغاربة أنفسهم، نحو المشرق، للحج أو طلب العلم أو الهجرة، وكثرت الرحلات المغربية نحو المشرق حتى أن من أراد أن يكتب عن الجزائر الماضية مثلا لا يمكنه أن يستغني عن رحلات التمغروتي، والعبدري، والبلوي، والعيّاشي، والغسّاني، والزياني، والجامعي، وابن زاكور والدرعي، وأضرابهم."[1]

1. 1. 2 – ذكره مجموعة من الرحالين الجزائريين ووجهتهم خلال القرن الثامن عشر: يقول سعد الله في هذا " وإذا كان القرن الثامن عشر الميلادي قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق، رحلة ابن عمار ورحلة الورثيلاني، فإنّه قد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة ابن حمادوش...وليس ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه إلى المغرب، فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرفي، ولكنه أول جزائري...ترك لنا وصفا دقيقا لمدن تطوان ومكناس وفاس، وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر."[2]

1. 1. 3 – ذكر وجهته ومنهجه في كتابتها: صرح سعد الله بوجهة سفره قائلا:" وتعقبا لآثار هؤلاء ذهبت إلى المغرب خلال الصيف الماضي."[3] أما عن منهجه فقد فصّل فيه تفصيلا، وأبان عن كنوز هي قيد الرفوف هي عبارة عن يوميات قد سجلها أثناء رحلاته الكثيرة تحتاج لمن ينفض عنها غبار السنين.يقول:" وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبا عفويا لا تنسيق فيه ولا تفنن.وعند عودتي للجزائر نظرت في هذه اليوميات فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح للنّشر إلا بعد انقضاء جيل.ولتشابك هذين القسمين في اليومية الواحدة فضلت أن انسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن **بالحادثة** نفسها، مقتصرا فيها على الأحداث والمناسبات الثقافية

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 203

[2] – المصدر نفسه، ص204

[3] – المصدر نفسه، ص204

والمتصلة بها."[1]

1.1. 4 – ذكر دواعي الرحلة وأهميتها: ذكر لنا (سعد الله) الدافع الأساسي من رحلته وهو جمع المادة العلمية لكتابه(تاريخ الجزائر الثقافي)، والفائدة العظيمة الّتي قد جناها منها نذكر منها : التعرف على الكثير من الشخصيات الّتي عُرفت في الوسط الأدبي من نقاد، وكتاب، ونحويين، وطلبة دكتوراه...يقول سعد الله:" ولا أكتم نفسي أنّ الرحلة كانت ذات فائدة عظيمة لي.إذ لم أجمع فقط خلالها مادة جديدة نادرة لكتابي عن تاريخ الجزائر الثقافي، ولكني تعرفت أيضا على عدد من رجالات المغرب الحديث."[2]

أراد (أبو القاسم سعد الله) –قبل أن يترك العنان للقلم، والذّاكرة بالمضي قدما–أن يشحن ذهن القارئ بالتنويه على من كان لهم الريادة في مجال أدب الرحلة، وذكر أهم الرحالين الجزائريين الّذين اقتفوا خطا هؤلاء مشيدا برحلة (ابن حمادوش) لدقة الوصف الّذي ميّزها عن نظيراتها.

1. 2– الوسط :

وهو الركيزة الأساسية في نصوص الرحلة كما بيناه في الفصل الثاني، وقد انطوى على بنيتين يمكن تقسيمهما إلى الشكل التالي:

1. 2. 1– البنية الكبرى في رحلة(رحلتي إلى المغرب): ويمكن أن نضم تحتها مجموعة من العناصر قد أسفر عليها المقطع التالي: " زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي(من 29يوليو إلى 19 أغسطس 1973م)...وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النّواصر بالمغرب ساعة وربعا."[3] إذا فقد ذكر (سعد الله) زمن انطلاقه باليوم والشهر والسنة، كما ذكر لنا مكان انطلاقه ؛ وهو مطار الدار البيضاء الجزائري، والوسيلة في ذلك هي طائرة البوينغ التونسية، ومكان الوصول هو مطار النواصر بالمغرب، والزمن المستغرق في هذه الرحلة، وهو ساعة وربع الساعة حسب تصريح الكاتب يقول سعد الله مؤكدا زمن وصوله:" وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أنّ الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النّواصر."[4]؛ ورحلة سريعة كهذه في مكان منغلق على نفسه حتما تفتقر لما دأبت عليه رحلات كل من(ابن بطوطة، وابن جبير، ونظرائهم من وصف للأماكن ومعالمها، وما تميزت به، والحوادث

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 204

[2] – المصدر نفسه، ص 204، 205

[3] – المصدر نفسه، ص 205، 206

[4] – المصدر نفسه، ص 206

الّتي صادفته طيلة مشواره حتى يصل لبلد الهدف. إلا في وصف حالة شعورية انتابته عندما بدأت الطائرة في الهبوط، بحيث وصف الطائرة الّتي هو عليها بحمامة سلام يقول:" وشعرت عندئذ أنّ الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة، فقد تجمع فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون، واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة : لطافة التونسي، وإنسانية الجزائري، وشهامة المغربي."[1] أما العنصر الّذي يقابل الانطلاق هو عنصر الإياب نجده مغيبا تماما في الرحلة، وبهذا تصبح الرحلة مفتوحة؛ فعلى طول الرحلة لم نجد عبارة، أو إشارة ولو بصورة ضمنية يصرح فيها صاحب الرحلة بالعودة الحتمية الّتي تعقب كل انطلاقة مهما طال مكوث الرحال في البلد المرتحل إليه إلا في حالات نادرة جدا.

1. 2. 2– البنية الصغرى في الرحلة: وهي بنية متممة للبنية الكبرى، وهي مجموعة من التنقلات بين ربوع مدن المغرب، وهي المعول عليها.حتى ليمكن القول أنّها أهم من البنية الّتي سبقتها – أقصد البنية الكبرى- لما تضمنته من وصف وذكر لأهم الأحداث الّتي عايشها الرّحال مدة مكوثه بمدن المغرب الّتي زارها. انطوت هذه البنية على غرار أختها على مجموعة من العناصر الّتي تشكل معماريتها.ويمكن تقسيمها إلى مجموعة من الرحلات اعتبارا للمكان، أو البلد الّذي أقام به الكاتب وهو: مدينة الرباط أهمها: رحلة من مدينة الدار البيضاء إلى مدينة الرباط المغربية، وثاني هذه الرحلات: من الرباط إلى الدار البيضاء، وثالثها من الرباط إلى مدينة سلا المغربية. ومنه تصير لدينا ثلاث رحلات يمكن نعتها بالرحلات الداخلية، يمكن الوقوف على عناصر كل رحلة على حدة كالتّالي:

1. 2. 2. 1– الرحلة من الدار البيضاء إلى مدينة الرباط: مادامت رحلة لا شك أنها تضم مجموعة من البنى الصغرى أو العناصر المشكلة لها، والّتي لا تخرج عن نظيراتها من الرحلات من انطلاقة، ووصول، ورحلة عودة ، ومسار وهذا الشائع في رحلات أجدادنا الأقدمين.

1. 2 .2. 1. 1– زمن ومكان الانطلاق: عندما نقول انطلاقة من بلد إلى بلد فهذا يعني سفر؛ وهي بنية كافية كي نحكم بأنّ النص ينتمي إلى مجموعة النصوص الرحلية إذا كانت مهيمنة. وهنا تظهر هيمنة السفر منذ الانطلاقة الأولى يقول سعد الله:" وكانت الساعة تشير إلى الثامن ونصف عندما تحركت السيارة من الدّار البيضاء في اتجاه الرباط.وقد سقط الليل."[2] فالقول هنا يسفر على مجموع من العناصر أولها: زمن الانطلاق وهو الثامنة ونصف من يوم الأحد كما يظهر في قوله:" بالإضافة إلى أنّ الوقت كان مساء الأحد."[3]، ومكان الانطلاق وهو الدار البيضاء.

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص206

[2] المصدر نفسه، ص 206

[3] – المصدر نفسه ، ص 207

1. 2. 2. 1. 2- مسار الرحلة: لم يفصّل الرحال في مسار الرحلة، ولكن اكتفى ببعض الإشارات الدالة عليه مع ذكر المسافة الفاصلة بين مكان الانطلاق ومكان الوصول، والزمن المستغرق والمقدر بحوالي ساعة ونصف.يقول: " تبلغ المسافة بين الدار البيضاء والرباط حوالي تسعين كيلومتر...وقد قطعنا المسافة في حوالي ساعة ونصف.واستطعت أن أقرأ وسط الظلام والتعب فوق جسر علامة تشير إلى وادي(المالح)، ثم أخرى تشير إلى وادي(شراط)."[1] فكل من واد المالح وواد شراط يمثلان أماكن عبور الرحال ومن معالم الطريق إلى الرباط.

1. 2. 2. 1. 3- الوصول إلى مدينة الرباط: وبعد مرور ساعة ونصف الساعة من الوقت، وصل (سعد الله) إلى مدينة الرباط يقول: " توقفت بنا السّيارة قرب مفترق شارعين رئيسين في الرباط وهما: شارع الملك محمد الخامس، وشارع الملك الحسن الثاني.[2] اعتاد (سعد الله) في رحلته التدقيق في كل الأمور سواء في الزمن أو المسافة المقطوعة كما قد مر معنا في تحديده للمسافة الفاصلة بين الدار البيضاء والرباط والمتمثلة في تسعين كيلو متر ا، وتقديره لهذه المسافة بالزمن وهو حوالي ساعة ونصف.نجده هنا يحدد مكان الوصول من مدينة الرباط؛ وهذا إن دل فإنما يدل على كبر مدينة الرباط، وتشعب مسالكها وبالتالي صعوبة الإحاطة بكل ما تزخر به من معالم، وأيضا صعوبة التعرف عليها بشكل جيد دون وسيط ووسيلة نقل، وتمثل هذه المدينة البؤرة المركزية في كل الرحلة، لأنها تشكل نقطة انطلاق بلوغ الأهداف المرجوة من رحلة سعد الله، والمتمثلة في جمع المادة العلمية لإنجاز عمله الموسوعي(تاريخ الجزائر الثقافي).

1. 2. 2. 1. 4- التجوال في مدينة الرباط:

يمكن عد التجوال في هذه الرحلة نوعا من البنى المشكلة لهذه الرحلة، لأنّ التجوال نوع من السّفر القصير المدى، أضف إلى ذلك الخدمة الكبيرة التي يقدمها لنصوص الرحلات، ولاسيما الحديثة منها.كإثراء الرحلة بالمشاهدات، وانطباعات الرحال حول مدن المغرب الشقيق.وللذكر فقط نورد مقطع يبن لنا الخدمة الكبيرة التّي يمدنا بها التجوال يقول سعد الله:" وفي إحدى الأحياء عرج بي صديقي(الجراري)بسيارته على الأحياء الهامة من مدينة الرباط، ومن هذه الأحياء باب شالة، والمشور(حيث القصر الملكي)، وحي السويسي حيث الحي الجامعي الجديد، ومستشفى ابن سينا الضخم."[3] القول يتضمن جولات الرحال في قلب مدينة الرباط، بفضله تمكنا من معرفة بعض المعالم الّتي تزخر بها هذه المدينة الكبيرة.

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 207

[2] – المصدر نفسه، ص 207

[3] – المصدر نفسه، ص 219

1. 2.2. 2 – الرحلة من الرباط إلى الدار البيضاء: الآن العكس التنقل من الرباط –مكان الإقامة – إلى الدار البيضاء الّتي سبق وأن كانت هي مكان انطلاقة جديدة لرحلة جديدة؛ –لأجل البحث والتنقيب عن هدف الرحلة – الّتي قد تم تحديد المسافة الفاصلة بينها وبين الرباط وهي تسعين كيلو متر، كما تم تحديد الزمن المستغرق لقطع هذه المسافة بحوالي ساعة ونصف، وهذه الرحلة كغيرها لها عناصرها الخاصة بها المشكلة لبنيتها وهي:

1. 2. 2. 2. 1– بنية الانطلاق(الذهاب): كالعادة يحرص (سعد الله) على تحديد زمن الانطلاق بدقة متناهية، مغيبا هذه المرة الزمن بالساعة واكتفى بذكر اليوم والشهر والسنة يقول:" وكان يوم الأحد 13 أوت 1973م يوما مليئا بالتجارب.إنّه يوم الدار البيضاء فقد توجّهت إليها رفقة صديقي الجراري بسيارته."[1]

1. 2. 2.2. 2– مسار الرحلة: لكل سفر مسار وطريق يسلكه الرحال للوصول للبلد المقصود، وطريق (سعد الله) في هذه الرحلة هو(طريق الصخيرات) كما هو مبين في الرحلة " وأخذنا طريق الصخيرات"[2] وعلى طول الطريق ذكر لنا العديد من المؤشرات، أو المعالم الثابتة الّتي يمكن عدها من أماكن العبور منها : ما هو وارد في نص الرحلة يقول :" ورأينا في الصخيرات أيضا مجموعة من المغاني(الفيلات) الّتي قيل أن الطبقة المغربية الغنية تسكنها، ومررنا على وادي (ايكم)، ووادي (شراط)، ووادي (المالح).وظهرت لنا مدينة المحمدية على بعد قريب.كما مررنا على قرية (بوزنيقة) الّتي بدأت تكتسب أهمية لوقوعها في مفترق الطريق الرابط بين (الرباط) و(الدار البيضاء)."[3] قام (أبو القاسم سعد الله) بذكر بعض الأماكن الّتي مر عليها؛ وربما اقتصاره على هذه الأماكن دون غيرها راجع لتميزها بالثبات كالوديان أو الشهرة كالفيلات الّتي مر عليها. ويمكن لنا التمثيل لمسار هذه الرحلة بهذا المخطط: الرباط --- المغاني(الفيلات)---وادي ايكم---وادي شراط ---وادي المالح ---مدينة المحمدية --- قرية بوزنيقة---الدار البيضاء. ننبه إلى أنّ مسار الرحلة الأولى ل(سعد الله) من الدار البيضاء إلى الرباط لها نفس المسار مع هذه الرحلة، وإن لم يصرح بالطريق الّذي سلكه، لوجود إشارات دالة منها: واد المالح وواد شراط.

1. 2. 2. 2. 3– بنية الوصول: جرت العادة عند صاحب الرحلة أن يذكر زمن الوصول.ونحن في عصر السرعة طبعا ما كان يقطعه الرحال القديم في أيام وشهور نقطعه اليوم في ساعات؛ وهذه السرعة الكبيرة لوسائل التنقل هو ما قلّص من قيمة ودور هذا النوع من الكتابة، كما أعاق تقدمه وتطوره، ومنه يمكن أن نقول أنّ التّطور في وسائل الرحلة عدو كبير لهذا الفن وهذا ما أشار إليه فؤاد قنديل عند حديثه عن الأسباب الّتي أعاقت تطور هذا الفن .

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ،ص 221

[2] – المصدر نفسه، ص 221

[3] – المصدر نفسه، ص 221

يقول سعد الله:" وصلنا الدار البيضاء، حوالي العاشرة صباحا، لم نقض في الطريق سوى ساعة وربع."[1] والفارق الزمني بين رحلته الأولى والثانية، لا يشكك في صدق كلام (سعد الله)، بل يقويه؛ لأنّ ظروف السياقة تختلف من شخص لآخر، ومن وسيلة لأخرى، فالسفر في سيارة أجرة يختلف عن السّفر في سيارة خاصة.

1. 2. 2. 2. 4- التجوال في مدينة الدار البيضاء: هي بنية فرضت نفسها في هذه الرحلة، والمتولدة من بنية الوصول.لابد من التطرق إليها بإيجاز؛ لأبين الخدمة الكبيرة الّتي انجرت عنها في خدمة غرض الرحلة العلمي يقول الكاتب:" وذهبت وإياه(يقصد صديقه الجراري) نتجول في المدينة الكبيرة(يقصد الدار البيضاء).وأول حي توقفنا فيه هو(درب السلطان). وهو حي مليء بالمكتبات العربية من أعلى طراز. حيث توجد أحدث الكتب المغربية والمصرية واللبنانية. ومعظم ملاك المكتبات من المغاربة، ولكن هناك أيضا لبنانيون وفلسطينيون، ومن أسماء المكتبات العالقة بذهني: دار الإرشاد، دار الوحدة، دار الثقافة، دار أحياء علوم الدين..."[2] القول واضح يسفر عن الخدمة الّتي يقدمها التجوال لطالب العلم. وبخاصة منها التعرف على العديد من المكتبات، الّتي ذكر لنا بعضها، كما يقدم التجوال خدمة جليلة للمتجول منها التعرف على عادات وتقاليد ذلك البلد، والتمتع بجماله، وجمال عمرانه، ومظاهر أخرى قد تشد النّاظر إليها، وهذا ما أخبرنا عنه صاحب الرحلة بوصفه لهذه المدينة بقوله:" والدار البيضاء مدينة تجارية بكل معنى الكلمة.ففيها الشركات والبنوك المغربية، والأجنبية بأعداد ضخمة...وفي وسط المدينة حي تجاري للهنود...ورأيت لفظة(حلال) مكتوبة بالعبرية على واجهة بعض دكاكين اللّحوم.وتتمتع المدينة بساحات حديثة، وشوارع فسيحة تتخللها الفوارات والأشجار والحدائق..."[3] بنظرة سريعة من (سعد الله) استطاع أن يقدم نظرة اقتصادية اجتماعية وسياسية مختصرة ومكثفة لهذا البلد.

1. 2. 2. 2. 5- بنية العودة(الخاتمة):

بنية العودة في الرحلات القديمة كانت تسير على نفس الوتيرة الأولى ولكن بشكل مكثف، وبخاصة لما يكون الطريق، وأماكن العبور هي نفسها طريق الذهاب، وأنت تكتب عن بنية العودة تشعر بكلام كثير سكت عنه الكاتب، أبى إلا أن يتجاوزه يقول سعد الله: " وحوالي الساعة العاشرة مساء تحركت بنا السيارة نحو الرباط سالكة طريق المحمدية، وقد مررنا ببعض المنشآت الصناعية مثل مصنع العجلات...ومصنع آخر أظنه للعجلات أيضا."[4] هكذا أنهى (سعد الله) الحديث عن رحلة العودة، بذكر التوقيت العاشرة ليلا على المحمدية، واكتفى بذكر

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 222

[2] – المصدر نفسه، ص222

[3] – المصدر نفسه ص 222

[4] – المصدر نفسه، ص 223

بعض المناطق الصناعية.كأنّه لم يجد ما يدعو لذكره، أو تركه لإشعار آخر كما صرح به في طيات هذا الكتاب.

1. 2. 2. 3. – الرحلة من الرباط إلى مدينة سلا: أي رحلة مهما كانت طويلة، أو قصيرة لها نفس البنيات الّتي تتمتع بها غيرها مع بعض الانزياح، والرحلة الّتي اضطلع بها (سعد الله)من مدينة (الرباط) إلى مدينة (سلا) قصيرة جدا قدرها بحوالي (عشر دقائق) على متن الحافلة أي ما يقدر بحوالي خمسة عشر كيلومتر تقريبا حسب تقديري، وتقريبا ساعة ونصف سيرا على الأقدام حسب تجربة لي في اجتياز مثل هذه المسافة.ولقصر الرحلة مسافتا وزمانا كان الحديث عنها قليلا جدا يقول (سعد الله) متحدثا عن **انطلاقة** الرحلة:" وفي مساء نفس اليوم اقتنصتني جاذبية مدينة(سلا).فأخذنا الحافلة إليها...وعبرنا إليها قنطرة حديثة فوق وادي برقراق، تربط بينها وبين العاصمة، ووصلنا إليها في حوالي عشر دقائق فقط."[1]ولأنّ رحلته علمية بالدرجة الأولى نجده يولي اهتماما كبيرا للحديث عن الكتب الّتي وجدها تباع هناك على الأرصفة بدل المكتبات وهذا راجع ربما لانعدام مكتبات أو أماكن تباع فيها الكتب، ولأنه مؤرخ لم ينس إخبارنا ببعض المؤرخين الّذين أنجبتهم مدينة (سلا)وهذا ما يسفر عنه قوله:" وعندما دخلت(سلا) تذكرت المؤرخ الكبير(أحمد النّاصري السلاوي) صاحب(الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى).ودخلت المدينة العتيقة فلاحظت فرقا واضحا بينها وبين مدينة (الرباط) في المستوى الاجتماعي.وتجولت في سوقها الضيق فوجدت من بين مبيعاتهم كتاب(تنبيه الغافلين) و(كتاب الرحمة في الطب والحكمة)..."[2]، وبعدها ينتقل إلى الحديث عن **العودة** في عبارة قصيرة هي:" وأثناء العودة إلى الرباط."[3]

لكن رغم قصر الرحلة إلا أنها انطوت على العديد من العناصر الّتي شكلت معمارية هذه الرحلة، من انطلاقة(زمانا ومكانا)، وطريق عبور، وبنية تجوال، وعودة مرة أخرى إلى المنطلق وهو مدينة الرباط.

وفي الأخير يمكن أن نستنتج بأن رحلة (سعد الله) رحلة مركبة البنية، بنية كبرى زائدة بنية صغرى، والملاحظ من خلال وقوفي على البنية الشكلية للرحلة الموسومة ب:(رحلتي إلى المغرب) وجدناها تخضع على غرار الرحلات القديمة للبنية النمطية، من افتتاحية، وانطلاقة، وأماكن عبور ووصول إضافة إلى عنصر آخر فرض نفسه في رحلات (سعد الله) أطلقت عليه (بنية التجوال)(وكل هذه العناصر تجمعها كلمة(وسط) كما مر معنا في الفصل الثاني، وعودة(خاتمة). والاختلاف بين الرحلات القديمة والحديثة يكمن في وسيلة التنقل؛ وهذا الاختلاف هو ما جعل البنية الشكلية تنزاح عن البنية المعتادة(مقدمة/ افتتاحية، وسط، رحلة عودة/خاتمة) إلى مقدمة/افتتاحية، بنية كبرى، بنية صغرى عندما تكون الرحلة خارج البلد، ولا يتم تحقيق مآربه إلا برحلة أو رحلات داخلية. ويمكن لنا

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 229

[2] – المصدر نفسه: ص229

[3] – المصدر نفسه، ص 229

أن نمثل للبنية الشكلية لرحلة سعد الله (رحلتي إلى المغرب) بالشكل التالي:

المقدمة أو التمهيد:(مجموع عناصر).

الوسط: ويضم بنيتين هما:

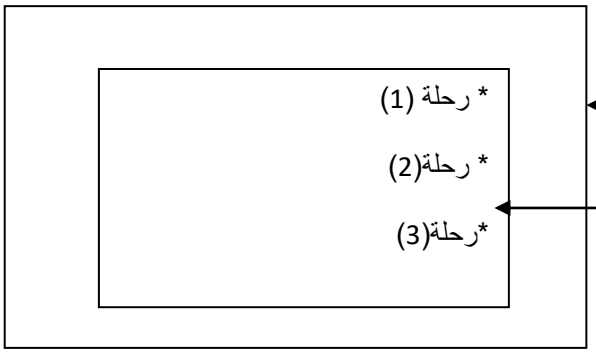

بنية كبرى:(من الجزائر إلى المغرب)

بنية صغرى:(ثلاث رحلات داخلية).

الخاتمة:(إشارات تدل على العودة).

خطاطة رقم(1) توضح البنية في الرحلة(رحلتي إلى االمغرب).

2- البنية الشكلية في رحلته الموسومة ب:(رحلتي إلى الجزيرة العربية):

الرحلة هذه من الرحلات المهمة في حياة (سعد الله)، لأنها رحلة جمعت بين زيارتين: زيارة إلى البقاع المقدسة ، وزيارة لحضور ندوة علمية؛ فقد جمعت بين النشاط العلمي والروحي معا، فالفرصة المتاحة له سمحت له بزيارة مكانين مقدسين هما (مكة،) و(المدينة) المنورة، وأمور أخرى سنتعرف عليها عند الحديث عن عناصر ومكونات الافتتاحية؛ الّتي افتتح بها الرّحال حديثه عن رحلته إلى (الجزيرة العربية).ونحن هنا نحاول التعرف على البنيات الّتى بنيت بها هذه الرحلة، وبعد القراءة المتمعنة حاولت أن أجد لها بنية حسب ما هو وارد في نص الرحلة؛ فوجدتها لا تخرج عن سابقتها أقصد(رحلتي إلى المغرب) من افتتاحيّة ورحلة خارجية نعتها ببنية كبرى وضمن هذه البنية مجموع رحلات في البلد المرتحل إليه نعته بالبنية الصغرى؛ وأول هذه البنيات :

2. 1- بنية الافتتاحية/ المقدمة: جرت العادة عند أصحاب الرحلة أن يستفتح رحلاتهم بمقدمات أو افتتاحيات، تختلف عناصرها من رحلة إلى أخرى، وهذا ما عهدناه في نصوص الرحلة القديمة.والرحلة الّتي بحوزتنا لم تخرج عن النمط السالف إلا من حيث العناصر المشكلة لهذه البنية نستعرض بعضها كالتالي:

2. 1. 1- التنويه بالسفر والاستعداد إلى الجزيرة العربية: يقول سعد الله: " السّفر إلى الجزيرة العربية ليس كالسّفر إلى أي جهة أخرى.فإذا كنت في بقية الأسفار تستعد ماديا للسّياحة أو لحضور اجتماع دولي أو لأداء مهمة رسمية. فإنّك بالنسبة إلى (الجزيرة العربية) تستعد قبل كل شيء استعدادا روحيا مهما كان غرضك المادي من السّفر سيما إذا كان سفرك إليها لأول مرة كما كان الحال بالنسبة لي."[1] فالسفر في نظر (سعد الله) إلى هذا البلد يعد سفرا من نوع آخر لا يكفي فيه الاستعداد المادي فقط، بل هو بحاجة إلى استعداد ثاني: هو استعداد روحي ونفسي لقداسة المكان.

2. 1. 2- ذكر دوافع رحلته إلى الجزيرة العربية: يبلغنا (سعد الله) عن دوافع رحلته قائلا: " ذلك أنّه طالما راودني الخاطر للسّفر إليها استجابة لنداء روحي داخلي، وحبا في الدراسة والاطلاع، وربطا للماضي بالحاضر.[2] وأيضا من هذه الأسباب قوله:" فمنذ اتصلت من جامعة الرياض بدعوة للمشاركة في النّدوة الّتي تنظمها عن مصادر تاريخ الجزيرة عزمت على تحقيق أمنيتي القديمة، وشرعت في الاستعداد الروحي والمادي معا."[3] ومن هذا يمكن تقسيم دوافع الرحلة إلى :

[1] - أبو القاسم سعد الله:تجارب في الأدب والرحلة، ص235

[2] - المصدر نفسه، ص 235

[3] - المصدر نفسه، ص 235

2. 1. 2. 1– دوافع غير مباشرة منها : نداء روحي لطالما راوده بالرحلة إلى هذه البقعة الطاهرة لتأدية منسك ديني(حج أو عمرة)، من أجل الدراسة، وطلب العلم.

2. 1. 2 2– دوافع مباشرة: تمثلت في المشاركة في الندوة العلمية الّتي انعقدت فعالياتها آنذاك بالرياض، والّتي يدور فحواها عن 'مصادر تاريخ الجزيرة العربية'. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ الرحلة علمية.

2. 1. 3 – ذكر عنوان بحثه المقدم في النّدوة ومكان نشره:

لم يبخل (سعد الله) بإخبار قرائه عن عنوان بحثه ومكان نشره، يقول: " وقد رأيت أن أنسب موضوع لهذه النّدوة هو الكشف عن كتابات الجزائريين عن الجزيرة العربية وبعد الدراسة لجوانب الموضوع الزمنية، والنّوعية استقر الرأي على أن يكون بحثي عن(الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني)."[1]

2. 1. 4– منهج كتابة الرحلة: يستعرض (سعد الله) الطريقة المنتهجة في تأليف رحلته إلى الجزيرة العربية قائلا:" وقد سجلت، كعادتي في كل بلد أزوره، يوميات وانطباعات، ومشاهدات...وقد تجمع لدي من ذلك كراسة لو نقحت وطبعت لجاءت في مجلد وسط.وليس في نيتي الآن ولا في إمكاني نشر كل ما سجلت من يوميات وانطباعات.وحسبي أن أستعرض جوانب من هذه الرحلة تتعلق خصوصا بموضوع هذه الندوة الّتي دعيت إليها وما يمت إليها بصلة من زيارات وحفلات ومشاهدات وأحاديث وقراءات."[2] اقتصر (سعد الله) عرض ما يتعلق بالندوة الّتي حضرها، وكل ما رافقها من أحداث كلقاء علماء التاريخ، والأدب تاركا الأمور الأخرى لإشعار آخر؛ فهو يتّبع أسلوب الانتقاء.

2. 1. 5– ذكر مكان انعقاد الندوة: ينبئنا (سعد الله) عن مكان انعقاد الندوة بقوله: "وقد انعقدت الندوة في مدينة الرياض. "[3]

2. 1. 6– مجال الرحلة: يحدد (سعد الله) مجال رحلته بقوله:" فهي تغطي زيارتي لعاصمة المملكة العربية السعودية وللمدينتين الشريفتين: مكة والمدينة، وما وقع لي في هذه الأماكن مما يمكن البوح به الآن."[4] القول جلي لا يحتاج لشرح.

2. 1. 7– مجال الكتابة: حدد لنا (سعد الله) مجال بداية التأليف والكتابة لحوادث الرحلة بقوله:" وقد بدأت

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 236

[2] – المصدر نفسه، ص 236

[3]– المصدر نفسه، ص 236

[4] – المصدر نفسه، ص 236

تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا إلى مطار جدة عائدا."[1] فأول حدث دون كان من مطار الجزائر إلى آخر حدث دونه كان من مطار جدة عائدا.

2. 2– بنية العرض/الوسط: ويمكن تقسيمها إلى رحلتين هما:

2. 2. 1 – رحلة خارجية: ونقصد بها الرحلة الّتي كان منطلقها من **الجزائر** إلى **جدة**، وقد أسفرت على مجموعة من البنى على غرار الرحلات القديمة منها:

2. 2. 1 1– الانطلاق(الذهاب): جرت العادة أن ينبئنا الرحال عند كتابة الرحلة، بزمن ومكان المنطلق منه، وهي من اللّبنات الأساسية في أي رحلة مهما كان نوعها، حيث لا تخلو رحلة من هذا العنصر؛ فوجوده يكفل لنا معرفة انتماء النص لأدب الرحلة، وتأكيد واقعيته وفعليته. و(سعد الله) قد صرح بزمن الانطلاق ومكانه، ويظهر هذا في قوله:" فقد كان سفري يوم 21أبريل صباحا، سنة 1977 وفي مطار الجزائر خضعت لتفتيش دقيق..."[2] فقد تضمن زمن الانطلاق ومكان المنطلق وهو مطار الجزائر.

2. 2. 1. 2– أماكن العبور: مستحيل وجود رحلة دون أماكن عبور، لكن منهم من يذكرها كلها، ويظهر بشكل واضح في الرحلات القديمة، ومنهم من يذكر بعضها كما في الرحلات الحديثة، ومنهم يعرض عن ذلك كله.أما في هذه الرحلة، فيقوم (سعد الله) بذكر أهم الأماكن الّتي مر عليها قبل أن يصل إلى وجهته(جدة) والأماكن هذه كلها مطارات لدول شقيقة، يقول:" وقد توقفت بنا(يقصد الطائرة) في مطار تونس ومطار طرابلس، ومنه مباشرة إلى مطار جدة."[3]

2 .2. 1. 3– الوصول: يقابل كل انطلاقة وصول.وقد تم لنا معرفة اسم المكان المتوجه إليه (سعد الله) في كذا موضع من هذه الرحلة.وهو(جدة) يقول سعد الله:" وصلنا مطار جدة حوالي الحادية عشر والربع مساء بالتوقيت المحلي."[4] إلى حد هنا(أقصد مطار جدة) تنتهي (الرحلة الخارجية. يمكن التمثيل لها بمخطط كي يتيسر الأمر: **من مطار الجزائر---مطار تونس ---مطار طرابلس---مطار جدة .**

2. 2. 1. 4 – طريق العودة(الخاتمة) :

لكل وصول رجوع . وعودة (سعد الله) تبدأ من نقطة الوصول، وهي جدة الّتي كانت نقطة وصول لتتحول

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ،ص237

[2] – المصدر نفسه، ص 237

[3] – المصدر نفسه، ص 238

[4] – المصدر نفسه، ص238

وتمسي نقطة إياب يقول سعد الله:" وبعد ساعتين من الانتظار الإضافي ركبنا طائرة سعودية أخرى غير الّتي كانت مقررة، حملتنا إلى (القاهرة) في ظرف ساعتين.وعندما صعدت الطائرة في سماء جدة، وحومت فوق الميناء، وسارت محاذية لضفاف البحر الأحمر."[1] القول يجلي لنا أمرين أولها: مكان المنطلق وهو(جدة) حينما قال:(وعندما صعدت الطائرة في سماء جدة)، ومسار العودة، يمكن رسم مخطط توضيحي له كالتالي: **من مطار جدة ـــ مرورا بميناء جدة ـــ بمحاذاة البحر الأحمر ـــ القاهرة(مطار) ـــ إلى الجزائر**.وهذا الأخير معلوم بالضرورة وإن لم يصرح به.لكن لا يمنع من ذكر بعض القرائن الّتي تدل وتؤكد عودة (سعد الله) إلى بلده الجزائر كما هو معلوم.من هذه القرائن قوله:"...كانت خواطري موزعة.فالحنين إلى مهبط الوحي، ومنبت العربية يشدني إليه، والشوق إلى **مسقط الرأس** ومراتع الأهل والخلان تناديني بألف صوت...ثم وليت وجهي نحو **المغرب** مرددا مقالة الخليفة العظيم(عمر ابن الخطاب): يا أهل المغرب مغربكم!".[2]

2 .2 .2– الرحلات الداخلية : ونقصد بها الرحلات الداخلية الّتي اضطلع بها (سعد الله)كي يصل لمكان الهدف، مكان انعقاد الندوة وهو(الرياض).بداية من مطار جدة(ذهابا) وتنتهي في مطار جدة(عودة) مادامت رحلة فإنّ لها نفس العناصر الّتي توفرت في الرحلة الخارجية وهي:

2. 2. 2. 1 – من جدة نحو مدينة الرياض: على منوال الرحلات الأخرى انبنت هذه الرحلة ؛ فكانت بنيتها كالتالي :

2. 2. 2. 1. 1–ما قبل الرحلة / البنية الافتتاحية : قبل انطلاق (سعد الله) إلى المكان الهدف(الرياض) جرت له بعض الأمور يمكن عدها من قبيل البنية الافتتاحية لرحلات داخلية؛نذكرها باختصار في مجموعة من النّقاط هي:

– المخاوف الّتي انتابت المسافرين(سعد الله والوفد المرافق له) بعد وصولهم لمطار جدة، وهم في غاية الإرهاق، ومن جملة هذه المخاوف يقول سعد الله:" فليس هناك طائرة خاصة ولا عامة متوجهة إلى(الرياض) قبل السادسة صباحا، ومعنى ذلك أنّ علينا أن نبيت في مكان ما.أما الفنادق فليس هناك حجز لنا فيها.ثم أنّه لم يبقى إلا بعض الساعات على موعد سفر الطائرة إلى الرياض...."[3]

– تبددت مخاوف سعد الله والوفد المرافق له، "بعد لأي وعناء كادا أن ينالا منا، تلاشت بإذن الله هذه

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 255

[2] المصدر نفسه، ص255

[3] المصدر نفسه ، ص 238

المخاوف بعد ظهور منقذ من السّماء على حد تعبير (سعد الله)؛ فهو يخبرنا عن أسماء الّذين أنقضوا هذا الوفد وأدخلوا عليه البسمة والفرحة قائلا:" والمنقذ الأول هو الدكتور (ناصر الرشيد)، الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة والّذي كان عائدا من المغرب في إطار الأسبوع الثقافي السعودي هناك...أما الثاني فهو الأستاذ(محمد الزلفة الّذي كان عائدا إلى السعودية لحضور النّدوة من الولايات المتحدة، حيث يدرس التاريخ هناك.[1] فقد تولى المنقذون حل المشاكل الّتي أحبطت معنويات المسافرين.من حجز في أول طائرة، وحضرور الطعام والشراب...وغيرها .

2. 2. 2. 1. 2– بنية الانطلاق والوصول: هي رحلة فريدة من نوعها.رحلة داخلية على متن طائرة، يمكن عد (سعد الله) من السبّاقين الّذين تكلموا على مثل هذا النوع من السّفر من طائرة إلى طائرة هذا من باب التنويه فقط نعود لما نحن فيه.يقول سعد الله متحدثا عن زمن ومكان الانطلاق والوصول: " وحوالي الساعة السادسة توجهت بنا الطائرة العمومية في أول رحلة صباحية لها إلى(الرياض).وقد استغرقت الرحلة حوالي ساعة."[2] فمكان الانطلاق معلوم بالضرورة وهو(جدة) ووقت الانطلاق السادسة صباحا، وزمن الوصول السابعة صباحا ومكانه هو(الرياض).

2. 2. 2. 1. 3– بنية العودة: لكل بداية نهاية.وهذه الرحلة لها نهاية؛ لكن قبل التحدث عن النهاية أو العودة يجب أن نتكلم عن تحركات (سعد الله)داخل هذا البلد الإسلامي الكبير والّتي تعد بمثابة بنيات أخرى داخل البنية الصغرى وهي كالتالي :

– زيارة الدرعية: يقول سعد الله:" أما الزيارات فقد تضمنت خاصة زيارة(الدرعية) منشأ الدولة السعودية الأولى.وهي تبعد عن الرياض بعدة كيلومترات فقط...وفي الطريق إليها مررنا بعدة قصور ملكية وأميرية حول مدينة الرياض."[3]

– من الرياض إلى المدينة المنورة: لحسن حظ (سعد الله) أنّه لم يذهب إلى زيارة(العلا) و(مدائن صالح).كما كان مخططا؛ فكان تخلفه غير المقصود مع تلك الوفود(وفد المغرب، وفد تونس، وفد اليمن...) نعمة لا نقمة، بعد إثمار إلحاح وفود المغرب العربي بقبول الإخوة السعوديين وسماحهم لنا بزيارة المدينة المنورة يقول سعد الله:" ولم أكد أصدق أنّني أسير على تراب المدينة، وأنظر إلى جبالها ونخيلها..."[4]

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة ، ص 239

[2] المصدر نفسه، ص 239

[3] المصدر نفسه، ص 245

[4] المصدر نفسه، ص 249

– **من المدينة إلى جدة(مكة):** يقول سعد الله:" وتوجهنا إلى المطار(مطار المدينة المنورة)...وعندما اجتمع الشمل أديت صلاة المغرب بمسجد المطار وودّعت تراب المدينة(المدينة المنورة). ثم استقللنا الطائرة إلى جدة.[1] بعد وصول (سعد الله) إلى هذه البقعة الطاهرة والآمنة(جدة) قصد هو والوفد المرافق له " مكة المكرمة بالحافلة في نفس اللّيلة." [2]وسعى سعيه لتحقيق غايتين هما كما قال:" عكفت على تحقيق أمرين، الأول إشباع فضولي الديني، والثاني إشباع نهمي العلمي."[3] يقول عن تحقيق الغاية الأولى وهي أداء العمرة:" وقد حققت الأولى عن طريق مجاورتي للحرم بحيث لا أكاد أخرج إلا للضرورة."[4] وعن تحقيق الغاية الثاني يصرح:" حققتها عن طريق قضاء عدة ساعات في مكتبة الحرم المكي ومكتبة الحرم."[5]

– من مكة إلى جدة(المطار): هي آخر محطة ل(سعد الله) في هذا البلد، منها إلى بلده كما قد وضحنا في البنية الكبرى، من مزية هذه المحطة أنها شكلت نقطة انطلاقة، ونقطة إياب في الرحلة الداخلية.كما شكلت نقطة وصول، ونقطة رجوع في الرحلة الخارجية(من الجزائر إلى الجزيرة العربية). نهاية الرحلة الداخلية كانت " يوم الخامس من مايو 1977...وقد دل امتداد مدخل جدة من جهة مكة على تضخم جدة وامتدادها...وكان المفروض أن نصل إلى مطار جدة حوالي السابعة، ولكننا بكرنا فوصلناه حوالي السادسة."[6].صاحبنا لم يترك الساعة تذهب سدا؛ فقد استغلها في التجوال كعادته يقول " فخرجنا نتجول في أسواقها القريبة."[7].

هكذا أنهى (سعد الله) رحلته، بعد انجاز ما جاء لأجله.إضافة إلى حسن الحظ الّذي حالفه؛ فقد تمكن من تأدية عمرة.أما الحديث عن البنية في هذه الرحلة فهي لا تخرج عن نظيراتها في الرحلات القديمة مع وجود بعض الانزياح لاختلاف وسيلة النقل الّتي تتميز بالسرعة.ولتوضيح البنية في هذه الرحلة نرسم هذا المخطط لتوضيح البنية بشكل أسهل:

أولا: البنية التمهيدية:(مجموعة عناصر)

ثانيا: البنية الكبرى/ الرحلة الخارجية: الرحلة من الجزائر إلى جدة.

[1] – أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة،ص251

[2] – المصدر نفسه، ص251

[3] – المصدر نفسه، ص 251

[4] – المصدر نفسه، ص 251

[5] – – المصدر نفسه ، ص 252

[6] – المصدر نفسه ، ص 254

[7] – المصدر نفسه، ص 254

الوسط: يضم البنيات التالية ::

– بنية الانطلاق: الجزائر(مطار).

– مسارها: الجزائر– تونس(مطار)– ليبيا(مطر).

– بنية الوصول / الإياب:جدة(مطار) إلى الجزائر(مطار).

ثالثا: البنية الصغرى(الرحلات الداخلية): الرحلة من جدة إلى الرياض:

منطلقها: جدة

– مسارها: من مطار جدة ذهابا---- إلى الرياض وصولا.

– بنية التجوال: زيارة الدّرعية، المدينة المنورة – مكة –جدة(مطار)

.

–الخاتمة(بنية العودة): وجود بعض الإشارات الدالة على رحلة العودة (من مكة إلى جدة).

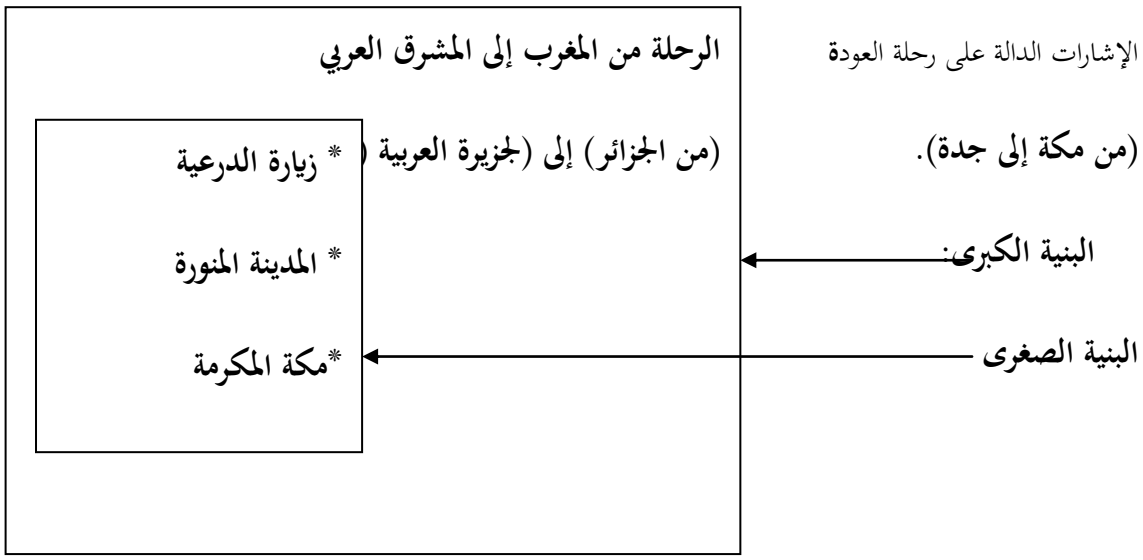

خطاطة رقم(2)توضح البنية في الرحلة إلى الجزيرة العربية.

3- البنية في رحلته الموسومة بـ: (ربيع في سوف):

الرحلة هذه هي من الرحلات الداخلية، الّتي قام بها (أبو القاسم)إلى مدينة من مدن هذا البلد الغالي(الجزائر) وهي مدينة(واد سوف) كما هو مبين في الرحلة، وهي مسقط رأس الكاتب قام بها ربيع 2008م لزيارة العائلة والأقارب كعادته.لكن هذه المرة آثر على نفسه تدوين مشاهداته، وانطباعاته وغيرها عن الحياة الاجتماعية الّتي يعيشها أهل مدينته نتيجة التعسف واللامبالاة من المسئولين... والرحلة الّتي بين أيدنا كغيرها من رحلات (سعد الله) الّتي تم دراسة بنيتها ، حيث وجدناها لا تخرج عن البنية المعتادة إلا فيما دعت إليه الضرورة.فهي تتأسس على بنية تمهيدية وبنية ذهاب وبنية وصول ؛ الّتي هي الأخرى تولدت عنها بنيات صغرى أطلقنا عليها بنية التجوال وأخيرا بنية العودة.وهذا ما سأبينه في هذه العجالة:

3. 1- بنية الافتتاحية: دأب (سعد الله)على افتتاح رحلاته، بافتتاحية تمهيدية لما هو بصدد الحديث عنه؛ وهذا ظاهر من عنوان الرحلة(ربيع في سوف). وجاءت الافتتاحية قصيرة –فقرتين- أبان فيهما الحياة الربيعية في هذه المنطقة باعتبار أنّه أدرى منا بها؛ لأنّها مسقط رأسه ومرتعه وموطن أهله. هذه الافتتاحية تأسست على فقرتين كل فقرة عالجت فكرة عن الربيع في سوف، وبعدها يشرع في سرد أحداث الرحلة ووقائعها وهي كالآتي:

- النّفي التام لمظاهر الربيع المعروفة عند جل النّاس في واد سوف أو كما هي معروفة عند الشعراء.يقول سعد الله:" من يصف الربيع(المختال الضاحك) في سوف يكون خارج الزّمن لأنّ الربيع بمظاهره الطبيعية المعروفة عند النّاس وعند الشعراء لا أثر له في سوف.فلا براعم تستقبل الحياة الجديدة بالأوراق والثمار، ولا زهور تتنفس الهواء النقي لتضمخ الحقول بالعطر، ولا عصافير تغرد على الأغصان، ولا جداول يترقرق ماؤها..."[1]

- التعريف بربيع سوف: يقول عن ربيع سوف:" فأنت تجده في هبات الزوابع الرملية، الباردة أحيانا والساخنة أحيانا أخرى، وفي موسم التقلبات الجوية، حيث لا أنت في الخريف وحصاده من التمر والذخان، والخضر، ولا أنت في الصيف الشديد الحرارة...ولا أنت في الشتاء...الربيع في سوف إذن هو موسم خروج الحيات من مخابئها والحشرات من جحورها...وبدء عمليات الزحف على الإنسان للدغه وعضه...."[2]

3. 2- بنية الذهاب: يسفر عن هذه البنية قوله:" زرت سوف في شهر مايو "[3] إذا الكاتب قام بزيارة إلى (واد سوف) في شهر ماي، لكن لم يذكر السنة الّتي زار فيها سوف.لكن نستطيع استنتاجها من الرحلة فهو يذكر

[1] أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2011م، ص161

[2] المصدر نفسه، ص161

[3] المصدر نفسه، ص161

بصيغة الماضي سنة 2006[1] مما يعني أنّه في سنة أخرى، والرحلة نشرت في جريد الشروق اليومي سنة 2008م النتيجة أنّ زمن الرحلة هو 2007م أو 2008م. والأغلب هو 2008م، حسب تقديري الشخصيهذا عن الزمن. أما المكان الّذي نزل فيه بالضبط هو مصرح به في الرحلة عندما تكلم عن(البدوع) هو مدينة(قمار) يقول:" إذا كنت تزور وادي سوف لأول مرة على متن الطائرة، فإنّك ستنزل في قمار الّتي فيها مطار الوادي."[2]

– 3. 3 بنية الوصول :

هناك قرائن يمكن من خلالها إدراك هذه البنية منها:" فلم أجد في المطار(مطار سوف) مثلا سوى الورود الاصطناعية الّتي تشعرك بموت الطبيعة وخريف العمر."[3] فكلمة(المطار) و(الورود الاصطناعية) تظهر أنه في أرض صحراء استناد لما قد جاء في التمهيد لهذه الرحلة. وتحت هذه البنية تولدت بنيات صغرى، يمكن نعتها ببنية التجوال، وهي كالتالي:

3. 3 1 – **منزل العائلة**: أول مكان قصده (سعد الله) هو منزل العائلة يؤكد ذلك من الرحلة قوله:" ولم أكد أصل منزل العائلة حتى كنت مبتلا بالعرق."[4]

3. 3 2– **بلدة قمار(الشارع الرئيسي)**:دائما رفقة قريبه على متن سيارته قاما كلاهما بجولات بين مدن، وقرى(واد سوف) هذه المرة اتجها نحو بلدة(قمار).يقول واصفا مدخلها ومدخلها الّذي أصابه التغيير:" فقد تحولت في سيارة قريبي في الشارع الرئيسي الّذي زينوا به مدخل ومخرج البلدة، فجعلوه طريقا مزدوجا محفوفا بالدكاكين الجديدة والأشجار المسقية والعشب المغروس..."[5]كما توقف عند بعض الأماكن الّتي أثارت اهتمامه منها:

3. 3 3 –* **الرحبة العتيقة(القصبة)**: هاهو الرّحلة يقدم لنا تعريفا لهذا المكان، بحكم أنّه عاش فيه.يقول:" كانت مجمعا للتجار يكتظ يوم الجمعة، بجموع المتسوقين القادمين من أنحاء المنطقة، وأيضا مجمعا لأصحاب الحرف من الحدادين والنجارين والحلاقين..."[6]

3 3 4– **مجمع رسمي**: لأنّ (سعد الله) يهتم لأبناء منطقته حزه إلا أن يدافع عن هذا المشروع المعلق منذ سنين ، والّذي صار مأوى ومرحاضا اللمتسكعين، يقول واصف حالته الّتي يتفطر لها القلب:" ومهما كان الأمر فإنّ

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 165
[2] المصدر نفسه، ص169
[3] المصدر نفسه، ص 161
[4] المصدر نفسه، ص 162
[5] المصدر نفسه، ص 162
[6] المصدر نفسه، ص 163

حالة مجمع الحرف والصنائع الجديدة أصبحت تدعو للرثاء والحزن، فهو غير محمي بسياج، لذلك فهو مفتوح للرياح كخيمة البدوية العربية التي فضلتها على القصر المنيف...وحول الدكان إلى مرحاض للمتسكعين ليلا ، وأصبح المجمع مأوى للمعربدين...أما أبواب الدكاكين الأخرى والحيطان فقد اتسخت وامتلأت بالكتابات العبثية.."[1]

3. 3. 5- **المركز الجامعي**: يصف (سعد الله) هذا المركز قائلا:" في ولاية الوادي مركز جامعي قديم/ جديد، ولا عيب فيه سوى أنّه يعاني مما تعانيه الجامعات والمراكز الجامعية الاخرى، ونعني بذلك الروح المحلية الضيقة، وسذاجة التكوين.ذلك أنّ معظم الأساتذة وأعضاء الإدارة وجميع الطلبة تقريبا هم من نفس المنطقة."[2] يرفض (الكاتب) هذا الإنغلاق الثقافي الّذي أصاب جامعات الجنوب الجزائري ، ويدعوا للتفتح وتلاقح الأفكار ؛ وذلك بتغيير السياسة المنتهجة ، وتوسيع دائرة التوظيف في الجامعات من كل الولايات.

3. 3. 6- **دارالثقافة** (الأمين العمودي): من الأماكن التي زارها الكاتب(دار الثقافة) الّتي قال عنها منوها بجهودها أنّها:" تقوم بتكريم المبدعين والمفكرين على المستويين المحلي والوطني.و هي كذلك تقوم بإحياء المناسبات الوطنية وتدعو لها المحاضرون، وهو الأمر الّذي يجعل ولاية الوادي قطبا جاذبا للمثقفين..." [3] منطقة الوادي منطقة ذات حركة فكرية وثقافية نشطة، لذا تعد قبلة للمثقفين والمفكرين، والأدباء، رغم خلو المنطقة من ربيع جميل، وحدائق غناء إلا أنّ الله أبدلها لباسا ثقافيا وفكريا وعلميا كان لها العزاء الوحيد لها ولسكانها كما قال سعد الله:" فكان ذلك هو عزائي حين اشتد القيض ونضب الفيض ووقفت الشمس في كبد الّماء."[4]

3. 3. 7– البدوع: هذه المدينة الصغيرة المعزولة، والسجينة بين سياج المطار وسيوف الرمال كما وصفها (سعد الله) ، "الّتي لا يفصلها عن المطار سوى مدرجه والسّياج، الّذي يمنع من عبور المدرج."[5] هي مسقط رأس (سعد الله)كما هو مبين في الترجمة له.

3. 4– بنية العودة: لكل ذهاب إياب، أما عودت (سعد الله)هذه المرة لا تشرف فقد رجع وكله هموم وغيظ وألم على الأوضاع المزرية والفظيعة التي ترك فيها(البدوع).يقول:" أما أنا فقد رجعت إلى العاصمة تنهشني حمى بلغت 39 درجة ويوجعني حزن عميق على الانفصام بين السلطة والنّاس.وأمّا(البدوع) فقد تركتها في بؤس نهارا

[1] أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص165
[2] المصدر نفسه،ص 166
[3] المصدر نفسه ، ص167
[4] المصدر نفسه ، ص 168
[5] المصدر نفسه ، ص169

وظلاما.فكيف يتمتع مثلي بالربيع ولو كان في سوف."[1] الملاحظ من هذه البنية أنها لم تأت على منوال الرحلات القديمة، فنحن لا نرى لوصف لأماكن العبور ولا ذكر لزمن الرجوع...فقد تركها مفتوحة للقارئ يتخيلها كيفما شاء.

إذا لهذه الرحلة بنية نمطية، مع وجود لبعض الانزياح في بنية العودة الّتي عوّدنا عليها الرحالة القدامى في نصوص رحلاتهم، يمكن أن نمثل لها بهذا المخطط.

أولا: بنية الافتتاحية: مجموعة عناصر، ثانيا: الوسط: الوسط: ضم بنية الانطلاق وال

ثالثا الخاتمة: بنية العودة.

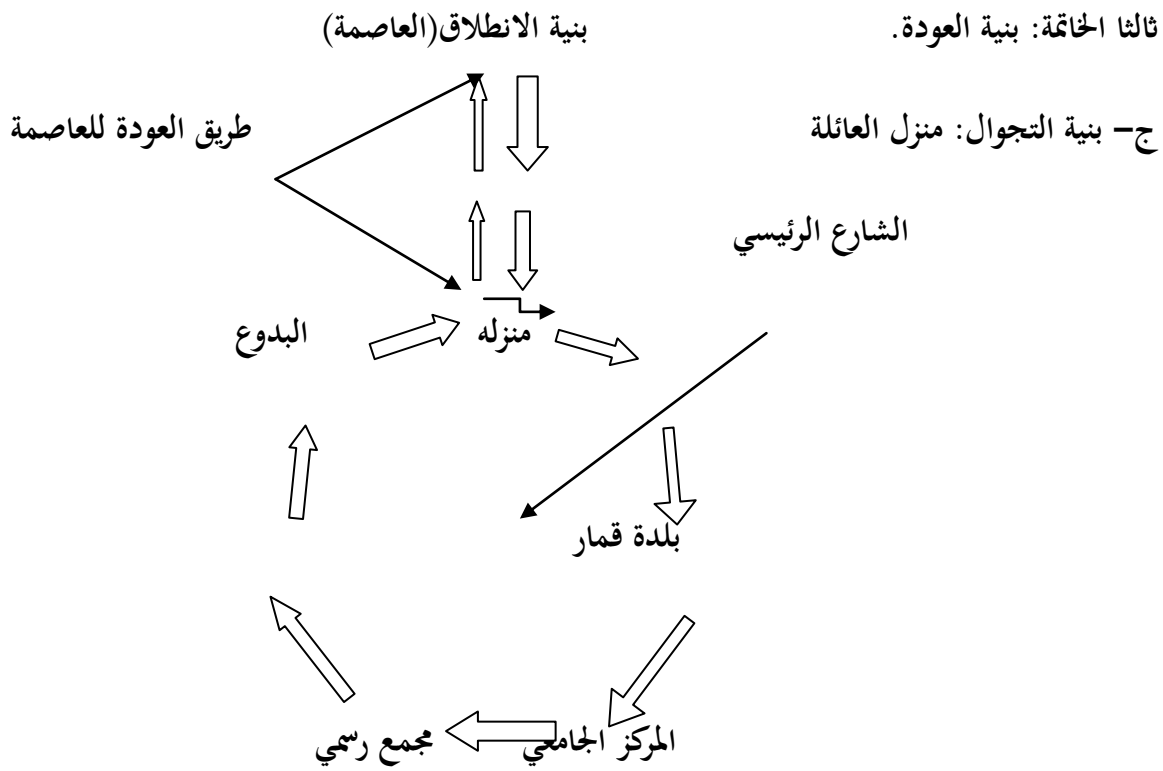

خطاطة رقم(4) توضح بنية الرحلة و(السفر) إلى(وادي سوف)

.

[1] أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص 171

4- البنية في رحلته الموسومة بـ :(رحلة سعد الله لخنقة سيدي ناجي):

هذه الرحلة أو (الزيارة) حسب تعبير الكاتب هي من الرحلات الداخلية، الّتي قام بها(أبو القاسم سعد الله) إلى قرية من قرى الجزائر العريقة، هي(خنقة سيدي ناجي).قال عنها(الحسين الورثيلاني) في رحلته أنّها " قرية مباركة طيبة ذات نخل وأشجار في وسط واد بين جبلين، وقد قيل: أنها تشبه مكة في وضعها، وفي البركة..."[1] وكان ذلك يوم فبراير عام 1980م رفقة كل من الأستاذ(علي باشا)، والأستاذ(ميموني الغسيري)، والشيخ(الأخضر الخنفي). وهذه الرحلة كغيرها من الرحلات تحكمها بنية كغيرها من الرحلات هي بعد بنية السّفر: افتتاحية بمثابة تمهيد موجز للرحلة، بنية انطلاق أو ذهاب(زمانا ومكانا)، أماكن عبور، بنية الوصول، بنية التجوال، بنية العودة أو الإياب.

4. 1-افتتاحية /تمهيد: اعتاد (سعد الله) في كل رحلاته أن يقدم فاتحة تنير لقارئ الرحلة بعض المغاليق الّتي قد تعيق فهمه لمضمون الرحلة.في هذه الرحلة بدأها صاحبها بتمهيد موجز ضمنه بعض الأخبار عن(الخنقة) وعن أهم من تكلم عنها من الرّحالة في العهد العثماني، وهي على هذا الشكل:

- التنويه بهذه القرية وبآثارها الخالدة إلى اليوم.

- الحنين القوي لزيارة(الخنقة)الّذي ينتاب كل من يقرأ عنها.

- ذكر تضمين مآثر هذه القرية في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي.

- ذكر بعض من تكلم عن هذه القرية من الرحالة في رحلاتهم.

- يسفر القول عن نمط الرحلة وهي من قبيل الرحلات الاستكشافية.

4. 2- الانطلاق/ الذهاب: هي من البنى الأساسية في كل رحلة، وإن اختلفوا في تناولها؛ لكن (سعد الله) على غرار رحلاته الأخرى يعطي أهمية بالغة لهذه البنية فيذكر اليوم والشهر والسنة، وحتى الساعة الّتي خرج فيها والفصل وهو معلوم بالضرورة: فصل الشتاء.يقول:" ففي يوم 8فبراير 1980م توجهت بكرة(الساعة السادسة صباحا) رفقة الأستاذ علي باشا،...والأستاذ(ميموني الغسيري) والشيخ(الأخضر الخنقي).إلى(خنقة سيدي ناجي)انطلاقا من بسكرة."[2]

[1] - الحسين بن محمد الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، ص 266، 267

[2] - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص257

4. 3– أماكن العبور /مسار الرحلة: قبل بنية الوصول لابد من مسار، أو أماكن يعبر عليها الرّحال مهما كان زمن الرحلة، والمسافة المجتازة. وفي هذه الرحلة نذكر بعض هذه الأماكن الّتي تقودنا إلى قرية(الخنقة)، وعنها حدثنا (سعد الله) قائلا: " وفي الطريق مررنا بإزاء مدينة سيدي عقبة، وزريبة الواد، وبعض القرى الأخرى، ولم يبق بيننا وبينه سوى بضع كلمترات، وحين اقتربنا من الخنقة كاد(جبل ششار) يسد الطريق في وجوهنا...وتقدمنا تدريجيا في(طريق بين الجبل ووادي العرب) فإذا العمران القديم يكثر..."[1] ويمكن رسم خط سير(أبو القاسم سعد الله) إلى(الخنقة)كالتالي: بسكرة -- مدينة سيدي عقبة -- زريبة الواد-- بعض القرى -- ليانة -- جبل ششار -- طريق بين الجبل ووادي العرب.إلى أن وصل إلى الخنقة.

4. 4 – بنية الوصول: هذه المرة لم يذكر (سعد الله) الوصول مباشرة لصغر القرية، وسكانها متفرقين هنا وهناك؛ فاكتفى برسم صورة مبسطة من مدخل هذه القرية، انطلاقا من(واد العرب)حتى(الساحة) القريبة من ديار(أولاد حسين).يقول سعد الله:" وتقدمنا تدريجيا في طريق بين الجبل ووادي العرب فإذا القديم يكثر وإذا النّاس في زيهم المحلي(البرانس أو القشبية) يختلفون في الأزقة وعند الدكاكين القليلة إلى أن وصلنا ما يشبه الساحة قريبا من ديار أولا حسين." [2] إذا هذه هي(الخنقة) وصفة سكانها بمنظار صاحب الرحلة.

4 .5– بنية التجوال: تتجلى هذه البنية في مجموع الزيارات الّتى اضطلع بها (سعد الله)مع رفاقه في هذه الرحلة منها:

– دار السيد الدريدي: يقول (سعد الله) " فقد استضافنا السيد الدريدي بداره على العسل والجوز.[3] **– وادي العرب:** يضطلع (سعد الله) بتقديم وصف لهذا الواد و(الخنقة) من هذا المكان لارتفاعه.يقول:" وعند خروجنا من دار السيد الدريدي توقفنا عند وادي العرب العظيم الّذي تحوط به الدور من جهة والنخيل وأشجار الفاكهة والخضر من جهة أخرى.ونظرت نظرة طائر(كناية عن ارتفاع المكان) هنا وهناك فإذا الخنقة خلافا لمدن وقرى القطر الأخرى، لا تنمو كثيرا.فالمباني الجديدة قليلة وتوسعها جغرافيا محدود."[4]

– دار الشيخ أحمد زروق بلمكي: يقول سعد الله محدثنا عن هذا الشيخ: " نظّم الأخوان أيضا زيارة إلى دار الشيخ أحمد(زروق بلمكي) الّذي هو، على ما قيل لي، أبرز علماء(الخنقة) الأحياء.فذهبنا إلى داره..."[5]

[1] – أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة، ، ص258

[2] –المصدر نفسه، ص 258

[3] – المصدر نفسه، ص 258

[4] – المصدر نفسه، ص258

[5] – المصدر نفسه ،ص 258

الزاوية الناصرية: يقول سعد الله:" وقد تجولت في هذه المدرسة الّتي تعرف بالنّاصرية."[1] كما قدم لنا وصفا دقيقا مغريا يحرك فضول الرحلة إليها للتعرف عليها.

– الجامع الكبير: بفضل الجولات الّتي قام بها (سعد الله) داخل المسجد قدم لنا وصفا دقيقا له، يقول:" والجامع واسع يحتوي على ست وعشرين عرصة وله صحن غير مغطى ملحق به، ولهذا الصحن محراب أيضا.وللجامع صومعة عالية ما زالت جيدة الصنع، وقد بلغت درجتها 62 درجة على الأقل...[2] وكأني من هذا القول أشاهد الكاتب وهو يحمل ورقة وقلم ويدون ملاحظاته ومشاهداته بعين الفاحص والخبير لهذا الجامع الكبير لكل ما وقعت عليه عينه.

– زاوية الشيخ عبد الحفيظ: في هذه البنية قدم لنا (سعد الله) الكثير من المعلومات التاريخية الثقافية عن هذه الزاوية لا يسع المجال لذكرها كلها لذا من جرفه فضول المعرفة عليه الرجوع للرحلة.لكن نورد القول الّذي يثبت تواجد (سعد الله) في القرية فقط وهو قوله: "والتقينا في مسجد الشيخ عبد الحفيظ بالشيخ المسن(حوالي 82سنة)محمد المولود بوغديري..."[3] هذه آخر الجولات لـ (سعد الله) مع رفاقه في ربوع هذه القرية؛ لتبدأ معها بنية الختام وهي الإياب والرجوع إلى الديار.

4. 6– بنية العودة(الإياب):من القرائن الدالة على بنية الإياب قوله:" وقربت ساعة عودتنا إلى بسكرة ... فودعنا الجميع بحرارة."[4]

4. 6. 1– أماكن العبور /مسار العودة: يبدو أنّ (سعد الله) سلك نفس الطريق في العودة إلى بسكرة والدليل قوله:" وعند مرورنا بزريبة الوادي حان وقت صلاة الجمعة فأديناها في مسجدها..."[5]

إلى هنا تنتهي هذه الرحلة الشيقة مع (أبو القاسم سعد الله)، الذي طاف بنا فيها، وعرفنا بها وحببها إلينا كما حببها غيره إليه ممن كتب عنها من الرحالة وغيرهم.كما دأبت عليه نرسم مخططا لهذه الرحلة ليسهل فهمها بسرعة والبنية في هذه الرحلة كتلخيص لما سبق كالتالي :

[1] أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة، ص258

[2] المصدر نفسه، ص 262

[3] المصدر نفسه، 263

[4] المصدر نفسه، ص 264

[5] المصدر نفسه، ص264

1-بنية الافتتاحية

بسكرة

2- بنية الذهاب:

أماكن العبور:

مدينة سيدي عقبة، زريبة الوادي، بعض القرى، ليانة، جبل ششار، ، طريق بين الجبل وواد العرب، الخنقة

3- بنية الوصول:

الساحة القريبة من ديار حسين = خنقة سيدي ناجي

4- بنية التجوال:

دار السيد الدريدي، واد العرب، دار أحمد زروق بلمكي، الزاوية النّاصرية، الجامع الكبير، زاوية الشيخ عبد الحفيظ.

5- بنية العودة:

إلى بسكرة

خطاطة رقم(3) توضح بنية الرحلة إلى خنقة سيدي ناجي.

هكذا تتجلى لنا البنية في الرحلة الحديثة، وبخاصة عند (سعد الله)، فهي لا تخرج عن مثيلاتها في الرحلات القديمة، إلا ما دعته الحاجة؛ من اختلاف في الزمان والمكان، ووسائل السّفر السريعة؛ لأنّ السّفر على الدّابة ليس كالسّفر على متن طائرة، أو في سيارة...إلى غير ذلك من وسائل السّفر المتاحة في العصر الحالي.والمفارقة العجيبة أنّ هذا التطور (التطور العلمي) شكّل عثرة وعرقلة كبيرة أمام هذا الفن، أعاق تطوره أكثر ما خدمه، وأمور أخرى قلّصت من أهمية ومتعة هذا الفن منها غياب المغامرات، والمخاطر الّتي كان يجتازها المسافر على ظهر الدّواب حتى يصل لمسعاه، عكس الوسائل الحديثة الّتي تقل فيها درجة المخاطر، والمغامرة، بل تكاد تنعدم، وبالتالي يقل الوصف الّذي هو البنية الأساسية في الرحلة.

لكن الجديد في الرحلات الحديثة حلول بنية(التجوال) دفعت بعجلة الوصف قدما، لإضفاء لمسة من المتعة، والطرافة على هذا الفن ومحاولة جديرة بأن تسمى إعادة إحياء وبعث من جديد مثل هذه الفنون العريقة، ومحاولة أقلمتها و تكييفها مع الواقع المعاش.

*** أدبية/شعرية رحلات سعد الله:**

قبل تناول رحلات سعد الله بالدراسة، وإظهار مدى تمتع هذه النصوص الرحلية بمسحة أدبية، يجب أن أحدد الطريقة الّتي المنتهجة في الدراسة ، وهي بكل اختصار دراسة كل رحلة على حدة، ومحاولة الوقوف على أهم ما جادت به قريحة الكاتب من جماليات فنية، بها نتبين مدى انتماء الأثر-رحلات سعد الله- إلى الأدب، والجانب أو الاتجاه المتبع هو البلاغي.

والأدبية كما قد بينا؛ تظهر من خلال تذويت الخطاب.ولعلّ بعد القراءة المتأنّية والمركزة، وجدنا هذه الذاتية تعلقت بشكل كبير بعنصر الصورة الشعرية، فماذا تعني الصورة الشعرية؟

1- مفاهيم حول الصورة الشعرية:

1. 1- مفهوم الصورة في اللغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور " الصورة في الشكل، والجمع صُور، وصور، وقد صوره فتصوره، وتصورت الشيء، توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير، والتماثيل."[1] ونفس الشيء في(القاموس المحيط)" الصورة بالضم: الشكل، ج: صُور وصور كعنب...وقد صوَّره فتصور، وتستعمل الصورة بمعنى النّوع والصّفة."[2] النتيجة المتوصل إليها هي أنّ الصورة تعني شكل الشيء وظاهره، والهيئة الّتي يمكن أن نتصور بها الأشياء حتى وإن لم تكن حاضرة ، ومنها ندرك نوعه وصفته، والتصور مرتبط بالتخيل، والخيال.

1. 2- في الاصطلاح :

1. 2. 1- الصورة في التراث العربي:

قبل تقديم مفهوم لهذا المصطلح؛ ينبغي أن نرجع قليلا إلى الوراء – التراث العربي- لننظر هل لهذا المصطلح الحديث امتدادات وجذور في تراثنا العربي. وبعد البحث في الجذور الأولى لهذا المصطلح وجدت نفسي أدخل في متاهة لا مخرج منها؛ بسبب الغموض الّذي يحيط بهذا المصطلح، وتشعب مسالكه وتداخله مع الكثير من المصطلحات منها: الصورة البلاغية، الصور البيانية، الصور المجازية، الصورة الأدبية، والصورة الفنية.لذا حاولت أن أقتبس قبسا من هذه الجهود، الّتي خلّفها الأوّلون لنا؛ كي نستأنسا بها في مشوارنا مع الصورة في هذه العجالة

[1] ابن منظور لسان العرب، مج 7، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م، مادة (صور)، ص438

[2] مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، راجعه واعتنى به: أنس محمد الشّامي، زكرياء جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، دط، 2008م، ص955، 956.

فوقع اختياري على بعض جهود أهم علمين في تراثنا العربي وهما على التوالي:(أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وعبد القاهر الجرجاني). لأنهما الأشهر وأفاض الحديث في البلاغة وما يتعلق بها.

– **عند الجاحظ**: عندما أذكر هذا العالم أتذكر مقولته الجميلة، الّتي طالما كررها علينا أساتذتنا الكرام في الجامعة الّتي يقول فيها:" المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي، والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنّما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، **وجنس من التصوير**."[1] وهذه العبارة الأخيرة الّتي كتبت بالنبط الغليظ هي المعول عليها هنا؛ فهو يربط جمالية تقديم المعاني في الشعر بجملة من الشروط، وآخر ما ذكر(التصوير).وهذه الكلمة مشتقة من(صور)كما بينت سابقا.الّتي تعني كل ما تستطيع أن تلمحه العين، أو يتخيله العقل من صور وأشكال وهيئات، وهذا إن دل فإنّه يدل على القدرة العجيبة للشاعر الّتي بها يستطيع أن يقدم معانيه – ونحن نتحدث عن المعاني – من خلال تقنية التصوير أو التخيل؛ حيث يتصور المجردات أو المعاني لها أجسام وأجساد، ويتصور الجمادات، والحيوانات أشخاص تضحك وتبكي وتتكلم.

– **عند عبد القاهر الجرجاني**: أعجني كلامه عن الصورة في كتابيه(دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة) على التّوالي يمكن عدهما الأساس الأول للصورة في تراثنا العربي، والّذي لا زال تأثيره يسري على كل من حاول التقعيد للصورة كمفهوم أدبي جمالي. أول القولين عن الصورة قوله:" وأعلم أنّ قولنا(الصورة)، إما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الّذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبيُن إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة ذاك...وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيء نحن ابتدأنها فينكره منكر، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ(إنما الشعر صناعة، وضرب من التصوير)."[2] نلاحظ من كلام هذا العالم تضييق لمجال الصورة؛ إذ جعلها تقتصرعلى ما ندركه بعقولنا المجردات(المعنويات)، فنعطيها صورة تظهر بها والشواهد كثيرة في ذلك: كالأسد للشجاعة.أما عن ختام قوله بعبارة الجاحظ الشهيرة عن الصورة، ليس إلا هروبا منه حتى لا يتعرض للنقد. والقول الثاني الّذي يمكن أن نورده بعد هذا القول يكون بمثابة تتمة للنقص الّذي أخلاّ بالقول الأول يقول:" فإنك لترى بها الجماد حيّا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية...إن شئت أرتك المعاني اللّطيفة الّتي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج 3، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الباي الحلي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ/1965م، ص131، 132

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 508

تنالها إلا الظنون." [1] القول يجلي الدور والوظيفة الّتي تتكفل الصورة بها، والمفهوم من القول أنّ لها ثلاث وظائف هي: تصوير المجردات بالحسيات والعكس، وثالث هذه الوظائف تشخيص الجمادات وجعلها ناطقة تسمع وترى.

1. 2. 2- الصورة عند المحدثين:

بدأ هذا المصطلح في الظهور على الساحة النقدية منذ" أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في كثير من الدراسات الأدبية...تحت مسميات متعددة مثل الصورة الفنية، أو التصوير في الشعر، أو الصورة الشعرية، أو الصورة المجازية."[2] من هنا بدأت المشكلة تتفاقم وغموض المصطلح يزداد، فالكثرة في المصطلحات زادت المصطلح تعقيدا ووسعت دائرة بحثه، حيث أصبحت تتجاذبه العديد من التخصصات والعلوم.كما عدت الصورة الشعرية " الملمح الرئيس للحداثة بما يكمن في عناصرها من دهشة، ومفارقة، وانزياح، وخيال فسيح يفتح الأفاق لدى المتلقين لقراءة متعددة ومفتوحة."[3]

من المحدثين الّذين اضطلعوا بتقديم تعريفات للصورة، (عز الدين إسماعيل)، وذلك من منطلق نفسي بحت بعد أن وصفها بـ" تركيبة غريبة معقدة هي بلا شك أكثر تعقيدا من أي صورة فنية أخرى."[4] ويقول: " ترتبط الصورة بكل ما يمكن استحضاره في الذهن من مرئيات، أي ما يمكن تمثله قائما في المكان."[5] يبين لنا القول أنّ الصورة تنتمي إلى عالم الأفكار؛ فهي مسئولة عن شرح المعاني، أو الأفكار الّتي تمر على الأذهان ويعجز الفنان أو الكاتب على إيجاد لها أسلوب، فيلجأ للصورة كحل ليقدم لنا المعنى الّذي راوده بأحلى عبارة وأجمل تعبير لغوي.

وكذلك يعرفها الناقد(عبد القادر القط) في سياق حديثه عن الصورة في الشعر قائلا: أنها " الشكل الفني الّذي تتخذه الألفاظ، والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص يعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة الشعرية مستخدما طاقات اللغة وإمكانياتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة، والمجاز، والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني."[6] يسفر القول عن الأساليب الفنية التي عرفت عند البلاغيين والنحويين، والعروضيين؛ والّتي يمكن عدها من بين الأساليب الشعرية ذات الجمالية اللّغوية فالكاتب حاول أن يوسع من مفهوم (الصورة الشعرية) ويربطها بأكثر من علم وتخصص.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص43

[2] رائد وليد جرادات، بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث (الحر) نازك الملائكة أنموذجا، مجلة الآداب (جامعة دمشق) ، العدد 29 (1+2) 2013م، ص551

[3] المرجع نفسه، 551

[4] عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، دت، ص67

[5] المرجع نفسه، ص 68

[6] القط عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، دط ، 1978م، ص391

ويرى أحمد الشايب أنّ الصورة " هي المادة الّتي تتركب من اللغة بدلالتها اللغوية والموسيقية، ومن الخيال الّذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة، والكناية والطباق وحسن التعليل."[1]

ويمكن لنا أن نختم بتعريف يكاد يقترب من جوهر الصورة، قدمته لنا دائرة المعارف(larousse) هذا نصه:" الصورة الأدبية أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية، وأكثر شاعرية، تمنح الموصوف أو المتكلم عنه أشكالا، وملامح مستعارة من أشياء أخرى، تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه.[2]

إذا الصورة الشعرية أو الأدبية أو أي اسم آخر عرفت به، تركيبة لغوية أو أسلوب.الغاية منه إيصال الفكرة بثوب جميل، تأثر في المتلقي وتثيره، وهي كثيرة منها على مستوى البيان كأساليب الاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية، وعلى مستوى البديع(الموسيقى) الجناس والطباق والمقابلة، التكرار، التورية...وغيرها.ومن أساليب النحو كالتقديم والتأخير والحذف...والعروض إذا كان المدروس شعرا من وزن وقافية وزحافات وعلل، وأيضا أساليب التناص، والاقتباسات أو التضمينات كالنصوص الشعرية أو الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومن الموروث الشعبي كالأمثال والألغاز...وغيرها من الأساليب الّتي تحقق شعرية النصوص على اختلافها وتنوعها.

2- الصورة الشعرية(في رحلات سعد الله):

المطلوب مني الآن بعد هذا العرض الموجز عن ماهية الصورة الشعرية هو: استنباط قدرا كافيا من الصور الّتي جادت بها جعبة هذا الرحّلة، وهو بصدد عرض مشاهداته، وتطلعاته خلال رحلاته وجولاته الّتي قام بها خارج وداخل الوطن، وهي كثيرة، بهدف التدليل على أدبية وشعرية المتن الرحلي الحديث، ومجال اشتغالي أربع رحلات هي على التوالي: رحلتي إلى المغرب، رحلتي إلى الجزيرة العربية، وهما رحلتان خارجيتان، ورحلتان داخليتان هما: ربيع في سوف، وزيارة إلى خنقة سيدي ناجي؛ وقبل ذلك أقدم تعريفات بسيطة للصور البلاغية المستنبطة مقتصرا على ما جادت به قريحة الكاتب من صور البيان والبديع.

2. 1- على مستوى البيان:

- مفهوم البيان: 2. 1. 1

إذ كان البيان في الّلغة بمعنى الإيضاح والظهور...، كما هو مبين في معاجم الّلغة العربية، وهذا لا يحتاج إلى

[1] أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1973م، 248، 249

[2] - نقلا عن سليمان بن عبد الله الموحد، الصورة الشعرية في ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، رسالة ماجيستير ، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2008م/2009م، ص 22

نقاش؛ فهو في الاصطلاح يعني " أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على ذلك المعنى نفسه."[1] والتعريف لا يبتعد عن المفهوم اللغوي للكلمة(الإيضاح)، لكن الاصطلاح أخص لارتباطه بتوضيح المعاني والدلالات العقلية الّتي صبها أصحابها في قوالب متنوعة من الكلم؛ قد حصرها المتخصصين في ثلاث مجالات هي مدار اشتغال علم البيان، وفي هذا يقدم لنا(ابن عثيمين) تعريفا موجزا انطلاقا من مجالات علم البيان يقول هو: "علم يُبحث فيه عن التشبيه، والمجاز، والكناية."[2] إذا لعلم البيان ثلاثة مجالات هي التشبيه، والمجاز، والكناية.أحاول من خلالها تبين الخانة(أدب، لا أدب) الّتي أصنّف بها رحلات سعد الله.

2. 1. 2 مجالات علم البيان:

2. 1. 2. 1- الكناية:

هي من الصور المجازية الّلطيفة والجميلة في آن يلجأ إليها الكاتب ليظهر معانيه، وأفكاره، وعواطفه الّتي تخالجه؛ فيلبسها ثوبا اصطلح عليه عند علماء البلاغة بأسلوب الكناية، وهي في عرفهم " لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى، أو هي اللّفظ الدال على معنيين مختلفين: حقيقة ومجازا من غير واسطة لا على جهة التصريح."[3] وجاء في معجم الطلاب أن الكناية "كلام له معنيان معنى ظاهر حرفي غير مقصود عادة ومعنى غير ظاهر هو المقصود عادة."[4]وسياق الكلام يتكفل بإظهار المعنى الخفي استنادا لذكاء وفهم القارئ.وللتوضيح أكثر يقدم صاحب الكافية تعريفا للكناية مع التمثيل لها يقول:" هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول فلان كثير الرماد لتنتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو كثرة الطبخ للأضياف، وكذلك فلان طويل النّجاد، لتنتقل إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة."[5] وهذا العدول عن التصريح عن المعنى ، وإخفاؤه هو ما يكسب الكلام جمالية، ويثير القارئ وينشط فكره؛ لأنّه كما قيل أنّ" التعبير المباشر ليس تعبيرا

[1] – يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية (علم المعاني –علم البيان –علم البديع)، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007م ، 1427هـ، ص 143

[2] حفني ناصف، محمد دياب،،سلطان محمد، مصطفى طموم، دروس البلاغة، شرح محمد بن صالح العثيمين، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط1، 1425هـ/2004م، ص101

[3] يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 212

[4] يوسف شكري فرحات، معجم الطلاب (عربي –عربي)، مراجعة:إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت، 2004م/1424هـ، ص521

[5] صفي الدين الحلي: شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تح: نسيب نشاوي، دار صادر بيروت، ط2، 1412هـ/ 1992م، ص 201

شعريا." [1] كما يمكن أن نضيف تعريفا يمثل جوابا شافيا لمن رأى أنّني استخدمت بعض الاستعارات في هذا المبحث، تفضل به عبد العزيز عتيق يقول:" كل كناية استعارة، وليس كل استعارة كناية."[2] وليس الاستعارة وحدها بل يمكن أن يكون المجاز على اختلافه يحمل معنى الكناية، كالمجاز المرسل نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[3] فعبارة جعلوا أصابعهم في آذانهم، مجاز مرسل علاقته الكلية، وهو كناية عن الإعراض، والصدود الّذي تلقاه نوح من قومه؛ فالجملة هذه حملت معنيين مجازيين.

وهذا المجاز – الكناية – أخذ حصة الأسد في رحلات (سعد الله) لحاجة المؤلف له في الكثير من المواقف لشدت ارتباط الكناية بالأدب الواقعي – والمعلوم أنّ الرحلة من الأدب الواقعي – لأنّها شديدة الارتباط بحياة المجتمعات، والشعوب، وهذا ما أشار إليه(صلاح فضل) حين حديثه عن الأدب الواقعي، والأساليب الأكثر ملاءمة للتعبير عن جوهر هذا النوع من الآداب[4].يلجأ إليها المؤلف(صاحب الرحلة) ليبن لنا درجت انفعاله وانبهاره، أو تعجبه من أمر ما قد عاشه، أو لا حظه خلال جولاته وتحركاته.

– نماذج من الكناية في رحلة(رحلتي إلى المغرب العربي) :

من هذه النماذج نذكر: حديثه عن المانع الّذي صده عن زيارة بلده الثاني المغرب العربي، رغم أنّ الأمنية أو الرغبة لزيارة هذا البلد قديمة لكن الظروف حالت دون تحققها: يقول: "ولكن الرياح كانت دائما تميل بسفينتي إلى اتجاه آخر."[5] فقد كنّ عن سفره إلى بلدان أخرى بالسفينة التي تحكمت بها الرياح ووجهتها إلى وجهة أخرى غير الّتي كانت ستسلكها؛ فهو أراد من هذا التعبير أن يجعل عدم سفره إلى المغرب بلده الثاني؛ للظروف والانشغالات الدائمة الملقاة على كاهله والتي لا تكاد تنتهي...

من الكنايات التي تبين حبه الجم للسّفر قوله:"...ولو انقضت علي سنة دون أن أتنفس هواء بلد آخر لأحسست **بالاختناق** حتى في وطني."[6] لأنّ السفر أخذ بلبه وقلبه حتى تملكه؛ فهو لا يستطيع العيش دون أن يسافر. وجمالية التعبير تكمن في استعمال كلمة الاختناق، الّتي عادة ما تستعمل للتعبير عن الاختناق من تسرب

[1] أحمد عبد السيد الضاوي: فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنّقد مع تطبيق على الأدب الجاهلي، دار بور سعيد للطباعة، الإسكندرية، دط، 1997م، ص 541

[2] عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية بيروت، دط، 1405هـ/1985م، ص 44

[3] القرآن الكريم، سورة نوح، آية 07

[4] ينظر صلاح فضل: أساليب السّرد في الرواية العربية، دار المدى للثقافة والنّشر، سورية، دمشق، ط1، 2003، ص 58

[5] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص205

[6] المصدر نفسه ، ص 205

الغاز، أو نقص أكسجين... في غير ما وضعت له في الأصل حيث قام بإزاحة اللّفظ عن دلالته المتعارف عليها للتعبير عن شيء معنوي ألا وهو ولعه بالسفر والتنقل.

من الكنايات قوله:" وكانت الألوان المتعددة، والأشكال الهندسية المتنوعة تكاد **تخطف الأبصار**.[1] كناية عن شدة جمال الأضواء وأشكالها المتنوعة التي سحرت عيون (سعد الله) في الليل، وهو منطلق من الدار البيضاء نحو الرباط.

ومن الكنايات عن الكثرة قوله:" وقد وجدتني خارج سور المدينة القديم في حي **غارق في الأشجار** المعشوشبة المخضرة."[2] كثرة الأشجار الخضراء، والمساحات الخضراء في هذا الحي.تظهر شعرية هذه الجملة في نقل دلالة لفظ(غارق) والغرق لا يكون إلا بالماء، إلى الغرق بالأشجار لتصير دلالة أخرى منحها لها السيّاق وهي الكثرة.

ومن الكنايات أيضا: قوله:وقد زرته(يقصد الأستاذ الكتاني) في اليوم الموالي بمكتبه بالخزانة فوجدته محاطا بأكداس من المخطوطات والمطبوعات القديمة وصناديق البطاقات، فهو كنا عن هذا الموقف بقوله:"حتى خيل لي أنّ الكتب هي طعامه وشرابه وكساؤه ووطؤه." [3] والّذي يحمل معنى مجازيا والمتمثل في حبه الكبير للكتب والمخطوطات.وجمالية هذا الأسلوب –الكناية– تتجلى في تحوير أمور حسية تدرك بالحواس لتعبر عن شيء عاطفي نفسي مجرد وهو حبه الشديد والكبير للكتب والمطالعة والبحث.

ومنها أيضا: قوله: " وكانت الكتب تحمل إليه(الأستاذ الكتاني) في لمح البصر.[4] كناية عن سرعة إحضارهم للكتب للأستاذ الكتاني، كما قد نفهم من هذه الكناية شدة التبجيل والرهبة الّتي يتمتع بها الأستاذ الكتاني.

ومنها قوله:" كما يلاحظ المتجول في المغرب **رحابة صدر الباعة**، وتأدبهم مع المشتريين."[5] كناية عن حلم الباعة المغاربة وحسن التعامل مع الزبائن، وصبرهم عليهم...والجمالية في هذا التعبير تكمن في التعبير على أمور معنوية ومجردة بأشياء مادية ملموسة.

ومنها:" – كما علمت أن **مرتب** الأستاذ الجامعي في المغرب قد يصل إلى ما يعادل أربعة ألاف دينار جزائري شهريا لذلك لم أستغرب أن يقدم مثله على هذا **المشروع** الّذي لا يقدم عليه الأستاذ الجزائري **إلا في**

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 207
[2] المصدر نفسه،ص209
[3] ينظر المصدر نفسه، ص 210
[4] المصدر نفسه، ص 212
[5] المصدر نفسه، ص 215

الأحلام."[1] كناية على استحالة بناء الأستاذ الجزائري ما بناه نظيره الأستاذ المغربي؛ للبون الشاسع بين المرتبين ؛ الضعيف بالنسبة للجزائري والكبير بالنسبة للمغربي. سيأتي الحديث عن هذه النقطة في مبحث آخر. أصبح بالنسبة لسعد الله، وهو من الأساتذة الكبار أمر رفع أجر الأستاذ الجامعي مجرد حلم يحلم به ، والأحلام كما هو معلوم لا تتحقق. أراد الرّحال من خلال تعبيره المقارنة بين أساتذة المغرب وأساتذة الجزائر من حيث الأجر. وشعرية الجملة تكمن في تحويل دلالة كلمة الأحلام من دلالتها الأصلية إلى دلالة مغايرة تمام، معبرة عن استحالة تحقق مشاريع للأستاذ الجامعي؛ لضعف الراتب الشهري له.

– نماذج من الكناية في(رحلتي إلى الجزيرة العربية):

تعتبر الكناية أكثر الأساليب التصاقا بالنصوص النثرية، لذلك كان تواجدها لافتا للانتباه في رحلات (سعد الله) لكثرتها لأنها الأسلوب الأنسب للتعبير عن انطباعاته ومشاهداته.من هذه الأساليب نذكر بعضها لأجل الاستدلال:

يقول (سعد الله) معبرا عن السن المبكر الّذي بدأ فيه دراسة التاريخ: " فأنا منذ **نعومة أظفاري** أدرس تاريخ العرب والإسلام."[2] والكناية كما هو معلوم تعبير مجازي يحمل معنيين ظاهر ليس هو المقصود، وخفي هو المقصود، والوصول إليه يتطلب ذكاء من القارئ لغياب القرينة المساعدة في تبين المعنى.وهنا لو أتينا إلى تحليل العبارة لوجدناها ملائمة ومنطقية للتعبير على حداثة وصغر السن؛ لأنّ نعومة الأظفار نجدها عند الأطفال الصغار.وتكمن جمالية العبارة في نقلها للتعبير عن معنى يبعد كل البعد عن الدلالة الظاهرية.

من صور الكنايات أيضا التي عبر بها عن التفتيش الجمركي لحقائبه في مطار الجزائر.يقول سعد الله:"...فأخذا يفحص ما فيها من ثياب قطعة قطعة وجيبا جيبا..."[3] هي كناية عن دقة التفتيش الّذي خضع إليه (سعد الله) في مطار الجزائر، وفي نفس الفقرة وصف الحالة الشعورية الّتي أحسّ بها وهو يراقب طريقة تفتيش الجمركي لحقائبه؛ فهو لم يترك قطعة ولا جيبا إلا وتفحصها، الأمر الّذي قلب الموازين عند (سعد الله) يقول:"...خفت أن **أفقد أعصابي** فأفوه بعبارات تغضب الجمركي."[4] الأعصاب لا تفقد ولكن أراد أن يكني من خلالها عن الغضب الّذي قد يصيبه إن هو استمر في مراقبة تفتيش الجمركي المتعسف.تكمن شعرية هذا التعبير في تنشيط عقل المتلقي للبحث عن المعنى الحقيقي المراد من ظاهر العبارة الّتي تقول خلاف ذلك.

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 217

[2] المصدر نفسه، ص235

[3] المصدر نفسه، ص 237

[4] المصدر نفسه ، ص 237

ومن هذه الصور الشعرية الّتي تثير القارئ، وتنشط عقله من أجل الظفر بالدلالة المتخفية وراء أسلوب الكنايات قول (سعد الله) وهو يحدثنا عن الطريقة الّتي انحلت بها تلك الأزمة الّتي حلّت بهم عند وصولهم إلى مطار جدة، والّتي كادت تنقلب " إلى حركت احتجاج لولا **وجود منقذين من السّماء**.والمنقذ الأول هو الدكتور (ناصر الرّشيد)...أما الثاني فهو الأستاذ محمد الزلفة..."[1] ظاهر العبارة يدل أن المنقذين، أتوا من السّماء وهذا مستحيل طبعا، ولكن الدلالة الحق هي الّتي نفهمها من السياق ألا وهو أنّ الله قد سخر لهم عبدين من عباده كانا سببا في انفراج الأزمة، كما أنها تعبير اعتدنا نحن الجزائريون استعماله للتعبير عن حضور الفرج كالمعجزة وبسرعة كقولنا [كأنّه نزل من السّماء].

ومنها أيضا قوله:" كما قضينا النّهار السابق مسافرين على مقاعد الطائرة.لذلك أخذ منا التعب مأخذا شديدا، **وتحجر النوم في العيون**، حتى أصبح **كالرصاص** أو اشد منه ثقلا، وعندما أشرقت شمس الجزيرة العربية لم نستطع أن نحطم صخور النوم التي استقرت في عيوننا."[2] كل التعبيرات المجازية المتواجد في هذا التركيب تعبر عن شدة النعاس الشديد الّذي تملك بطل الرحلة، ورفاقه.وهذا إن دل فإنما يدل على السعة والمرونة الّتي تميز اللغة العربية عن سائر اللّغات الأخرى، وهذا ما يكسبها جمالية وشعرية، ومن الكنايات الّتي عبر بها عن الكثرة قوله "...وهناك من البلدان العربية من أخذ حصة الأسد كمصر.."[3]

ومن الكنايات المعبرة عن الكثرة أيضا قوله:" – وكانت الكلية، أيام تواجدنا، خلية نحل بالعاملين في الندوة..."[4] فالعبارة الأولى والثانية رغم اختلافهما فإنهما يدلان على الكثرة، لكن هذا لا يعني إمكانية استخدام العبارة الأولى مكان الثانية، فالمعيار الّذي نحكمه بينهما هو السياق، وهذا سر من أسرار جمال اللّغة العربية.

– نماذج من الكناية في رحلة(ربيع في سوف):

ومن الكنايات الّتي أكسبت هذا النص الرحلي جمالية وشعرية نذكر منها :

عند وصول الرّحالة لمطار(واد سوف) بقمار عبّر عن شدة الحرارة بعدة عبارات منها: " عندما دخلت السيارة وجدتها **تفور حرارة**.ولم أكد أصل منزل العائلة حتى كنت **مبتلا بالعرق**..."[5] وكلتا العبارتين تعبر عن شدة الحرارة في هذه المنطقة، رغم أنّ الفصل فصل ربيع.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ص 239
[2] المصدر نفسه، ص 239
[3] المصدر نفسه، ص240
[4] المصدر نفسه، ص 241
[5] المصدر نفسه ، ص 162

ومن الصور الشعرية الّتي أضفت لمسة جمالية على النص الرحلي وصف (سعد الله) الجيل الّذي وطئ مدينة قمار بالغريب، لكن في أسلوب كناية جميل ترك التصريح بالمعنى مباشرة؛ لأنّه أراد أن يوصل لنا فكرة تفوق وصفه بالغريب؛ لأنّ قدومه لم يكن ذا نوايا حسنة يقول (سعد الله):"...فلم يلتصق جلده بترابها ولم يولد في فراشها."[1] كناية على أنه جيل لم يولد ولم يتربى في ديارها؛ جيل جلبته المنفعة الذاتية فإذا حققها انصرف عنها، وهو لا يبالي كيفما تركها.

ومن الكنايات الّتي تشعرك بجمال التعبير قول سعد الله:" وظل العمل متوقفا مدة غير قصيرة، ثم استؤنف **بلمسة من عصا موسى.**"[2] أمر بديهي يفهمه الجميع أنّ استئناف العمل لا يكون بعصا موسى، ولكن بفعل فاعل قام به فجأة فكان كالمعجزة لدى سكان المدينة حتى أصابهم اليأس من إتمام هذا المشروع.

ومن هذه الصور الشعرية قوله:" ومع ذلك فهي مستمرة في ترك **الحبل على الغارب،** وقد **بح صوت المحذرين** من مغبة هذا الاتجاه داعين إلى تغيير الوضع على مستوى القطر وجعل الجامعة مؤسسة وطنية وعلمية ، **ولكن لا حياة لمن تنادي.**"[3] قد انطوى هذا القول على ثلاث صور شعرية(كنايات) أولها ترك الحبل على الغارب تشير إلى اللامبالاة بما سيحدث، وثاني هذه الصور: وقد بح صوت المحذرين، فهي تدل على كثرة التحذير من هذا الاتجاه الّذي ساد الجامعة وسيطر عليها، وثالث هذه الصور عبارة(لا حياة لمن تنادي)؛ وتعني عدم الإصغاء، والعمل بما أوصى به أصحاب الرأي السوي من العلماء والمتخصصين.

– نماذج من الكناية في رحلة(زيارة لخنقة سيدي ناجي):

كان حظ هذه الرحلة الداخلية من الصور الجمالية قليل جدا مقارنة بنظيراتها من الرحلات، فقد جاءت على شكل (بورتري).يمكن لنا أن نذكر بعض هذه الصّور؛ لنرى الأثر الّذي تحدثه في نفس المتلقي.من هذه الصور وصفه الشيخ الدرويش بأنه" **من أهل الله** يسكت متى شاء ويتحدث متى شاء."[4] عبارة من (أهل الله) كناية عبر بها عن مدى قرب هذا الشيخ الكبير من الله لصلاحه، ولسلامة نواياه مع النّاس ومع الله.كما تجد هذا الصنف من النّاس يميلون للعزلة، وعدم مخالطة النّاس؛ ربما لقلة حيلتهم.

ومن الكنايات أيضا في هذه الزيارة قوله:" **ونظرت نظرة طائر** هنا وهناك فإذا الخنقة خلافا لمدن وقرى

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 164

[2] المصدر نفسه، ص 165

[3] المصدر نفسه، 166

[4] – المصدر نفسه، ص258

القطر الأخرى."[1] كنا بعبارة نظرت نظرة طائر: عن علو المكان المتواجد فيه(وادي العرب العظيم)، وأنّ الخنقة تقع أسفل هذا الوادي؛ فهو كأنه طائر ينظر إلى دور الخنقة من هذا المكان المرتفع.

منها أيضا: وصف الخنقة بالعجوز بعدما كانت كالعروس يوم عرسها يقول:" القرية(يقصد الخنقة) الّتي كانت **عروسا** فأصبحت **عجوزا**."[2]أراد بهذه العبارة التعبير عن الجمال الخلّاب الّذي كانت تتمتع به(خنقة سيدي ناجي)، والّتي لم تلبث أن صارت قرية خربة تكاد تكون خاوية على عروشها.

2. 1. 2. 2- الاستعارة:

قبل استنباط بعض الاستعارات نقول بتقديم مفهوما لها بشكل سريع للتذكير فقط.

2. 1. 2. 2. 1- الاستعارة في اللغة :

تعني الاستعارة في اللغة " رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، يقال استعار فلان سهما من منانته، رفعه، وحوله منها إلى يده...ومن البلاغيين من يسمي هذا النّوع من الاستعارة(التشخيص) حيث تمثل فيه المعاني والجمادات إلى أشخاص تكتسب كل صفات الكائنات الحية أيا كانت، وتصدر عنها أفعالها."[3]

2. 1. 2. 2. 2- في الاصطلاح:

أما في الاصطلاح فهي " مجاز لغوي يقوم على تشبيه حذف أحد طرفيه."[4]و" علاقتها المشابهة دائما."[5]ولها أنواع كثيرة منها(الاستعارة المكنية، التصريحية، الأصلية والتبعية، الاستعارة المرشحة والمجردة...) وأشهرها على الإطلاق المكنية والتصريحية.

2. 1. 2. 2. 3- أشهر أنواع الاستعارة: وهما اثنان كما قد أشرنا إليه:

الاولى: الاستعارة التصريحية: جاء في مفهومها البلاغي:" ما صرح فيه بلفظ المشبه به." [6] أي كل مجاز لغوي صرح بالمشبه به، وحذف منه المشبه هو من قبيل الاستعارة التصريحية، مع وجود قرينة مساعدة تنفي تحقق المعنى الحقيقي.نحو [دخل أسد إلى القاعة فصافح النّاس] لولا القرينة لحكمنا على الكلام بالحقيقي.

---

[1] - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 259

[2] - المصدر نفسه، ص264

[3] عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 167- 171

[4] - راجي الأسمر: علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت، دط، 2011م، ص101

[5] - يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، ص 186

[6] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، ص 186

الثانية: الاستعارة المكنية: وهي " ما حذف فيها المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه."[1] أيضا الاستعارة المكنية حذف للمشبه به، لكن هذه المرة مع وجود إشارة أو رمز أو قرينة تشير إلى هذا المحذوف، وتمنع تحقق المعنى الحقيقي.

– نماذج من الاستعارة في رحلتي إلى المغرب العربي:

استعمل المؤلف العديد من الاستعارات في رحلته، نذكر بعضها للتدليل على أدبية هذه الرحلة منها: في هذا المقطع من الرحلة يقول سعد الله:" وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كل بلد أزوره يوميات **صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي."**[2] نلاحظ في المقطع كيف شبّه المعنوي بالحسي على سبيل الاستعارة المكنية حيث شبه عملية التدوين في اليوميات بالماء أو أي شيء سائل؛ لانّ الصبّ لا يكون إلا لشيء سائل.

ومنها أيضا في حديثه عن منهجه في تأليف هذه الرحلة يقول:"...ولتشابك هذين القسمين في اليومية الواحدة فضلت أن **أنسج** هذا **العرض** لأخبار الرحلة نسجا آخر لا يتقيد باليومية ولكن بالحادثة نفسها."[3] فالنسج لا يكون إلا لصوف أو ما هو في شاكلته، أما الشيء المعنوي فلا ينسج بل يرتب، فجعل المعنوي(العرض)من قبيل المادي(الصوف) على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة بينهما هي الفعل(أنسج).

ومنها أيضا حديثه عن الفكرة أو الأمنية التي طالما تمناها لزيارة بلد المغرب العربي، وفي هذا يقول:" ومنذ أمد طويل **والأمنية تراودني** لزيارة هذا البلد الّذي تربطني به أكثر من رابطة."[4] والمعلوم أنّ المراودة لا تكون إلا من محسوس نحو محسوس، أما (سعد الله) فقد ألبس المعنوي خصائص الملموس أو المحسوس وجعله شخصا يُراود. وهذا فيه تشبيه لأمنية (سعد الله) في السفر بالإنسان على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة الجامعة هي الفعل يُراود.

ومنها أيضا: استعارة لفظ التصفيق للماء وهو يتلاطم مع الصخور، والتصفيق عادة لا يكون إلا باليدين أو ما شابهها يقول:"..فلا تسمع إلا تصفيق الماء على الصخور."[5] فقد بث في الجمادات الحياة على سبيل الاستعارة المكنية حيث شبه الماء وهو شيء مادي بإنسان يصفق.

نماذج من الاستعارة في(رحلتي إلى الجزيرة العربية): نذكر منها :

[1] – يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية ص 188

[2] – أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، ص 204

[3] – المصدر نفسه، ص 204

[4] – المصدر نفسه، ص 205

[5] – المصدر نفسه، ص 219

عبر (سعد الله) عن الرغبة، أو الأمنية الّتي طالما أراد تحقيقها والمتمثلة في زيارة بيت الله الحرام بقوله :" ذلك أنّه طالما **راودني الخاطر** للسّفر إليها(يقصد السعودية) استجابة لنداء روحي داخلي، وحبا في الدراسة والاطلاع وربطا للماضي بالحاضر."[1] فالخاطر شيء معنوي مجرد لا يراود، والمراودة لا تكون إلا من حسي لحسي(كائن حي).وتكمن جمالية التعبير في تشخيص الشيء المعنوي وجعله يراود على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن الاستعارات الّتي تسفر عن شعرية المتن النثري الحديث قوله:" أما هذه المرة فقد التقينا **وتناولنا أطراف الحديث** في عدة مناسبات في قاعة المحاضرات..."[2] ما أكسب هذا التعبير جمالية تعبيره عن شيء مجرد معنوي ، وجعله في مرتبة المحسوس الّذي يدرك بحاسة البصر. حيث جعل للحديث أطراف على سبيل الاستعارة المكنية حيث ذكر المشبه وهو الحديث، وحذف المشبه به(شيء مادي) مع ترك قرينة دالة وهي كلمة(أطراف).

ومنها أيضا:قول: أبو القاسم سعد الله " إن المرء يشاهد هناك أمور مبالغ فيها ليست من الدين في شيء وهي بلا شك نتيجة **الجهل** الّذي **خيم** على أجيال من المسلمين."[3] هيا ستعارة مكنية شبه فيها المعنوي(الجهل) بإنسان قد خيم بمعنى سكن حيث حذف المشبه به الإنسان وترك لنا قرينة وهي(خيم). مما يحقق الجمالية في الكلام تشخيص المجردات، وإضفاء عليها خصائص الإنسان أو أي كائن حي.

ومن الاستعارات التشخيصية قوله:" وأنا دائما في صراع مع الوقت عندما ألتقي بالكتب."جعل الوقت شيء مادي(إنسان أو أي كائن حي) مما يتصارع معه.على سبيل الاستعارة المكنية حيث ذكر المشبه الوقت وحذف المشبه به(الكائن الحي) وترك لازمة من لوازمه تدل عليه كلمة(صراع).

– نماذج من الاستعارة في رحلة(ربيع في سوف):

من هذه الصور الشعرية الّتي تأثر في متلقيها؛ تشخيص المعنويات، والمجردات وإكسابها صفات الإنسان تحيا وتموت.يقول سعد الله " فلم أجد في المطار مثلا سوى الورود الاصطناعية الّتي تشعرك بموت الطبيعة."[4] استعارة مكنية حيث شبه الطبيعة(شيء معنوي) بالإنسان(مادي) والقرينة الدالة(موت).والتشخيص للمجردات من القوانين الجمالية الّتي تعطي لذة ونكهة للمعنى، كما تزيده تأثيرا.

منها أيضا التعبير عن حرارة الشمس في(واد سوف) في موسم الربيع بقوله: " وعندما خرجت من الطائرة

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 235

[2] المصدر نفسه، ص247

[3] المصدر نفسه، ص 249

[4] –المصدر نفسه ، ص 161

أحسست بوهج يلفح وجهي وأشعة الشمس تنعكس غاضبة على التربة الغبراء."[1] إضافة للتأثير الّذي تحدثه الاستعارة في المتلقي، فهي تكسب المعنى قوة وجمالا؛ وهي في هذا الموضع استعارة مكنية حيث شبه(الأشعة) بالإنسانأو الحيوان والقرينة الدالة هي كلمة(غاضبة). فكلمة(غاضبة) زادة المعنى وضوحا وجلاء، وهذه خاصية من خواص البيان.

ومن الاستعارات قول الكاتب في تصوير الحالة الّتي آل إليها " المجمع المزدحم بأهل البلدة وضيوفهم من الباعة والمشترين والأغنياء والفقراء."[2] صار يبابا وخرابا.يقول في تصوير هذا التحول الكارثي لهذا المجمع:"قد قتل وحملت رفاته إلى مقبرة مجهولة..."[3] هنا نوع من التشخيص للماديات(المجمع) حيث شبهه ب(الإنسان) الّذي قتل.وكل هذا على سبيل الاستعارة المكنية. كأنّ (سعد الله) يستبعد رجوع المجمع إلى سالف عهده مهما حدث ؛ فهو كالقتيل وهيهات أن يعود الميت إلى الحياة، ثم أردف العبارة المجازية بقوله: وحملت رفاته إلى مقبرة مجهولة ؛ يريد من خلالها تأكيد استحالة رجوع حالة المجمع إلى سابق عهده، ومن الاستعارات الّتي تثير ذهن القارئ ، تشبيهه قمار في حالتها الجديدة بالمرأة الّتي غيرت ثوبها القديم ولبست الجديد يقول " إنّ بلدة قمار الجديدة قد غيّرت ثوبها فمن منازل تقليدية إلى منازل حديثة."[4] استعارة مكنية حيث حذف المشبه به المرأة، وترك لازمة تدل عليه هي كلمة (ثوبها) .

ومن هذه المجازات اللغوية قول للكاتب يصف فيه حالة الأحياء المهدمة ويشبهها بالمرأة الّتي تندب حظها يقول:" وتندب الأحياء القديمة حظها العاثر الّذي قادها إلى هدمها، وطرحها أرضا."[5] استعارة مكنية ذكر المشبه وهو الأحياء القديمة، وحذف المشبه به وهو المرأة الّتي تندب حظها لفقدها شخص عزيز عليها، والقرينة الجامعة تتمثل في الفعل المضارع(تندب)، وكلمة(حظها) الّتي جاءت بعد المشبه مباشرة.

– نماذج من الاستعارة في (زيارة لخنقة سيدي ناجي) :

يبدو أنّ حظ الصور على اختلاف أنواعها قليلة جدا تكاد تنعدم في هذه الرحلة العلمية؛ لكن لا بأس من ذكر ما ورد في هذا المتن من صور رغم قلتها.يقول سعد الله في هذا المقطع:" ولولا بعض رؤوس النخيل والقباب

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 162
[2] –المصدر نفسه، ص 163
[3] –المصدر نفسه، ص 163
[4] – المصدر نفسه، ص 164
[5] – المصدر نفسه، ص 164

القديمة في سفح الجبل لما عرفنا أنّ **العمران** قد **حط رحاله** ذات يوم في هذا المخنق." [1] شبّه العمران بشخص رحّال قد حط رحاله في هذا المكان(المخنق)، ذكر المشبه وحذف المشبه به(الإنسان) والقرينة هي حط رحاله، وتكمن شعرية هذا التعبير في تشخيص الجمادات.

وثاني هذه الاستعارات في هذه الرحلة أو الزيارة، تشبيهه اكتمال اكتساب طلبة العلم في هذه المدرسة(بشيء ينضج)، والنضج عادة مرتبط بأكلة أو فاكهة أو ما شابه ذلك يقول سعد الله" ذلك أن الطالب كان يقرأ القرآن في المدرسة ويبيت فيها.وعندما **ينضج** علميا يحضر حلقات الدرس في الجامع المجاور." [2] ذكر المشبه(طالب العلم)، وحذف المشبه به(شيء ينضج)، والقرينة الجامعة والمانعة كلمة(ينضج) على سبيل الاستعارة المكنية.

2. 1. 2. 3- التشبيه:

2. 1. 2. 3. 1- في اللغة: جاء في معجم الصّحاح في معنى جذر [ش ب ه] قوله:" هذا شبهه ، أي: شبيهه...والشبهة : الألتباس ...والمتشابهات : المتماثلات . وتشبّه فلان بكذا . والتشبيه : التمثيل . وأشبهت فلانا وشابهته . واشتبه عليّ الشيء ."[3] أي جعل الشيء يماثل الشيء المراد تشبيهه به في شيء أو في عدة أشياء.

2. 1. 2. 3. 2- في الاصطلاح :

أما عند البلاغيين فهو يعني:" إلحاق أمر بأمر آخر في صفة أو أكثر بأداة من أدواة[4] التشبيه ملفوظة، أو ملحوظة."[5] وله أشكال متعددة تختلف باختلاف وجه الشبه والأداة من حيث(الحضور والغياب) وهي كالتالي:[6] ويعرفه البلاغي (مصطفى الصاوي الجويني) بأنّ التشبيه " في ابسط معانيه هو أن يشارك المشبه والمشبه به في صفة أو أكثر وهي أوضح وأظهر في المشبه به منهما في المشبه، وتجمع بينهما الأداة."[7] أي :أحيانا كثيرة لا يجد المتكلم

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 257، 258

[2] – المصدر نفسه، ص 261

[3] – أبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تاج اللغة وصحاح العربية ،ص 581

[4] –أدوات التشبيه الملفوظة(الأصلية) وهي: الكاف وكأنّ، ومثل، وشبه.وملحوظة (فرعية) وهي كل لفظ يؤدي معنى المشابهة مثل: شابه ضارع، ماثل، حاكى،...حسب ظنّ خال...ينظر يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 145

[5] – يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 144

[6] – ينظر المرجع نفسه، ص 145

[7] مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشاة المعارف الإسكندرية، دط 1985م، ص 85

ما يقرب به معنا ما يدور في خلده ؛ فيلجأ للتّشبيه كوسيلة لإخراج ما استعصى عليه من المعاني ، ودلالته اصطلاحا لا تبتعد عن معناه اللغوي .

2. 1. 2. 3. 3- أنواع التشبيه:

-التشبيه المرسل: ما ذكرت فيه الأداة

-التشبيه المؤكد: ما حذفت منه الأداة

- التشبيه المفصل ما ذكر فيه وجه الشبه.

-التشبه المجمل: ما حذف منه وجه الشبه.

- التشبيه البليغ: ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

- نماذج من التشبيه في رحلتي إلى المغرب:

بعد القراءة المكثفة للرحلة وجدتها تنطوي على الكثير من أساليب التشبيه أحاول الوقوف على البعض منها:

ما ورد في المقدمة الّتي افتتح بها(أبو القاسم سعد الله) رحلته إلى المغرب، لما وصف رحلة(ابن حمادوش)إلى المغرب باليتيمة يقول:" وإذا كان القرن الثامن عشر الميلادي قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق، رحلة (ابن عمار) و (رحلة الورتيلاني)، فإنه قد ترك لنا أيضا **رحلة يتيمة** نحو المغرب وهي رحلة (ابن حمادوش) التي أقوم بتحقيقها."[1] وهو تشبيه بليغ الغاية منه توضيح الميزة الفارقة والفريدة الّتي ميزة هذه الرحلة عن غيرها والمتمثلة في دقة الوصف " لمدن تطوان، ومكناس، وفاس وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثامن عشر."[2] إذا هي يتيمة من حيث تميزها، وتفردها عن غيرها بدقة الوصف لمدن المغرب الّتي ذكرهم المؤلف في هذا القول.

ومن التشبيه الّذي ورد في الرحلة، تشبيه السفر بالماء والهواء؛ إذ أراد تبين أهمية السّفر بالنسبة له يقول:" و**السّفر** بالنسبة لي **كالماء والهواء**."[3] ومعلوم أنّ الماء والهواء عنصران حيويان ومهمان، لا يمكن لأي إنسان

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 204

[2] المصدر نفسه، ص 204

[3] المصدر نفسه ، ص 205

الاستغناء عنهما.أما عن تشبيهه السفر بهذين العنصرين ففيه نوع من المبالغة الذاتية من الكاتب.

ومن التشبيهات في هذه الرحلة: تشبيهه الطائرة بحمامة سلام.يقول " وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع، عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أنّ الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النّواصر.وشعرت عندئذ أنّ الطائرة كانت **حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة**."[1] أراد (سعد الله) أن يوصل فكرة للعالم والمتمثلة في علاقة السلم والأخوة الّتي تجمع بين هذه الأقطار الثلاثة(الجزائر، المغرب، تونس)، مستعملا نوعا من أنواع التشبيه وهو التشبيه المؤكد.

ومن التشبيهات أيضا: تشبيه منازل أحد أحياء مدينة الرباط بالمغرب بكثبان الثلج يقول: " وعندما فتحت المدينة أبوابها...وقد وجدتني خارج سور المدينة القديم في حي غارق في الأشجار المعشوشبة المخضرة، وتطل منه **المنازل البيضاء** الناصعة **كأنهابقايا كثبان الثلج** في غابة من غابات الشمال."[2] وهو من التشبيهات التامة الّتي ذكر فيه طرفي التشبيه وأداته ووجه الشبه المتمثل في البياض.

ومن التشبيهات الجميلة تشبهه النّاس من بعيد في اندفاعهم للسباحة في أحد شواطئ مدينة الرباط بأسراب من السمك أو أسرابا من الطيور السّابحة على ظهر البحر يقول: "...واندفع النّاس إلى الماء بلهفة، وكنت تراهم من بعيد كما ترى أسرابا من سمك السّردين، أو أمواجا من الطيور السّابحة فوق الماء."[3] وهو تشبيه مجمل ذكر طرفيه والأداة وحذف وجه الشبه منه. تاركا تأويله للمتلقي، وأظن أنه أراد تصوير كثرة المصطافين.

ومنها أيضا:" رأيت القطار كأنّه خيط من الضوء"[4] شبه القطار بخيط من الضوء، ويرجع تشبيه القطار بخيط من الضوء للطول الّذي يميزه مع كثرة الأضواء المنتشرة على جوانب كل مقطورة حيث تظهر للرائي نظرا لسرعة القطار مثل الخيط.

– نماذج من التشبيه في الرحلة إلى الجزيرة العربية:

نذكر من هذه النماذج: نفي (سعد الله) أن يكون السفر إلى أي جهة أخرى مثل السفر إلى الجزيرة العربية ويتجلّى في قوله:" السّفر إلى الجزيرة العربية ليس كالسّفر إلى أي جهة أخرى."[5] ويعلل هذا الاختلاف بقوله:" فإذا كنت في بقية الأسفار تستعد ماديا للسيّاحة أو لحضور اجتماع دولي أو لأداء مهمة رسمية؛ فإنك بالنسبة إلى

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 206
[2] المصدر نفسه، ص209
[3] المصدر نفسه، ص 228
[4] المصدر نفسه، ص 227
[5] المصدر نفسه ، ص 235

الجزيرة العربية تستعد قبل كل شيء، استعدادا روحيا مهما كان غرضك المادي من السّفر."[1]

منها أيضا تشبيهه العلاقة أو الطرق الّتي تعرّف بها على أعضاء الوفد المغربي، بالعلاقة والطرق الّتي جمعته بالدكتور(عباس الجراري والدكتور عبد الكريم كريم) يقول في هذا:" عندما توقفت في مطار تونس واجتمع ركاب العبور اكتشفت وجود أعضاء الوفد المغربي...وكل أعضائه معروفون لدي بعضهم تربطني بهم رابطة المودة والعلم وأكل الخبز، والملح **مثل** الدكتور عباس الجراري والدكتور عبد الكريم كريم."[2] والأداة المستخدم هي(مثل).

-نماذج من التشبيه في رحلة(ربيع في سوف):

يبدو أنّ الكاتب لم يلجأ إلى صور التشبيه كثيرا، إلا ما دعت الحاجة إليه منها:

تشبيه حاله بعد نزوله من سيارة قريبه، وهو مبتل بالعرق حيث يقول:" ولم أكد أصل منزل العائلة حتى كنت مبتلا بالعرق كأنّني داخل حمام عربي / تركي." تشبيه تمثيلي؛ مثل حاله وهو يتصبب عرقا ، وثيابه قد ابتلت، بحال من هو داخل الحمام.

منها أيضا: قوله " وكأن القمر والنّجوم ترتدي اللون الأحمر من شدة الحر، ولا تلمع إلا كشمعة ذابلة في أعقاب الليل."[3]شبه حالة القمر والنّجوم من شدة الحر بالشمعة الذابلة .

تشبيه الحالة الكارثية الّتي حلّت بهذا المجمع حتى صار مأوى للمعربدين يقول:" ومهما كان الأمر فإنّ حالة مجمع الحرف والصنائع الجديدة أصبحت تدعو للرثاء، فهو غير محمي بسياج، لذلك فهو مفتوح للرياح كخيمة البدوية العربية..."[4] أحصيت في هذه الرحلة ثلاثة تشبيهات تدور حول تصوير حالة المشبه، وتكمن شاعرية هذه التشبيهات في إثارة مخيلة القارئ، وتنشيطها ليستدعي الصورتين ويجري مقارنة.

- نماذج من التشبيه في زيارة لخنقة سيدي ناجي:

صورة التشبيه منعدمة تماما في هذه الرحلة لأنه بصدد عرض حقائق فهو ليس بحاجة للتمثيل وهذا ديدن التقارير .

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 235

[2] المصدر نفسه، ص 238

[3] المصدر نفسه ، ص162

[4] المصدر نفسه، ص 165

2. 1. 2. 3. 4- المجاز المرسل:

هو نوع من أنواع المجاز اللغوي، على غرار الاستعارة، غير أنّ الفرق بينهما يكمن في العلاقة بين المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي فالعلاقة في الاستعارة هي المشابهة كما بين آنفا، وغير المشابهة كما يوضح التعريف الموالي هو:" لفظة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.وسمي مرسلا لأنّ العلاقة فيه ليست محصورة في واحدة بعينها، وإنما أطلقت وأرسلت، وأصبحت تشمل أكثر من جهة بيانية."[1] وللمجاز المرسل الكثير من العلاقات منها(السببية، المسببية، الكلية، الجزئية، المحليّة، الحاليّة، المجاورة الماضوية، المستقبلية، الآلية...).ونحنو هنا لسنا ملزمين بتقديم تعريف لهذه العلاقات، ليس تكبرا أو بخلا؛ لكن المجال لا يسمح بذلك، ولمن يرد الاستزادة عليه الرجوع للكتب المتخصصة.

- نماذج من المجاز المرسل والعقلي في رحلة (رحلتي إلى المغرب العربي):

وأما عن المجاز المرسل في الرحلة فهو كثير؛ لجأ إليه الكاتب عفويا للتعبير عن موقف ما، نذكر نماذج منه لإظهار أدبية هذا النص الرحلي، بوصفه قانونا من قوانين الأدبية منها:

قوله:" لانّ تغيير الهواء يصقل الذّاكرة."[2] مجاز مرسل علاقتها لجزئية، ويريد المحل أو البلد.

وفي قوله أيضا مجاز مرسل علاقته الحالية:" وأهواء العالم كمياهه لها أوزان، وأذواق مختلفة، ومن ثمة مفعول خاص **فالهواء** الّذي امتلأت به رئتا زرياب غير **الهواء** الّذي تنفسه بتهوفن، والهواء الّذي عاش به ابن رشد غير الهواء الّذي استنشقه اينشتاين."[3] مجاز مرسل علاقته الحالية والمراد المحل والمكان الّذي عاشوا فيه هؤلاء الأشخاص.

ومن هذه المجازات، قوله " وعندما فتحت المدينة أبوابها."[4] مجاز مرسل علاقتها المحلية حيث أسند فعل الفتح إل المدينة، فذكر المحل وأراد الحال وهم سكانها.

وفي قوله أيضا مجاز مرسل:" والأستاذ الكتابي عضو فعال في المكتبة، يستفيد منها **وتستفيد منه.**"[5] العبارة الأخيرة هذه مجاز مرسل علاقته المحلية ذكر المكان وهو المكتبة ويريد الحالين في المكتبة من طلبة وأساتذة وغيرهم.

---

[1] - يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية (علم المعاني – علم البيان – علم البديع)، ص 174

[2] - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 205

[3] - المصدر نفسه، ص 205

[4] - المصدر نفسه، ص 209

[5] - المصدر نفسه، ص 210

2. 1. 2. 3. 5- المجاز العقلي :

هو نوع من أنواع المجاز ويتم عند" إسناد الفعل أو ما هو في معناه(أي المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبه، واسم التفضيل..) إلى غير صاحبه لعلاقة، مع قرينة تمنع أن يكون الإسناد حقيقيا.وسمي عقليا لأنّ التّجوز فهم من العقل لا من اللغة كما في المجاز اللّغوي."[1]وله علاقات كثيرة ومتنوعة منها:(العلاقة السببية والعلاقة المكانية، العلاقة الزمانية، العلاقة الفاعلية، العلاقة المفعولية). لمن أراد الاستزادة عليه بالرجوع إلى الكتب المتخصصة في البلاغة.

وبعد القراءة المتمعنة وجدة الكثير من هذا النوع من المجازات نذكر البعض منه ولعل أول هذه المجازات :

قول أبو القاسم سعد الله متحدثا عن الرحلات المكتوبة في القرن الثامن عشر:" وإذا كان **القرن** الثامن عشر الميلادي قد **ترك** لنا **رحلتين**...فإنّه قد ترك لنا أيضا **رحلة يتيمة** نحو المغرب."[2] فيه مجاز عقلي علاقته الزمانية لأنّ الكاتب أسند فعل الترك للقرن وهو زمن على سبيل المجاز، ويريد أصحاب تلك الرحلات المكتوبة في ذلك القرن وليس القرن بحد ذاته.

ومن هذا المجاز قول سعد الله:"...عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أنّ **الطائرة ستبدأ بالهبوط** بمطار النّواصر."[3] أسند فعل الهبوط إلى الطائرة والطائرة ليست طيرا أو كائنا حتى يشرع في الهبوط، بل هناك سبب قد سبب فعل الهبوط، وهو الطيّار –سائق الطائرة- إذا هي مجاز عقلي علاقته السببية.

ومن هذه المجازات قوله:"...وفي وسط الشارع **حدائق غنّاء** تكسوها الخضرة."[4] في هذه العبارة مجاز عقلي ويكمن في إسناد(غنّاء) –والكلمة مشتقة من كلمة(الغناء) –إلى الحدائق، والحديقة مكان، والمكان لا يغني بل الطيور والعصافير التي فوق أشجارها؛ إذا هو مجاز عقلي علاقته المكانية.

ومن هذه المجازات أيضا قوله: " وقد اعتدت أن أتجول في المدينة مساء بعد عناء النهار جلبا لراحة عيني."[5] مجاز عقلي علاقته زمانية؛ حيث أسند كلمة العناء(التعب) إلى النهار على سبيل المجاز.

- المجاز المرسل والعقلي في رحلتي إلى الجزيرة العربية:

[1] - يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 170، 171

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص204

[3] المصدر نفسه، ص 206

[4] المصدر نفسه، ص 208

[5] المصدر نفسه، ص 214

دمجت الحديث عن هذين العنصرين لقلة تواجدها في هذه الرحلات نذكر منها:

مجاز مرسل في قوله:" وأثناء حفلة العشاء الّتي أقامها السيد مدير الجامعة جلست الركبة حذو الركبة مع الأستاذ الأنصاري..."[1] علاقته الجزئية؛ لأنّه عبر بالجزء عن الكل.

مجاز مرسل في قوله: " ولم أكد أصدق أنني أسير على تراب المدينة، وأنظر إلى جبالها..."[2] ذكر الجزء وهو التراب وأراد الكل أو البلد.

مجاز مرسل يقول سعد الله:" وأثناء مروري بشرطة الجوازات بحث الشرطي عن الحرف العربي في جواز سفري."[3] ذكر الجزء وأراد الكل(اللغة)، مجاز مرسل علاقته الجزئية.

– المجاز المرسل والعقلي في رحلة(ربيع في سوف):

حظ هذه الرحلة من صور المجاز العقلي، أو المرسل منعدم؛ إلا في حالة واحدة هي تصوير أهل البدوع يقول:" أما البدوع فقد تركتها في بؤس نهارا، وظلام ليلا."[4] مجاز مرسل علاقته المحلية، ذكر المحل وأراد الحالين فية أي أهله.

– المجاز المرسل والعقلي في(زيارة لخنقة سيدي ناجي):

من هذه القوانين الشعرية الّتي تزيد المتن جمالية قول سعد الله:"فهل تعود إليها **الأيدي** وتعيد لها شبابها."[5] مجاز مرسل علاقته السببية.ذكر السبب وأراد المسبب(المسؤولون والحكام)، أو من في قلوبهم ذرة حب لهذه القرية.

2. 2– على مستوى البديع:

2. 2. 1– مفهوم البديع:

البديع أو علم البديع في الاصطلاح البلاغي:" علم تعرف به الوجوه والمزايا الّتي تكسب الكلام حُسنا وقُبولا بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح دلالته، بخلوها من التعقيد المعنوي."[6] وينقسم التحسين البديعي إلى قسمين هما: المحسنات البديعية المعنوية كا:الطباق والمقابلة والتورية والمبالغة...، والمحسنات اللفظية ك: الجناس

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة ، 247

[2] المصدر نفسه، 248، 249

[3] المصدر نفسه، ص 255

[4] المصدر نفسه ، ص 174

[5] المصدر نفسه، ص 254

[6] يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 237

والسجع والاقتباس والتضمين...

2. 2. 2- نماذج من البديع في رحلة(رحلتي إلى المغرب):

2. 2. 2. 1-المحسنات البديعية اللّفظية:

2. 2. 2. 1. 1- السجع/ الفواصل:

ويعني " اتفاق فواصل الكلام في الحرف الأخير دون تقيد بالوزن، وأفضله ما تساوت فقره."[1]وهذاالنوع من الصور موطنها الأصلي هو النثر، إلا أننا نجدها من حين لآخر في الشعر. ومادامت الرحلة نثرا فحتما الصور موجود فيها قلت أو كثرت منها:

قول (سعد الله) وهو يصافح صديقه(الجراري):" فقد وجدت حرارة خاصة في يدي وأنا أصافح بها صديقي الجراري على الفرصة **الثمينة** الّتي أتاحها لي بزيارة مدينة الدار البيضاء **العجيبة**."[2] سجع في الحرف الأخير بين كلمتي الثمينة والعجيبة.

وفي قوله:" وقد تجاوز الشيخ **الستين**(يقصد والد صديقه عبد الله الجراري) ولكنه مازال في حيوية ونشاط ابن **الأربعين**."[3] سجع في كلمتي الستين والأربعين في حرفي: الياء والنون على التوالي.

وسجع في عبارة " لذيذ الطعام، وشهي الكلام."[4] وأيضا في عبارة:" وتثنى بالدجاج **المحمر**...إلى الكسكسي **المصفر**."[5]

وفي قوله: "...وبالجلوس **العربي** عن الجلوس الأوربي."[6] وفي قوله:"...المطلع الفريد، والطالع السّعيد."[7] وفي قوله أيضا:" ولعلي لو تماديت في ذكر ما دار في هذا الاجتماع لسال القلم **مدرارا**، واسودت الصحائف **أخبارا**."[8] يبدو أنّ السجع ظاهرة حظها قليل في هذه الرحلة مقارنة مع صور البيان إلا ما جاء عفويا كما قد بيناه آنفا.

---

[1] يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية ، ص 289

[2] تجارب في الأدب والرحلة، أبو القاسم سعد الله، ص 224

[3] المصدر نفسه، ص 224

[4] المصدر نفسه، ص 224

[5] المصدر نفسه ، ص 225

[6] المصدر نفسه، ص 225

[7] المصدر نفسه، ص 225

[8] المصدر نفسه ، ص 225

2. 2. 2. 2– المحسنات البديعية المعنوية:

2. 2. 2. 2. 1–الطباق /التضاد:

ومعناه في البلاغة العربية " الجمع بين المعنى وضده في لفظتين، نثرا كان أم شعرا."[1] وهو نوعان: طباق الإيجاب يكون بين لفظة وضدها نحو: القوي والضعيف، وطباق السلب يكون بين فعلين أحدهما مثبت والآخر منفي نحو: يعلم ولا يعلم وهكذا .

2. 2. 2. 2. 2– المقابلة:

هي نوع من الطباق أو التضاد ومعناها أن " يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب."[2]

وقد كان في رحلة (سعد الله) نصيبا لا بأس به من هذه الصور الشعرية، وبعد القراءة المتأنية والمتكررة وقفت على بعض من هذه الصور الضدية للتدليل على أدبية الرحلة منها:

طباق بين كلمتي(العربي، الأوربي) في قول سعد الله من الرحلة:"...وبالجلوس العربي عن الجلوس الأوربي."[3] وأيضا في حديثه عن النخبة الطموحة الّتي "تحاول الجمع بين أصالة الماضي وجدة المستقبل." [4] ثنائية ضدية بين (الأصالة(القديم) والجدة)، وبين كلمة (الماضي وكلمة المستقبل) وهذا ما يعرف في البلاغة العربية بالمقابلة.ومن هذه الثنائيات الضدية قول سعد الله:" وكثيرا ما رافقني الأخ شحلان في غُدوي ورواحي..."[5] طباق بين كلمتي غدوي ورواحي.فأراد (سعد الله) من خلال هذه الصورة الضدية تبين درجة ملازمته للأخ شحلان، فهو كظله؛ فهو رفيقه وأنسه أينما حلّ وارتحل.

ومن صور التضاد قول (سعد الله) في وصف شعوره وهو يمر بين القبور إلى الشاطئ، كأنه اشمأزّ من هذا المنظر:" وقد أختلط أمام الرائي منظر الأحياء السابحين بمنظر الأموات الهامدين، ومنظر القديم بالجديد."[6] تضمن القول ضدين: الأول بين الأحياء السابحين والأموات الهامدين، وبين القديم والجديد، أو ما يعرف في البلاغة القديمة بالمقابلة والطباق على التوالي.

---

[1] يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 244

[2] راجي الأسمر: علوم البلاغة، ص 113

[3] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 225

[4] المصدر نفسه، ص 225

[5] المصدر نفسه، ص226

[6] المصدر نفسه، ص 228

2. 2. 2. 2. 3-التضمين والاقتباس:

أولا: التضمين:

والتضمين في البلاغة العربية هو " أن يدخل الشاعر أو الكاتب في شعره أو نثره أقوالا مشهورة لغيره.[1] " من الشعر أو الحكمة أو المثل أو حتى مقاطع من النثر... ويُحكم الربط بينها وبين نصه حتى نشعر كأنها له. ومن الوظائف التي يضطلع بها التضمين تأكيد المعنى وتقويته، وتزيينه وهذا ما صرح به (إبن الأثير) في كتابه عندما تكلم عن معنى التضمين قائلا هو: " أن يضمن الشّاعر شعره، والنّاثر نثره كلاما آخر لغيره قصد الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود."[2]

يبدو أن حظ التضمين قليل جدا في هذه الرحلة، إلا في حالات ثلاث هي: الأولى تضمين بيت للشافعي حينما أراد أن يستدل على أهمية السفر في حياة الإنسان، والفوائد الجمة الّتي يجنيها المسافر من رحلته تلك.يقول سعد الله:"..لأنّ تغيير الهواء في حد ذاته يصقل الذّاكرة ويجدد العاطفة ويبعث على الفضول الّذي هو أساس المعرفة، ويحقق خمس فوائد كان الشاعر العربي قد اختصرها في قوله:

تَفَرُجُ هَمٍ واكتِسَابُ مَعِيْشَة* وَعِلمٌ وآدابٌ وصُحبَة مَاجد."**[3]

والبيت الشعري مأخوذ من قصيدة في ديوان الشافعي مطلعها :

تَغَرّبْ عَن الأَوطَانِ فِي طَلَبِ العُلَى * * * وَسَافِرْ فَفِي السَّفَرِ خَمْسُ فَوَائِدِ[4]

ومن التضمينات في هذه الرحلة، تضمينه بيت للمتنبي هذا نصه:

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا ***وَيَسْهَرُ الخَلقُ جَرَّاهَا وَيَختَصِمُ[5]

والبيت مأخوذ من قصيدة للمتنبي عنوانها:" الخيل والليل والبيداء تعرفني "[6]

ومن التضمينات تضمينه بيت من القصيدة المشهورة باسم(المنفرجة) لصاحبها(ابن النحوي)[1]، وقد سميت

---

[1] يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، ص 284

[2] ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكتب والشّاعر، تح: أحمد الخوفي، دار النهضة، مصر للطباعة، القاهرة، 1959، ط1، ج3، ص 203

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب الرحلة، ص 205

[4] الإمام الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 2003م، ص 159

[5] الإمام الشافعي: ديوان الإمام الشافعي، تح: إميل بديع يعقوب، ص 220

[6] أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنّشر، بيروت، دط، 1403هـ/1983م، ص 331

كذلك على حد تعبير (سعد الله) في كتابه(تاريخ الجزائر الثقافي) لوقوع الانفراج بها كما قيل عنها أو لاحتوائها لفظة(تنفرج) كما هو ظاهر في مطلعها.[2]:

اشتَدّي أَزْمَةَ تَنفَرِجِي ***قَدْ آذَنَ صُبْحُكِ بالبَلَجِ[3]

ثانيا : الاقتباس:

بعدما عرفنا التضمين، نعرف الاقتباس الّذي تعلق بالدين في غالبيته؛ إذا هو يعني " أن يضمن المتكلم كلامه كلمة، أو آية من آيات الكتاب العزيز خاصة."[4]

الاقتباس دائما حسب التعريف المذكور مرتبط بكلام مقدس(حديث شريف أو قرآن كريم)، ومن الاقتباسات الواردة في الرحلة: عبارة(تخطف الأبصار) [5] وهي اقتباس من قوله تعالى:﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة/آية 20] ومن الاقتباسات القرآنية: ما جاء في هذا القول:" وكانت الكتب تحمل إليه في لمح البصر."[6] فعبارة **لمح البصر** هي اقتباس من قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[النحل /آية 77]

ومن الاقتباسات قول سعد الله " لسال القلم **مدرارا**"[7] فكلمة(مدرارا) هي اقتباس من الآية الكريمة: قال تعالى:﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾[نوح/آية11]

يبدو أنّ حظ هذا النوع من الصور قليل جدا إذا ما قارناه برحلات قديمة أخرى، وتقريبا كل الاقتباسات جاء عفويا لا تكلف فيها، حتى كأننا نشعر أنّه كلام عادي لولا أننا من أهل القرآن .

---

[1] هو يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي، يكنى أبا الفضل، من قلعة حماد وأصله من توزر، ودخل مدينة سجلماسة، ومدينة فاس، ثم عاد إلى القلعة وبها توفي رحمه الله...توفي رحمه الله بقلعة حماد بلده سنة ثلاث عشرة وخمسمئة (705م) ينظر: أحمد بن القاضي المكناسي: جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، دط، 1973م، ص 552، 553

[2] ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 1500-1830م، دار العرب الاسلامي بيروت، ط1، 1998م، ص 89

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 225

[4] صفي الدين الحلي، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة، ومحاسن البديع، تح: نسيب نشاوي، دار صادر بيروت، ط2، بيروت، ط2، 1412هـ/1992م، ص329

[5] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 207

[6] المصدر نفسه، ص 212

[7] المصدر نفسه، ص225

2. 2. 3- نماذج من البديع في رحلتي إلى الجزيرة العربية:

2. 2. 3. 1- الصور الضدية:(الطباق / المقابلة): وردة في الرحلة العديد من هذه الصور نذكر بعضها للتدليل منها:

قوله:" وقد بدأت تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا إلى مطار جدة عائدا."[1] طباق بين كلمتي(ذهابا) و(عائدا).

من هذه الصور أيضا وصفه حادثة الرشوة(القهوة في العرف الجزائري) يقول:" غير أنّني شاهدت بنفسي مرة حادثة صغيرة وكبيرة في نفس الوقت."[2] طباق بين صغيرة وكبيرة. وتتجلى جمالية الصورة الضدية هنا في كونها استطاعت تبين شناعة هذه العادة الّتي ألفها الجزائريين لكثرة انتشارها بين النّاس؛ فاستصغروا أمرها.وأنّاس آخرين مازالوا يستنكرون مثل هذه المواقف، ويعدونها من قبيح الأفعال.

ومن الصور الضدية الواردة في الرحلة قول أبو القاسم سعد الله:" وخلال انعقاد النّدوة تعرفت على عدد من علماء السعودية من الجيل الجديد ومن الجيل القديم."[3] تكمن شعرية التعبير في تمييزه بين فئتين فئة تميل إلى الفكر الكلاسيكي المحافظ، وفئة تشبعت بالنظريات والفكر الغربي الحديث، ومن جماليات التضاد إيصال الفكرة في عبارة جد موجزة.

2. 2. 3. 2- صور الاقتباس والتضمين : نجدها هي الأخرى حظها قليل إلا ما جاء عفويا لاعتياد اللّسان عليه كون صاحب النص حافظا لكتاب الله تعالى، أما التضمينات فهي منعدمة تماما، وأما الاقتباسات العفوية الّتي قد لا يدركها من لا يحفظ القرآن الكريم كثيرة نذكر منها : العبارات القرآنية الّتي أصبح لسان المرء المسلم رطبا بها ألا وهي عبارة «**إن شاء الله**».فقد جاء ذكر هذه العبارة في الحوار الّذي دار بين بطل الرحلة والجمركي عندما سأله عن وجهته، فأجابه:" في نشوة وغبطة إلى جدة إن شاء الله "[4]. وهذه العبارة وردة في آيات كثيرة من آي القرآن الكريم منها في قوله تعالى: ﴿**قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ [الكهف /آية 69] ومن الاقتباسات العفوية نقله شيئا من أسلوب القرآن الكريم، للتعبير عن شدة النعاس الّذي أصابه من هذا السفر يقول سعد الله:" وتحجر هذا النوم في العيون حتى أصبح كالرصاص أو أشد منه ثقلا."[5] وهذا الأسلوب شبيه

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 237

[2] المصدر نفسه، ص 237

[3] المصدر نفسه، ص246

[4] المصدر نفسه، ص 237

[5] المصدر نفسه، ص 239

بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة /آية 74]، ومن الاقتباسات في الرحلة: قول (سعد الله) واصفا حفلة العشاء الّتي أقيمت لهم بعد الندوة في جامعة الرياض " حيث اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على فرش وأرائك."[1] وعبارة على فرش وأرائك اقتباس قرآني من قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمان /آية 54]، ومن العبارات القرآنية قول الرحال(سعد الله): واصفا المشهد الروحاني الرهيب للمسلمين من كل الأجناس، ومن كل أصقاع العالم وهم يطوفون بالبيت العتيق، ويهللون ويسبحون وقد اختلفت أشكالهم وألوانهم " في كتلة متراصة لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتّقوى."[2] هنا تظهر عظمة هذا الدين حيث استطاعت هذه الشريعة المحمدية أن توحد أتباعها وتقضي على الفوارق الاجتماعية، والفوارق الخلْقية في الشكل أو اللّون.. وتجعلهم كتلة واحدة ولحمة واحدة متطلعين إلى هدف أسمى هو عبادة الله، وطلب رضوانه جلّ في علاه.والعبارة هذه هي اقتباس من خطبة حجة الوداع الّتي ألقاها صلى الله عليه وسلم على جموع المسلمين يوم عرفة، وهو من حديث أبي نضرة عن جابر رضي الله عنهما قال: " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط التشريق حجة الوداع فقال: «يا أيها النّاس ألا إنّ ربكم واحد، ألا إنّ ربكم واحد، ألا لا فضل لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.» ألا هل بلغت، قالوا بلى يا رسول الله..."[3]

2. 2. 4- نماذج من البديع في رحلة(ربيع في سوف) :

نحاول في هذه العجالة تصيد البعض من صور التضمين والاقتباس الّتي لجا إليها الرّحال، ليلبس نصه حلة قشيبة وجميلة جعلته يعد من الأدبيات.لعل من أول هذه الصّور عبارة(**المختال الضّاحك**) الّتي جاءت في افتتاحية هذا النص يقول: "من يصف الربيع «المختال الضّاحك» في سوف يكون خارج الزمن "[4]هذه العبارة ترجعنا إلى الوراء قرون، وإلى عصر من العصور هو العصر العباسي.حتما من قرأ عن العصر العباسي لا يمر إلا ويقرأ عن قائل هذه الأبيات ألا وهو الشاعر(البحتري)[5]:

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 244

[2] المصدر نفسه، ص 251

[3] – الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت430هـ): حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، ج3، دار الفكر للنّشر والتوزيع، بيروت، دط، 1416هـ/1996م، ص 100

[4] – أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 161

[5] – أبو عبادة البحتري، الديوان، ج4، تحقيق وشرح وتعليق، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط3، دت، ص 2090

أتاكَ الرَبيعُ **الطَلقُ يَختالُ** ضاحِكاً مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَـلَّما
وَقَد نَبَّهَ النَيروزُ في غَلَسِ الدُجى أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُـوَّما
يُفَتِّقُها بَردُ النَدى فَكَأَنَّـــهُ يَبُثُّ حَديثاً كـــانَ أَمسِ مُكَتَّما

إذا العبارة الّتي ضمنها الرّحال إلى كلامه هي من شعر(البحتري)، الّتي وصف فيها الربيع الجميل.عكس (سعد الله) الّذي استعملها في موضع أراد منها الاستهتار بحال الربيع في المناطق الصحراوية، ولاسيما مدينة(وادي سوف).

ومن الاقتباسات الضمنية قول سعد الله:" رغم أني كنت أتفادى رياح **السموم**(الشهيلي) الّتي تهب من الجنوب الغربي."[1] فالكلمة هذه هي اقتباس من قوله تعالى من سورة الواقعة: ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ الواقعة:41-42، ومن الاقتباسات الضمنية الّتي لجأ إليها(سعد الله)، ليصف الحالة الكارثية الّتي آلت إليها البلدة القديمة التي كانت معلما حضاريا وثقافيا ثمينا في هذه الولاية العريقة يقول:" أما البلدة القديمة فقد طاف بها طائف خرقها وسلخ جلدها وكشف سرها وأزال معلما من معالمها..."[2] وهي اقتباس ضمني من القرآن الكريم كأنّ الكاتب يشبه ما صارت عليه البلدة القديمة، بحالة الجنتين في سورة القلم، بعد طغيانهم، ومنعهم المساكين من دخولها، وعدم شكر المنعم، وأصحاب السفينة المساكين في سورة الكهف، الّذين خرق الخضر سفينتهم يقول تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم /آية19] ويقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[الكهف /آية 71] فسعد الله لكي يوصل لنا الحالة المزرية الّتي أصبحت عليها البلدة القديمة مزج بين تعبيرين مقتبسين من الذكر الحكيم أولهما: قصة أصحاب القريتين بعد هلاكهما، والسفينة الّتي خرقها سيدنا الخضر.

ومن التضمينات أيضا تضمينه قصة جميلة من قصص التراث العربي هي قصة(ميسون بنت بحدل) أم يزيد بن معاوية التي كانت قد فضلت حياة الفقر، والبداوة على حياة القصور، وقد روت ذلك في أبياتها الشهيرة والّتي كانت سببا في طلاقها تقول فيها:[3]

لَبَيتٌ تَخفَقُ الأَروَاحُ فيه أَحَبُّ إليَّ من قَصر مَنيف

[1] – أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 162
[2] – المصدر نفسه، ص 163
[3] – بشير يموت: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1353هـ/1934م، ص 157، 158

وبِكرٌ يَتبَعُ الأَظعَانَ سَقيَا أَحَبُّ إليَّ من بَغل رَفُوف

وَكَلْبٌ يَنبَحُ الطُّرَّاقَ عَني أَحُبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطِ أَلِيْفِ

وَلِبْسِ عَبَاءَةٍ وَتَقِرُ عَيْنِيْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لَبْسِ الشُّفُوفِ

وَأَكْلُ كُسَيْرَةٍ فِي كَسْرِ بَيْتِي أَحَبُّ إِلَّي مِنْ أَكْلِ الرَّغِيْفِ

فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطَني بَديْلًا وَمَا أَبْهَاهُ مِنْ وَطَنِ شَرِيْفِ

من الاقتباسات الحرفية أيضا في قول(سعد الله) استخدامه عبارة قرآنية منوها بهذه المدينة الّتي فقدت الربيع، وعوضها الله خيرا منه وهو ما جادت به قريحة الإنسان من آداب، وعلوم، وثقافات وفنون على اختلافها وهذا نصه من الرحلة يقول الكاتب :" إنّ ما أردناه هو أنّ ما لم تجد به الطبيعة من زهور يانعة، وحدائق غنّاء جادت به قريحة الإنسان حين **أنبتت من كل زوج بهيج** في العلم والأدب والفن."[1] والعبارة المكتوبة بالنبط الغليظ هي اقتباس من قوله تعالى من سورة(ق):﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[سورة ق/ آية(7)].هذا المتن الرحلي غني جدا بهذا النوع من الصور خاصة الاقتباس القرآني يبدو لي أنّ في هذا القدر كفاية لإثبات أدبية النّص.

نماذج من البديع في رحلة (زيارة إلى خنقة سيدي ناجي):

يبدو أن حظ هذه الزيارة-الرحلة- من جمالية الأسلوب والوصف قليل جدا، أو تكاد تنعدم مقارنة بنظيراتها، ربما يعود السبب إلى طريقة الكاتب في سرد أخبار رحلته، فكانت تشبه طريقة التقرير الوصفي[2]، لأنّه في معرض جمع معلومات عن ظاهرة ما، وهذه الظاهرة هنا هي: قرية أو خنقة سيدي ناجي، وتقصي ما أمكن من معلومات عنها، وبالضبط كما قال سعد الله:" وأنّ اهتمامي الآن بالمعالم الأثرية والمراكز العلمية لهذه المدينة الّتي عرفت ازدهارا في القرن الثاني عشر للهجرة(18م)."[3]ومما ذكر من هذه الصور صورتين لا أكثر، وأول هذه الصور ما جاء في قول سعد الله " ولا شك أن زاوية الشيخ عبد الحفيظ قد بدأت تنشر العلم، وإقراء القرآن، وإطعام

[1] – أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 168

[2] – التقرير الوصفي: هو تقديم توصيف كاملا لظاهرة، أو حدث ما، وتكون محتوياته في شكل فقرات وصفية، وتكتب بأسلوب وصفي سردي. ينظر الشبكة العنكبوتية: التقارير، تعريفها، أنواعها، عناصرها، وكيفية كتابتها، .../annajah.net

[3] – أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 259

الطعام."[1] وهذه العبارة الأخيرة هي اقتباس حرفي من حديث نبوي هذا نصه:عن أبي يوسف عبد اللَّه بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما أن النبي ﷺ قال:(أيهاالناس أفشواالسلام، وأطعموالطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[2] رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

ومن هذه الاقتباسات أيضا ما جاء في معرض حديثه عن سبب انقراض الكتب من هذه الزاوية النّاصرية، وجامعها، وخروج الناس منها لسنوات ثورة التحرير الكبرى، ومعلوم لدى الكبير والصغير أنّ عدد سنوات حرب التحرير حوالي سبع سنين.لذا عبر عنها سعد الله باقتباس يماثلها من النص القرآني قائلا على لسان محدثه:" مرت بنا سبع سنوات عجاف حتى أنّ أحد لم يصعد منّا إلى صومعة الجامع للآذان."[3]، فعبارة(سبع سنوات عجاف) هي اقتباس من قوله تعالى:﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[سورة يوسف/ آية(43)]، اقتباس ليس حرفي تماما، لكن فيه نوع من التحوير.

يبدو لي أنّ في هذا القدر كفاية، لإثبات أدبية هذا المتن الرحلي، بعد الوقوف على العديد من قوانين الأدبية البلاغية بداية بعلم البيان وما تفضل به علينا من آليات كالاستعارات والكنايات والمجازات، وعلم البديع وآلياته الكثيرة توقفت عند بعضها كالتضاد الطباق والمقابلة والسجع، وبعض التضمينات، والاقتباسات التي توافرت عليها هذه الرحلات حيث تضافرت كل تلك الآليات المذكورة آنفا مشكلة أدبية وشعرية متن الرحلة، لكن نستثني هنا الرحلة الأخيرة كونها كتبت على شكل تقرير وصفي علمي، وهذا النوع من الكتابة العلمية، يتطلب الموضوعية، أكثر منها الأساليب الشعرية.

*: البنية السردية في رحلات سعد الله:

الرحلة كنص شكل من أشكال الكتابة، قد تكون نثرا ك: رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير...أو شعرا ك: رحلة طائر الورشلان...، لكن الشكل الغالب والشائع هو النثر بطبيعة الحال؛ اتخذها الرحّال وسيلة لعرض كل ما شاهده أو عايشه خلال مشواره لبلد ما، وذلك في أسلوب جمع فيه بين السرد والخبر.يتخيّر فيهما الصدق وعدم المبالغة قدر الإمكان.ورحلات (سعد الله) على غرار الرحلات القديمة؛ انتهج في تأليفها هذه الطريقة السردية

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 263

[2] – أبي زكريا يحي بن شرف النّووي الدمشقي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تعليق وتحقيق: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1428هـ/2007م، ص 264

[3] – أبو القاسم سعد الله تجارب في الأدب والرحلة، ص263

لعرض معلوماته، وانطباعاته ومشاهداته عن البلد الآخر المرتحل إليه.فما هي أهم البنيات السردية في رحلات (سعد الله) بخاصة، و في العصر الحديث عامة؟.

1- بنية الشخصية :

1. 2- لفظ الشخصية في المعجم: جاء في تعريف لفظ(الشخصية)أو مادة(ش.خ.ص)في معجم لسان العرب على أنها:" جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر، والجمع أشخاص، وشخوص، وشخاص...والشخص سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد...وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه...الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات؛ فاستعير لها لفظ الشخص."[1].حسب ما يفهم من التعريف أنّ كلمة الشخص تعني الإنسان لا غير.و نفس المفهوم نجده عند صاحب(القاموس المحيط) يقول:" الشخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد."[2] أما في قاموس السرديات (لجيرالد برنس) فهي "كائن له سمات إنسانية ومنخرط في أفعال إنسانية " ممثل " له صفات إنسانية.ويمكن أنتكون الشخصية رئيسية أو ثانوية(طبقا لدرجة بروزها النّصي)."[3] التعريف يدخل في دائرة الشخصية كل من يحمل سمات إنسانية، حتى وإن كان حيوانا، أو جمادا، وحتى معنويا قد أضفى عليه الراوي خصائص وسمات إنسانية؛ مما يزيد هذا التعريف من توسيع معنى الشخصية في النّصوص الروائية.أما في الرحلة فشيء آخر. الشخصية لا تخرج من إطارها الإنساني؛ لارتباطها بالواقع الحقيقي، لا الخيال كما هو في النصوص الروائية. وهذا ما صرح به(حسن بحراوي)حين تحدث عن الشخصية الروائية قائلا:" وغني عن البيان أنّ الشخصية الروائية ليست هي المؤلف الواقعي، وذلك لسبب بسيط هو أنّ الشخصية محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة يسعى إليها."[4]

1. 3- مفهوم الشخصية في الاصطلاح:

الشخصية هي الدعامة الأساسية في النصوص السردية عامة، والرحلة بخاصة لارتباطها بالحدث مباشرة؛ ولهيمنة بنية السّفر عليها لذا " من الطبيعي أن تكون الشخصية إحدى الدعائم الأساسية الّتي تبنى عليها الرحلة."[5] كما أنها " القطب الّذي يتمحور حوله الخطاب السردي، وهي عموده الفطري الّذي يرتكز عليه."[1] ولما

[1] – ابن منظور لسان العرب، مادة (ش خ ص)، مج 7، دار المعارف القاهرة، دط، 2010م، ص 45

[2] – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 845

[3]– جيرالد برانس، قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت والمعلومات، القاهرة، ط1، 2003م، ص 30

[4] –حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م ن ص 213

[5] – الطاهر حسيني، الشخصية المركزية في الرحلة العلمية بين سلطان الآنا صورة الآخر، فتح الإله ومنته لأبي راس الجزائري نموذجا، مقال، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، ص8

كانت جل التعريفات تخص الشخصية في الرواية، والرواية مبنية في أساسها على الأخيلة والتخيل، لا مفر من تعريفها من هذا الجانب لفشوه وطغيانه على الدراسات السردية.

وجدير بالذكر أنّ الشخصيات، أو الشخصية في الرواية ليست " هي المؤلف الواقعي؛ وذلك لسبب بسيط هو أنّ الشخصية محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة يسعى إليها."[2] نفهم من القول أنّ الشخصية في النصوص المبنية على الخيال ليست من الحقيقة في شيء، بل هي من صنع خيال الكاتب أبدعها ليوصل رسالة عن طريقها؛ وليفتح باب التأويل للقارئ ليكشف هذه الرسالة، أو المعنى المقصود منها.

وانطلاقا من هذا الكلام يمكن عد الشخصية في الرواية بخاصة، والنصوص الخيالية عامة " مجموعة من الكلمات، لا أقل ولا أكثر؛ أي شيئا اتفاقيا...يستعملها الروائي عندما يخلق شخصية ويكسبها قدرة إيحائية كبيرة بهذا القدر، أو ذاك."[3]

أما الشخصية في نصوص الرحلة هي شخصيات حقيقية، لأنّ الرحلة قد حدثت في الواقع قام بها إنسان أو شخص بلحمه ودمه هو، بطبيعة الحال الراوي لأحداثها، أو الكاتب لها، وليست خيالية أبدعها خيال الكاتب، إلا في حالتين: الأولى في نصوص الرحلة الخيالية كرحلة السندباد ورسالة الغفران للمعري...، أما الثانية: في حالة التأليف الكاذب والمزعوم وهكذا.وعلى هذا النحو يمكن تقسيم شخصيات الرحلة إلى ثلاث شخصيات هي كالتالي :

1. 4- أقسام الشخصية في نصوص الرحلة:

إذا سلمنا بالتقسيم الّذي وضعه الموافي عند حديثه عن الشخصيات في أدب الرحلة؛ حيث ميّز بين نوعين من الشخصيات هما:شخصيات ثابتة وهي حسب تعريفه أنها " دائما شخصية الرحال نفسه وقد يرافقه بعض الصحاب؛ لكن لا يمكن عدهم شخصيات ثابتة، إلا إذا كانت مشاركتهم في الحدث إيجابية."[4]، وشخصيات عارضة، أو شخصيات ثانوية سيأتي الحديث عنها في باب الشخصية الثانوية، إذا مادامت الشخصية المحورية في الرحلة هي الرحّال، وهو من قبيل البطل في الرواية فالرحلة ككل متعلقة به، وهو راويها وكاتبها في أغلب الأحيان كما هو معلوم عند المتخصصين في هذا الميدان؛ فإبن جزي مثلا هو كاتب رحلة (ابن بطوطة) وليس هو من قام بها، وتعد شخصية الرحال أو بطل الرحلة وساردها من الشخصيات الّتي " اعتمدتها الرحلات في المقام الأول...

[1] – جميلة قيسمون، الشخصية في القصة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد:13 جوان 2006م، جامعة الإخوة منتوري في قسنطينة، ص 213م

[2] – حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م، 213

[3] – المرجع نفسه، ص 213

[4] –– ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 257

لأنها كفلة الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكها، فحضورها حضور دائم وفاعل، ويثبت هذا الكلام قول الناقدة(نوال الشّوابكة) أنّ حضور الشخصية " يكفل الوحدة الموضوعية للعمل ويضفي عليه السمة الفنية."[1] فهذه الشخصية لا غنى عنها لتحقيق الترابط النصي بين فقراته، وتسلسل أحداثه كما تضفي عليه السمة الفنية وبالتالي تحقق شعرية هذا المتن السردي –نص الرحلة بطبيعة الحال–والسارد عندما يحكي عن رحلته والأحداث الّتي جرت فيها معه يصبح هو موضوع السّرد، ومركزه ومنطلقه، يؤكد هذا الكلام قول (سعيد يقطين) عند حديثه عن الراوي(السّارد) حيث رأى أنّه" موضوع السّرد عندما يحكي عن تجاربه، والأحداث الّتي تطرأ له، في هذا الفضاء أو ذاك."[2] وظهور هذه الشخصية يتجلى من خلال استعمال ضمائر المتكلم(أنا ونحن) ظاهرة، أو مقدرة منفصلة، أو متصلة، بضمير يعود على صاحب الرحلة.

وخلاصة الكلام من هذا كله هو أنّ الشخصية المركزية في أدب الرحلة، والّتي لا يختلف فيها اثنان هي شخصية الرحال وبطل هذه الحكاية؛ لأنه هو من عاشها بحلوها ومرها، وهو راويها، وكاتبها في أغلب الأحيان.

والنتيجة من هذا كله هي أنّ الرحلة تميزها ثلاث أنواع من الشخصيات هم على التوالي : شخصية محورية وهي دائما وأبدا شخصية الرحالة /السارد في غالب الأحيان ، ثانيا شخصيات رئيسية وهي شخصيات استعان بها الرحّالة في رحلته ، وشخصيات ثانوية أو عارضة حضورها قليل ودورها غير فعال في الرحلة .

يمكن أن نقف على هذه الشخصيات في (رحلات سعد الله) ونصنفها حسب أهميتها في الرحلة ولعل أول هذه الشخصيات هي :

1. 4. 1 :شخصيات البطل/السارد ووظائفها في رحلات سعد الله:

أولا : في رحلة(رحلتي إلى المغرب العربي):

1– شخصية البطل :تظهر شخصية هذا البطل من أول(فعل) استخدمه للدلالة على أنه هو من قام بهذه الرحلة يقول: " زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي...منذ أمد طويل والأمنية تراودني لزيارة هذا البلد الّذي تربطني به أكثر من رابطة."[3] فضمير المتكلم أو(الأنا) يثبت حضور الرحال الدائم، وبالتالي إثبات واقعية الرحلة. كما تظهر شخصية الرحال(البطل) من خلال استخدامه لضمير الجمع المتكلم يقول:" وكانت الطائرة قد

[1] – نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ص 292

[2] – سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي (من أجل وعي جديد)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م، ص 64

[3] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 205

حلقت **بنا** فوق سحب كثيفة أخذت في الانقشاع كلما **توغلنا** في اتجاه الغرب."[1] يثبت هذا الضمير حضور السارد في الرحلة وبالتالية واقعيتها وفعليتها.

وهذه الشخصية المركزية السّاردة، تحكي لنا أحداث عاشتها وتجارب اختبرتها، كونها السّاردة للأحداث والبطل في نفس الوقت وبالتالي فالرّحال يسرد أو يحكي مقطع سير ذاتي؛ لتصبح الرحلة نوعا من السيرة الذاتية لطغيان ضمير المتكلم بنوعيه المفرد والجمع، المنفصل والمتصل.

2- وظائف السارد/ البطل :

كما اضطلعت شخصية الرحال أو السّارد بمجموعة من الأدوار أو الوظائف لعل أهمها: الوظيفة السردية ووظيفة الوصف.

2. 1- الوظيفة السردية: تتعلق هذه الوظيفة بالسّاردحيث تتمثل" في عرض الحكاية للمتلقي."[2] يمكن أن نمثل لهذه الوظيفة من رحلة (سعد الله) للمغرب العربي بهذه المقاطع القصيرة يقول مفتتحا عملية السّرد :" زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي(من 29يوليو إلى 19 أغسطس 1973م)."[3] ومن هذه المقاطع السردية قوله:" ولم تستغرق الإجراءات في مطار النواصر سوى بضع دقائق، وعندما اقتربت من مفتش الحقائب سألني من أين، فقلت من الجزائر فقال بود: أهلا وسهلا..."[4] وكثيرا ما ارتبطت مقاطع السرد بالطبقة المثقفة والأدباء منها: وهو في صحبة الأستاذ الكتاني يقول:" ومشينا معا حتى وسط المدينة، فكان يتحدث وأنا أستمع ولم أقاطعه إلا نادرا، وكان كثير الاطلاع على حركة حزب الشعب والحركة الإصلاحية في الجزائر ورجالها..."[5] وهذا إن دل فهو يدل على شخصية البطل الباحثة والمثقفة، والاجتماعية في نفس الوقت.

2. 2- الوظيفة الوصفية: من خصائص السّرد في نصوص أدب الرحلة طغيان وظيفة الوصف الّتي يؤديها السّارد، أو البطل على سائر الوظائف الأخرى، وقد جاء في تعريف هذه الوظيفة على أنها انتقال " من السرد إلى الوصف...إذ ينتقل من وظيفته الأساسية(عرض الحكاية على المتلقي) إلى وظيفة الواصف، أي إنه يخرج من سرد الأفعال إلى تمثيل الموصفات."[6] نمثل لهذه الوظيفة بهذه النماذج أو المقاطع الموجودة في الرحلة منها: ما تعلق

[1] – أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة، ص 206

[2] – مرشد أحمد تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2019م، ص 19

[3] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 205

[4] – المصدر نفسه، ص206

[5] – المصدر نفسه ، ص 211

[6] – مرشد أحمد تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة.ص 143

بوصف الأشخاص:" ورأيت وأنا في المكتبة شخصا كبير السن طويل القامة أبيض البشرة مرتديا ثيابا مغربية خفيفة بيضاء وحذاء أصفر.جالسا في ناحية منعزلة من القاعة، وكان يرفع صوته إذا تحدث..."[1] ومنها ما تعلق بوصف المنشآت –وصف منزل الصائغ– يقول سعد الله:" وهو عبارة عن مغنى(فيلا) ضخمة من طابقين، وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت بالجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية.وفيها أجزاء منقوشة بنقوش مغربية –أندلسية.وقد علقت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة.وفي طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر.وعلى الجدران علقت بعض صور الأسرة."[2]

ثانيا : في رحلة(رحلتي إلى الجزيرة العربية):

1– شخصية البطل/السارد :الشخصية المحورية والمركزية في هذه الرحلة دائما شخصية(أبو القاسم سعد الله) لأنه صاحب الرحلة وبطلها، وساردها.للتّدليل على حضور هذه الشخصية في الرحلة نستنبط بعض الكلمات أو الحروف أو كل ما يشير إلى شخصية البطل(الرّحال)، أو بعبارة أخرى ما اتصل بضمير المتكلم، لنثبت حضوره ومنه واقعية الرحلة.من هذه الكلمات ما ورد في هذا القول:" وقد بدأت تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا إلى مطار جدة عائدا.فقد كان سفري يوم 21 أبريل صباحا، سنة 1977، وفي مطار الجزائر خضعت لتفتيش دقيق وليس ذلك من عادة الجمارك معي عندما أسافر إلى اتجاهات أخرى.ولكن هذه المرة سألني الجمركي:إلى أين متوجه؟ فقلت له في نشوة وغبطة: إلى جدة إن شاء الله.فقال:ماعندك؟فقلت حاجاتي الشخصية.فقال:افتح الحقيبة..."[3] وهكذا إلى آخر الرحلة، فقد حفل نص الرحلة بالكثير من الضمائر الّتي تعود على صاحب الرحلة – ضمائر المتكلم – فمثلا في هذا القول أول الضمائر الّتي ترجع على الراحل: تاء الفاعل في كلمتي(بدأت، خضعت) التي تعود على السارد، وياء المتكلم في هذه الكلمات(تسجيلاتي، سفري، معي، سألني) وكلها تدل على أنّ البطل – أبو القاسم سعد الله – حاضر وموجود في الرحلة بقوة كبيرة، وهذا الحضور اللافت إن دل فإنما يدل على الجانب الذاتي لصاحب الرحلة، وبالتالي يمكن عد الرحلة من قبيل السيرة الذاتية.لأنّ السارد يحكي عن نفسه في رحلته.كما لا نغفل ضمائر المخاطب أيضا في مقطع الحوار الّذي جرى بين شخصية السّارد في المطار مع الجمركي الّذي خاطبه قائلا:(إلى أين أنت متوجه؟...فقال: ما عندك؟...فقال: افتح الحقيبة.) ما نلحظه أنّ ضمائر المخاطب من الضمائر الّتي تثبت حضور السارد في رحلته على منوال ضمائر المتكلم.لكن مجالها ضيق جدا لتعلقها بجمل الحوار المبنية على ضمائر المخاطبة.

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص212

[2] – المصدر نفسه، ص 223

[3] – المصدر نفسه، ص 237

2- وظائف البطل/السّارد:

2. 1 الوظيفة السّردية :على غرار النصوص السردية عامة نجد أنّ الوظيفة السردية هي من أهم وظائف السّارد، وأكثرها ظهورا، يمكن أن نمثل لها بهذه المقتطعات من رحلة سعد الله إلى الجزيرة العربية يقول في أول هذه المقاطع:" فقد كان سفري يوم 21 أبريل صباحا، سنة 1977 وفي مطار الجزائر خضعت لتفتيش دقيق وليس ذلك من عادة الجمارك معي عندما أسافر إلى اتجاهات أخرى..."[1] ففي هذا المقطع السردي نقل لنا سارد الرحلة يوم وشهر وسنة الرحلة إلى الجزيرة العربية، ومن هذه المقاطع قوله :" والطائرة الّتي أقلتنا من مطار الجزائر سعودية كانت قادمة من المغرب.وقد توقفت بنا في مطار تونس ومطار طرابلس ومنه مباشرة إلى مطار جدة، وعندما توقفت في مطار تونس واجتمع ركاب العبور اكتشفت وجود أعضاء الوفد المغربي المتوجه أيضا إلى ندوة الرياض."[2] يقوم السّارد في هذا المقطع الموجز بإخبارنا بمسار سفره، والأعضاء الّذين التقى بهم في مطار تونس من الوفد المغربي الّذين كان يعرفهم من قبل.

2. 2 – الوظيفة الوصفية: وتلي هذه الوظيفة في الأهمية وظيفة أخرى هي الوظيفة الوصفية في مثل هذه النصوص.من نماذج هذه الوظيفة وصف حفل العشاء الّذي نظّمه مدير جامعة الرياض يقول:" ومن الحفلات أيضا حفلة العشاء الّتي أقامها السيد مدير جامعة الرياض في الموقع الجديد للجامعة في الهواء الطلق حيث اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على فرش وأرائك.وقد قدمت لهم القهوة العربية قبل تناول العشاء.ثم صففت جفان الأرز باللّحم وأعقبوها بالشاي."[3]يبدو أن وصفه لهذا الحفل لم يأتي لمجرد الوصف بل لتمرير رسالة للمسئولين ومدراء الجامعات في بلده الجزائر، كما أنه يحمل دعوة اهتمام وتقدير لأستاذ التعليم العالي الّذي يعاني التهميش على كافة الأصعدة خاصة الجانب المالي، ومن الوصف ما تعلق بوصف المدن يقول سعد الله:" والدرعية القديمة عبارة عن خرائب لمباني قديمة إستراتيجية، وهي تقع على وادي بوحنيفة، وحولها النخيل والأشجار وبعض الكدى، [4] ومن هذا الوصف أيضا وصف مدينة الرياض يقول سعد الله واصفا هذه المدينة:" وفي مساء أحد الأيام تجولنا في مدينة الرياض فإذا هي عاصمة كبيرة تمتد على مساحات شاسعة، وتتخللها الشوارع الواسعة الطويلة والأشجار الباسقة...كما يشاهد المرء فيها المباني الحكومية الفخمة ذات الطراز المحلي الواقي من حرارة الشمس

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 237

[2] المصدر نفسه، ص 238

[3] المصدر نفسه، ص 244

[4] المصدر نفسه، ص 244

والعمارات الشاهقة والفنادق الّتي تنسيك أحيانا أنك في صحراء..."[1] وهذه الوظيفة تسهم بقدر كبير في إثبات واقعية الرحلة، وحضور السارد كشخصية محورية ومركزية؛ لأنها المحرك الرئيسي لأحداث الرحلة؛ وغيابها يعني لا حدث وبالتالي لا وجود لرحلة.

ثالثا: في رحلة(ربيع في سوف):

1- **شخصية السّارد(البطل)** :حاضر بقوة في هذه الرحلة، ودليل ذلك استعمال السّارد ضمير المتكلم ليحكي عن نفسه ومشاهداته في رحلته إلى سوف؛ فشخصية البطل-السارد- في الرحلة جلية عكس البطل في النصوص الخيالية الّتي يستخدم شخصيات يتوارى وراءها ليمرر رسالة. وضمائر المتكلم تنوعت بين ضمير المفرد والجمع.فمن ضمائر المتكلم المفرد قول سعد الله:" زرت سوف في شهر مايو...فلم أجد في المطار سوى الورود الاصطناعية...وعندما خرجت من الطائرة شعرت بوهج يلفح وجهي...فأسرعت الخطى نحو قاعة الاستقبال لأخذ حقيبتي..."[2] ففي الكلمات(زرت، لم أجد، خرجت، شعرت، وجهي، أسرعت، حقيبتي) وغيرها ، اتصلت هذه الكلمات بضمائر المتكلم على اختلاف أشكالها منها تاء الفاعل، والضمير المستتر، وياء المتكلم الّتي تعود على السّارد وهو يحكي عن نفسه في رحلته. ومن ضمائر المتكلم ضمير الجمع قوله: من الرحلة " ولما تقادم اللّيل أحسسنا بنسيم رطب خفيف فاستبشرنا به وانشرح مزاجنا وطاب نومنا..."[3] هذه بعض الكلمات الّتي يظهر السّارد أو البطل من خلالها في رحلته(أحسسنا، استبشرنا، مزاجنا، نومنا).هذا من تواضع السّارد، وعرفانه بالجميل أن يشرك من استضافوه وقدموا له يد العون في رحلته.

2- وظائف السّارد:

2. 1- الوظيفة السّردية :أهم وظيفتين يقوم بها السّارد هي على التوالي: الوظيفة السردية، والوصفية كما ذكرنا سابقا حيث تتمظهر الوظيفة الأولى في الرحلة في العديد من المقاطع نذكر بعضا منها لأجل الاستدلال يقول الكاتب:" زرت سوف في شهر مايو...فلم أجد في المطار مثلا سوى الورود الاصطناعية...وعندما خرجت من الطائرة أحسست بوهج يلفح وجهي...فأسرعت الخطى نحو قاعة الاستقبال لأخذ حقيبتي."[4]يبين لنا السارد من خلال هذا المقطع السردي، اليوم الّذي خرج فيه زائرا، والبلد الوجهة أو المقصد؛ وهي مدينة الوادي العريقة

[1] أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة، ص245

[2] أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص 161، 162

[3] المصدر نفسه، ص 162

[4] المصدر نفسه، ص 161، 162

بأمجادها وسؤددها.ومنها أيضا قوله:" وفي الصباح تهيأت للخروج وغيرت ثيابي العاصمية، ولبست ثيابي السوفية..."[1]

2. 2- الوظيفة الوصفية :أما الوظيفة السردية الثانية، والّتي لا تخلو منها رحلة مهما كان نوعها علمية، أو دينية أو سياحية إلى غير ذلك من أنواع الرحلات وهي الوظيفة الوصفية.حيث المتأمل في هذه الرحلة يجدها مرتبطة بوصف الحالة المزرية الّتي أصبحت تعاني منها مناطق وادي سوف.يقول (سعد الله) واصفا الأوضاع الّتي آلت إليها بلدة(قمار)، هذه البلدة العريقة " فقد تجولت في سيارة قريبي في الشارع الرئيسي الّذي زينوا به مدخل ومخرج البلدة(قمار)، فجعلوه طريقا مزدوجا محفوفا بالدكاكين الجديدة والأشجار المسقية والعشب المغروس.هذا الشارع يصبح في المساء ملتقى الأصدقاء ومرصد الفضوليين ومن ضاقت بهم منازلهم."[2] ومن الأوصاف ما جمع فيها بين وصف الحالة والمقارنة بين حالة البلد القديمة، وحالته الراهنة.يقول في وصف الرحبة القديمة:" إن الجيل القديم يتذكر أنّ « الرحبة » المذكورة أو القصبة كانت مجمعا للتجار يكتظ يوم الجمعة بجموع المتسوقين القادمين من أنحاء المنطقة وأيضا مجمعا لأصحاب الحرف من الحدادين والنجارين..."[3] بعد هذا الوصف لحالة الرحبة القديمة ينتقل ويصف حالتها الراهنة، الّتي هدمت وأزيلت معالمها يقول:" هذه «القصبة» العتيقة قد هدمت وفتحت للشمس والهواء وأصبح مكانها لا يختلف عن أية ساحة عمومية أو مفترق طرق.والحارات والأزقة الضيقة الّتي كانت مبنية بالجبس والحجر المحلي قد اخترقت وفتحت هي أيضا بحجة تهوية المنازل وتسهيل مرور قوات الأمن وعبور السيارات، بدل مرور النّاس بها راجلين أو على ظهور الحيوانات."[4]

رابعا: في رحلة(زيارة إلى خنقة سيدي ناجي):

1- شخصية البطل /السّارد :دائما مع السارد/البطل (أبو القاسم سعد الله)، في هذه الرحلة الداخلية، داخل ربوع الوطن، وكعادة الرحلات الّتي يرويها أصحابها بأنفسهم يستعملون ضمائر المتكلم؛ لأنهم يحكوا عن جزئية من حياة عاشوها في هذه الفترة القصيرة، أو الطويلة كما عند الرحالة الشهير (ابن بطوطة).ولأن الرحلة قام بها شخص البطل /الرّحالة الّذي هو ساردها، ومؤلفها، نقف من خلال هذه الحيثية على بعض الكلمات الّتي تشير إلى حضوره داخل رحلته، وبالتالي واقعية الرحلة وصدقها.بعد القراءة المتكررة والسريعة في آن، وجدت الكثير

[1] أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف ، ص 162

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 162

[3] المصدر نفسه، ص 163

[4] المصدر نفسه، ص 163

من الكلمات الدالة على السّارد؛ لأنها ترتبط بضمائر دالة على المتكلم المفرد منها: الضمائر المتصلة ومنها:(توجهت، تساءلت، فشكرته، نظرت، قيل لي، زيارتي، أعرف، اهتماماتي...) وضمائر الجمع والمثنى(نحن) منها(مررنا، بيننا، اقتربنا، وجوهنا، عرفنا، تقدمنا، وصلنا، فتوقفنا...)، وإذا أجرينا مقارنة بين عدد الكلمات والحروف المرتبطة بضمائر الدالة على المفرد، والدالة على الجمع أو المثنى لرجحت كفة الدالة على الجمع أو المثنى وهذا إن دل فإنّه يدل على أنّ الرحال لم يسافر وحده، بل كان له رفيق صاحَبه على مدار أيام الرحلة.

2- وظائف السّارد :

2. 1- الوظيفة السّردية: يمكن أن نمثل لها من هذه الرحلة بهذا القول:" ففي يوم 8 فبراير بكرة(السّاعة السادسة صباحا رفقة الأستاذ علي باشا...والأستاذ ميموني الغسيري، والشيخ الأخضر الحنفي.إلى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة..."[1]

2. 2- الوظيفة الوصفية: يمكن أن نمثل لهذه الوظيفة بقوله:"...مر أمام النافذة شيخ في حدود الثمانين من عمره ملتحفا بغرارة فقط(رغم شدة البرد) وكان حاسر الرأس والمخاط يسيل من أنفه والدموع من عينيه..."[2] وهو من قبيل وصف المظاهر.

ومن وصف المنشآت: الزاوية الناصرية بعيون هذا الرحال أنها " تحتوي على خمس عشرة غرفة، وتضم كل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب.وفي إحدى هذه الغرف درس الشيخ المرحوم أحمد السرحاني، تلميذ (ابن باديس)...فوجدت وسط المدرسة باحة وحولها الغرف لسكنى الطلبة في طابقين، ولها بابان، باب خارجي على الزقاق وباب داخلي يؤدي إلى الجامع...ولهذه المدرسة بالإضافة إلى الغرف حمامات وكوشة وصخور ونحوت منحوتة بأحواض ماء لمحو الألواح..."[3] يبين القول الدور الايجابي لهذه الزاوية في تعليم الطلبة وتثقيفهم ثقافة دينية الّتي يحتاجونها طيلة مشوار حياتهم.

: وبعد هذا التعريف الّذي يبدو لي أنّه وفى بالغرض نمر إلى نصوص الرحلة المتوفرة لدي؛ لنقف على هذه الشخصيات الرئيسية، وندرس في عجل العلاقة بينها وبين البطل /السّارد.

1. 4. 2- الشخصية الرئيسية و الشخصية الثانوية في رحلات سعد الله:

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 257

[2] المصدر نفسه، ص 258

[3] المصدر نفسه، ص 261

أولا: في رحلة (رحلتي إلى المغرب):

– **الشخصية الرئيسية:** وقد تم تعريفها آنفا ؛ لكن لا بأس من تقديم تعريفا آخر من باب التذكير ، فقد جاء في تعريفها أنها " شخصيات مسيطرة، تظهر بصورة الأفراد المهمين، رغم أنّ سلوكها لا يتسم بالسلوك البطولي."[1]

نحاول تحت هذا العنوان أن نتكلم عن أهم الشخصيات، الّتي تميزت بحضورها المكثف، لأنها لطالما صاحبة الرحال في مشواره العلمي والاستكشافي، كما لم تبخل عليه بمد يد العون والمساعدةكلٌ حسب استطاعتها.ولعل أول هذه الشخصيات الّتي نالت حصة الأسد من الرحلة: شخصية (عباس الجراري)، الّتي تعرف عليها الرحال " في دمشق سنة 1971أثناء مؤتمر الكتاب العرب."[2] ومما يثبت لنا القرب الكبير لهذه الشخصية من الرحال قول سعد الله:" وقد أبى إلا أن يدعوني حالا للغذاء في منزله...وتناولنا الغذاء بمشاركة حرمه، وأطفاله الثلاثة محمد وألوف، وعلا."[3] نفهم من القول العلاقة المتينة والقوية بين عباس الجراري وأبو القاسم سعد الله، فقد تعدّت من مجرد لقاء جمعهما فيه العلم، إلى لقاء عائلي، وتناول الغذاء في وسط العائلة بحضور الزوجة، وفي هذا دلالة قاطعة على الحب الكبير الّذي يكنه عباس الجراري لسعد الله، وهذا من كرم أهل المغرب الشقيق، وحبهم للجزائريين. ولعل من الأدوار الإيجابية الّتي قدمتها هذه الشخصية لصاحب الرحلة(سعد الله): إهداءه بعض الكتب، الّتي قد تفيده في بحثه يقول سعد الله:" وسبق لنا أن تهادينا الكتب ومما أهداني كتابه عن(الزجل في المغرب القصيدة)."[4] ومن أدوارها الإيجابية أيضا على الرحال كرم هذه الشخصية على سعد الله استعمال سيارته والتجوال بها، ومن ثمار هذا التجوال " التعرف على نواحي كثيرة من المغرب الثقافي، والاجتماعي، كما سهل مهمته، ووفر عليه الكثير من الأتعاب."[5]

وتلي شخصية الجراري في الأهمية: شخصية (عبد الكريم كريم)، الّتي كانت لـ (سعد الله) بها معرفة قديمة يقول: " وعند خروجي مرة من هذه المكتبة(يقصد مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي) صادفت الدكتور (عبد الكريم كريم) أستاذ في التاريخ بآداب جامعة محمد الخامس ومسئول المكتبات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة المغربية.وكنت قد تعرفت على الدكتور (كريم)في الربيع الماضي عندما جاء الوفد المغربي للمشاركة في

[1] إنريكي اندرسون إمبرت: القصة القصيرة النظرية والتقنية، تر: علي إبراهيم، علي منوفي، مر: صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000م، ص 339

[2] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص217

[3] المصدر نفسه، ص 218

[4] المصدر نفسه، ص 217

[5] المصدر نفسه، ص 218

الأسبوع الثقافي المغربي في بلادنا، وفي لجنة التراث الّتي اجتمعت بالجزائر..."[1] وهي شخصية متشبعة ثقافيا، ولاسيما التاريخية منها، من خدماتها لسعد الله: التجوال به في أنحاء كثيرة من المغرب، وإهداءه بعض الكتب منها " كتاب عبد العزيز الفشتالي الّذي حققه ونشره بعنوان(مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا)[2].ولعل أجلّ هذه المساعدات على الإطلاق " عمل ثمين تقوم به الوزارة هناك وهو فهارس المخطوطات المغربية في مختلف المكتبات بالبلاد.وبفضل هذا العمل أصبح في إمكان الباحثين أن يطّلعوا على ضالتهم من المخطوطات حيث يوجدون بدون تجشم عناء السّفر والإجراءات المرافقة له." [3]

ولعل شخصية(محمد إبراهيم الكتاني) تأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية، رغم أنّ الحديث عنها في الرحلة أسبق من غيرها(شخصية عبد الكريم كريم، عباس الجراري)، لكن تصنيفنا كان حسب عدد الأدوار الإيجابية الّتي تقمصتها كل شخصية في الرحلة.أما عن معرفته بهذه الشخصية فقديمة حسب تصريحه في الرحلة يقول:" وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الّذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969، ولذلك لم يشعر أي منّا بالغربة عن الآخر."[4] يبدو أنّ معرفته بشخصياته ليست جديدة، بل قديمة تعود إلى ما قبل الرحلة الّتي نحن بصدد دراستها، وهذا يسفر عن رحلات سعد الله الكثيرة، كما يسفر عن شخصيته العلمية والثقافية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ودليله هو معرفته بشخصيات علمية وثقافية كبيرة.ولعل من الأدوار الإيجابية لهذه الشخصية – شخصية الكتاني –لا يختلف كثيرا عن سابقتها إلا من حيث الكثافة والحضور في الرحلة.منها إهداءه بعض كتبه يقول سعد الله:"...أهداني بهذه المناسبة بعض أعماله."[5]ورغم أنّ الأستاذ الكتاني مقبل على عطلته الصيفية، إلا أنه لم يتنصل كغيره –ممن يجعل العطلة حجة له عن تأدية تلك الرسالة الّتي كلف بها –من الدكاترة الأدباء والنّقاد عن مسؤولياته، الملقاة على عاتقه.يقول سعد الله موضحا هذه النقطة:" وقد أفهمني الأستاذ الكتاني أنّ عطلته الصيفية تبدأ يوم فاتح أوت(أغسطس) ولكنه أعطاني بطاقة بعنوانه المنزلي وطلب مني أن أكلمه هاتفيا في كل ما أحتاج إليه."[6] وهذا من الكرم، وأخلاقيات المهنة الّتي تمتع بها العالم والمثقف العربي؛ فالعلم ما زادهم إلا تواضعا وحبا.كما ننوه في آخر هذه الحيثية بالكرم الّذي تمتع به سعد الله هو أيضا؛ ويظهر ذلك في المعاملة بالمثل؛ فمثلا حين تُهدى له هدية –كتاب– يبادر هو أيضا بهدية من نفس الجنس.فقد أهدى إبراهيم

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 214
[2] المصدر نفسه، ص 216
[3] المصدر نفسه، ص 216
[4] المصدر نفسه، ص 209
[5] المصدر نفسه، ص 210
[6] المصدر نفسه، ص 211

الكتاني نسخة من كتابه(دراسات في الأدب الجزائري الحديث)؛ لمعرفته الجيدة بأنه من المولعين بأدب المغرب العربي ورجال الإصلاح فيه.[1]

– الشخصية الثانوية:

ليس لها حضور قوي، قد يلجأ إليها الرحال أحيانا لربط الأحداث بعضها ببعض، وهي شخصيات تابعة مشاركتها في أحداث القصة، أو الحكاية قليلة مقارنة مع نظيرتها الرئيسية، كما يمكن لها أن تضطلع بكثير من الأدوار الإيجابية منها: همزت وصل بين الشخصية المحورية والشخصية الرئيسية، كما أن ذكرها يضفي البعد الغالب على الرحلة، ويظهر مثلا في: ذكر العلماء، ودور العلم، والمؤتمرات، والملتقيات العلمية وفي الرحلة العلمية...وقد تم تعريفها في الفصل الثاني من البحث(الفصل النظري).

أول هذه الشخصيات: شخصية(الشيخ مولاي الطاهر)، العامل بالخزانة العامة(المكتبة الوطنية) قسم المخطوطات، شغلت هذه الشخصية حيزا صغيرا من الرحلة لكن أدت دور إيجابيا بالنسبة للبطل وهو يبحث عن ما يخدم بحثه من مخطوطات، حيث سهلت عليه مهمة البحث كونها عارفة بالمخطوطات الموجود والمفقود منها...، وكل ماله صلة بالمكتبة مما يخدم الباحث، ويسهل عمله، وفي هذا يقول سعد الله:" ومنذ ذلك اليوم بدأت أطلب المخطوطات الجزائرية، الّتي وجدت منها هناك ثروة لا تقدر بثمن."[2]؛ إذا الشخصية ذات فائدة جليلة لا يمكن الاستغناء عن خدماتها.

من هذه الشخصيات أيضا ما ذكر إجمالا، وهم من الأساتذة الباحثين، جاءوا للبحث عن المادة العلمية لإتمام أعمالهم منهم: الآنسة (نادية داودي)، وهي تعد أطروحة في النثر الفني الجزائري، **و**(محمود بوعياد) مدير المكتبة الوطنية الجزائرية الّذي جاء يبحث عن نسخة جديدة من كتاب الحافظ التنسي(نظم الدر والعقيان) لنيل دكتوراه الدرجة الثالثة في التاريخ من جامعة الجزائر، والأستاذ (الهاشمي التجاني) الّذي كان يعد لدكتوراه الدولة بفرنسا، و(عبد المالك مرتاض) رئيس قسم اللغة العربية بآداب وهران، وكان يبحث في قسم المطبوعات عن مادة بحثه لدكتوراه الدولة في الأدب من جامعة محمد الخامس بالغرب عن النثر الفني الجزائري خلال عهد الإصلاح...[3]والفائدة المرجوة من ذكر هؤلاء هو تعزيز البعد العلمي لهذه الرحلة.

ثانيا : في رحلة(رحلتي إلى الجزيرة العربية):

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 211

[2] المصدر نفسه، ص 209

[3] ينظر المصدر نفسه، ص 212

– الشخصيات الرئيسية:

قبل التطرق لاستخراج الشخصيات الرئيسية؛ يجب أن أأكد على فكرة راودتني وأنا أحاول الوقوف على الشخصيات الرئيسية في هذه الرحلة وهي معنى الشخصية الرئيسية في أدب الرحلة؛ إذا حتى تكون شخيصية ما في الرحلة رئيسية يجب أن تتمتع بالعديد من الصفات منها: الملازمة للرّحال، والمرافقة له سواء ممن التقى بهم في البلد المرتحل إليه، أو جاءت معه من بلده، ولا يهم مستواها الثقافي، ولا الدّور الّذي تقوم به، المهم أن تشغل حيزا كبيرا من نص الرحلة... لأنّ مجرد ذكرهم لا يعني أبد أنها شخصية رئيسية، وهذه الشروط تمس نصوص الرحلات الواقعية دون سواها.

هذه الرحلة على خلاف الرحلة الأولى، حيث تتميز شخصياتها الرئيسة ببعض الغموض، ولكن بعد القراءة المتكررة والمتمعنة اهتدينا إلى نوعين من الشخصيات هما : شخصيات رئيسة ذكرت مجتمعة تحت عبارة(أعضاء الوفد المغربي)، وشخصية ذكرت منفردة سيأتي الحديث عنها.أما الشخصيات الّتي ذكرت مجتمعة تحت عبارة(أعضاء الوفد المغربي): هم كما صرح صاحب الرحلة " الدكتور عباس الجراري ، والدكتور عبد الكريم كريم...الشيخ محمد إبراهيم الكتاني والأستاذ محمد المنوفي، والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، والدكتور عبد الهادي التازي."[1] ولو جئنا للمفاضلة بين هذه المجموعة(الوفد) من الشخصيات من حيث الأهمية لتغلبت شخصية كل من عباس الجراري، والدكتور عبد الكريم، لأن العلاقة الّتي تجمعهما وتربطهما بالبطل هي "رابطة المودة والعلم وأكل الخبز والملح."[2] أما الرابطة، أو الجامع الّذي جمع بين شخصية البطل والشخصيات الأخرى فهو جامع علمي بحت ينحصر في الكتب والأبحاث حسب ما جاء في نص الرحلة، و الملاحظ أنّ الشخصيات الرئيسية في رحلته إلى المغرب؛ هي أيضا شخصيات رئيسية في هذه الرحلة.

من الأمور الإيجابية الّتي حدثت للبطل في صحبة هذا الوفد، هو زيارة الحرم المكي وتأدية مناسك العمرة، وزيارة قبر الرسول، والتعرف على الكثير من الآثار العربية الإسلامية.يقول المؤلف:" وهكذا تحقق لي أمل عريض عندما تخلّفت في مطار المدينة مع وفد المغرب وفد تونس...ولم أكد أصدق أنني أسير على تراب المدينة وأنظر إلى جبالها، ونخيلها...وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ملابسنا توجهنا فورا إلى الحرم فأدينا حق المسجد وحق قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم."[3] وهذه الشخصيات منها ما ذكرت منفردة منها شخصية(الشيخ الكتاني المغربي) في موقف آثار

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة ، ص 238

[2] المصدر نفسه، ص 238

[3] المصدر نفسه، ص 249

إعجاب الكاتب، والمتمثل في اختلاف أشكال وأزياء وألوان المسلمين؛ فأراد أن يجد لهذا تفسيرا، فسأل الشيخ الكتاني فأجابه إجابة مقنعة قائلا:" ذلك هو المجتمع الإسلامي الّذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم فرغم اختلاف عناصره وتعدد أصناعه فإنّ أهله يجتمعون حول الكعبة في كتلة متراصة لا فضل فيها لعربي على عجمي إلا بالتقوى."[1] وشخصية (عبد الكريم كريم) أيضا قد ذكرت منفردة، وهي رفيقة البطل إلى مطار جدة، وهي بمثابة رحلة العودة بعد تشبعه روحيا بأداء مناسك العمرة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم يقول سعد الله:" ثم اكتريت سيارة حملتني إلى جدة رفقة زميلي المغربي الدكتور عبد الكريم كريم، وهذا يزيد من تعزيز أهمية هذه الشخصيات، ويؤكد دورها الإيجابي العائد على صاحب الرحلة. ومن شخصيات هذا الوفد أيضا: شخصية(بورويبة) وهي من الشخصيات الرئيسية الّتي ذكرت تحت مظلة(الوفد)، ومرّة واحدة منفردة في قوله:" وأذكر أن الدكتور بورويبة قد أخذ ورقة وقلما وبدأ يرسم بعض البوابات والأشكال الهندسية على بعض الجدران."[2]

أما النوع الثاني من الشخصيات الرئيسة هي الشخصية المنفردة، وهي شخصية قريبة من البطل، يجمعها جامع الدم وهو أخوه(البشير سعد الله) " المهاجر منذ أكثر من ربع قرن."[3] والّذي دله على مكان إقامته أحد المغاربة الّذين صادفهم في أحد أروقة مكة، المسمى برواق المغاربة، لكثرة عمارته بأهل المغرب وهو شيخ جزائري.يقول سعد الله:" وفيه(يقصد الرواق) وجدت شيخا جزائريا من(العفرون). وهو الّذي قادني إلى منزل أخي."[4] من الأدوار الإيجابية لهذه الشخصيةت وفير المبيت والإقامة لصاحب الرحلة يقول:" بقيت في مكة خمسة أيام منها يومان في الفندق المذكور(يقصد فندق زهرة مكة) ضيفا على الندوة والثلاثة الأخرى عند أخي البشير سعد الله."[5]

– الشخصيات الثانوية:

يبدو أنّ هذه الرحلة حافلة بهذا النّوع من الشخصيات، سنحاول الوقوف على نماذج منها محاولين استقصاء العلاقة القائمة، بينها وبين الشخصية المركزية، والفائدة الّتي قدمتها للرّحلة.لعل أول هذه الشخصيات هي شخصية:(عبد الله الركيبي) وهو أديب وكاتب سيّاسي جزائري معروف، وزميل الرّحالة كما هو مذكور في الرّحلة، يقول سعد لله: "فتشاغلت بالحديث مع زميلي الدكتور (عبد الله الركيبي) الّذي تفضل بتوصيلي إلى

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة ، ص 251
[2] المصدر نفسه، ص245
[3] المصدر نفسه، ص 251
[4] المصدر نفسه، ص 252
[5] المصدر نفسه، ص251

المطار."[1] أيضا شخصية الجمركي وقد تكرّرت مرتين، المرة الأولى في مطار الجزائر يقول سعد الله:" وفي مطار الجزائر خضعت لتفتيش دقيق، وليس ذلك من عادة الجمارك معي عندما أسافر إلى اتجاهات أخرى."[2] فسعد الله لم ترق له المعاملة الفظة من الجمركي، الّذي عاملهم كما يعامل المهربين، أما المرة الثانية: فشخصية هذا الجمركي قد بلغت من الدناءة، والخيّانة مستوى كبيرا جدا؛ لدرجة أن بلغت به الوقاحة لطلب الرشوة من المسافرين تحت غطاء كلمة (قهوة)، وهذه الكلمة في عرفنا لا تحتاج لنقاش، هي معروفة على مستوى كل ولايات الوطن بأنها:(الرشوة) يقول الكاتب:"...فقد جئت مرة أودع الدكتور سهيل إدريس صاحب مجلة(الآداب) فإذا بالجمركي يسأله... هل عندك قهوة."[3] أراد (سعد الله) من ذكر هذه الحادثة؛ أن يوصل رسالة مفادها دعوة رجال هذا السلك الأمني أن يتحلوا بأخلاقيات المهنة، وأن يعاملوا النّاس بطيبة واحترام، لأنّهم يمثلون صورة عن وطنهم ' إن حسُنت فحسنها عائد على الوطن عامة، والعكس صحيح. والدليل من الرحلة يكفي لإثبات صحت هذا الكلام يقول سعد الله:" **وبهذه المناسبة أذكر أنّني سمعت سعوديا كبيرا في حفلة العشاء الّتي أقامها السيد مدير جامعة الرياض.لوفود النّدوة يشكو لأحد المشاركين في الندوة من قسوة المعاملة الّتي خضع لها هو شخصيا في مطار الجزائر."**[4]ومن الشخصيات الثانوية أيضا المطوف الّذي قال عنه الكاتب أنّه كان " خبيرا بأداء الشعائر فصيح اللّسان.ويبدو أنّه متمرس أيضا على الطواف بالوفود الرّسمية."[5] وشخصية الأستاذ السعودي شخصية ثانوية، لقلة ذكره.ربما جاء على ذكره لإثبات المعاملة الحسنة الّتي تميّز بها المواطن السعودي، وخاصة مع أقرانه من بلد آخر يقول سعد الله " وكان الأستاذ السعودي الّذي يرافقنا خلال إقامتنا من أطيب خلق الله خلقا، لطيف المعشر ومتواضعا."[6] شخصيات هذه الرحلة كثيرة وغزيرة نكتفي بهذا القدر، لأنّ الغاية من دراستنا ليست إحصائية بقدر ما هي للتمثيل بأنّ هذا النص له بنية كسائر النّصوص السردية.

ثالثا : في رحلة(ربيع في سوف):

– الشخصيات الرئيسية :

من الشخصيات الرئيسية في هذه الرحلة الداخلية شخصية(قريبه، أو القريب)، الّذي ارتبط ذكره لها

[1] تجارب في الأدب والرحلة، أبو القاسم سعد الله ، ص 237
[2] المصدر نفسه، ص237
[3] المصدر نفسه، ص 237
[4] المصدر نفسه، ص 237
[5] المصدر نفسه، ص 251
[6] المصدر نفسه، ص 250

بالسيارة لا غير، فقد ذكره مرتين المرة الأولى: عند نزوله من الطائرة الّتي أقلته من مطار الجزائر إلى مطار واد سوف يقول:" وعندما خرجت من الطائرة أحسست بوهج يلفح وجهي...فأسرعت الخطى نحو قاعة الاستقبال لأخذ حقيبتي، ومنها إلى سيارة أحد الأقارب."[1] والمرة الثانية عند خروجه في جولة معه في مدينة قمار، ودائما بسيارة قريبه يقول:"...فقد تجولت في سيارة قريبي في الشارع الرئيسي الّذي زينوا به مدخل ومخرج البلدة(قمار)."[2]فكان لشخصية قريبه دورا إيجابيا عليه يتمثل في تسهيل وتسريع عملية التنقل في أرجاء هذه البلدة الكبيرة؛ فبفضل هذه الشخصية –شخصية القريب – استطاع البطل أن يتجول في جميع نواحي بلدة قمار، ويتعرف على ما طرأ فيها من تغيير وتبديل.

– الشخصيات الثانوية:

لعل أول الشخصيات الثانوية، أو العارضة الّتي ذكرها (سعد الله) قبل نزوله من الطائرة: هي شخصية المضيفة.الّتي أراد من خلالها تأكيد صحة المعلومة المتمثلة في أنّ درجة الحرارة في أجواء واد سوف قد بلغت 35 درجة مئوية يقول سعد الله:" وقبل نزول الطائرة أعلنت المضيفة أن درجة الحرارة قد بلغت 35 درجة مئوية."[3] من الشخصيات العارضة أيضا الّتي ذكرها الكاتب شخصية رئيس الدولة، حيث ارتبط ذكرها بذكر أحد المشاريع الّتي تم وضع حجر أساسها يقول:" ففي إحدى زيارات رئيس الدولة لوادي سوف(حوالي 2004)وضع الحجر الأساسي لمجمع الحرف والصنائع التقليدية في قمار ليستفيد منه الشباب."[4]

يمكن القول كخلاصة عن شخصيات هذه الرحلة، أو كما سمّاها صاحبها(زيارة)؛ أنها في الأغلب عارضة أو ثانوية، قد تم ذكرها لوصف حالة أو إيصال رسالة، أو نقل مشهد وهكذا.

رابعا :في رحلة(زيارة لخنقة سيدي ناجي):

– الشخصيات الرئيسية: شخصيات هذه الرحلة تتميز بالوضوح التام ليس فيها إشكال؛ فهي تظهر من البداية عندما صرح المؤلف بالرفقة الّتي صاحبته في هذه الزيارة يقول:" ففي يوم 8فبراير 1980 توجهت بكرة(الساعة السادسة صباحا) رفقة الأستاذ (علي باشا)، وهو مدير لمتوسطة مختلطة في بسكرة والمنظم لهذه

[1] أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص 162

[2] المصدر نفسه، ص 162

[3] المصدر نفسه، ص161. 162

[4] المصدر نفسه، ص 165

الزيارة، والأستاذ (ميموني الغسيري)، والشيخ (الأخضر الحنفي) إلى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة.[1] إذا رحلته إلى الخنقة كانت في صحبة مدير وأستاذين، وهذه الشخصيات شخصيات ملازمة لبطل الرحلة في كل تحركاته، فهو لا يذكر حادثة أو استضافة أو أي شيء إلا واستعمل ضمير جمع المتكلم نحو:(عرفنا، استضافنا، أثناء جلوسنا، خروجنا، ذهبنا...) أما ضمير المتكلم المفرد فقليل جدا إذا ما قورنا بضمير الجمع، كما أنّها صاحبته إلى آخر محطة تم ذكرها في هذه الرحلة(زريبة الوادي)، من طريق العودة، وهذا دليل على أنّ الرّفقة لازمته ذهابا وإيّابا يقول:" وعند مرورنا بزريبة الوادي حان وقت صلاة الجمعة فأديناها في مسجدها.."[2]

– الشخصيات الثانوية:

وردت في هذه الرحلة بعض الشخصيات الثانوية يمكن أن تمثل لها بشخصية عبد الكريم الدريدي مؤذن مسجد السوق؛ الّذي استضاف الكاتب ورفقاءه في منزله مؤديا حق الضّيف، كما قدم لهم بعض الكتب.وشخصية الشيخ الدرويش – الّذي مر عليهم وهم في منزل الدريدي– وهو من بقايا أسرة أولاد حسين الشهيرة في هذه النّاحية.وشخصية السيد صالح السالمي الّذي يعمل منسقا لشؤون الفلاحة في بلدية الخنقة.[3]

2– البنية (الزمكانية) في رحلات أبي القاسم سعد الله:

لا تخلو النّصوص السردية أيّا كان نوعها من بنيتي الزمان و المكان، وهذان العنصران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما، لأنه بمجرد أن نقول زمان فلا بد من وجود مكان يتجلى فيه هذا الزمان، والعكس صحيح.لكن اقتضّت دراستي لهذين العنصرين أن أدرس كل واحد منهما بمعزل عن الآخر.أول هذين العنصرين بنية الزّمان؛ سأقف على نوعين من الزّمان هما زمن الحكاية:(زمن الانطلاق أو زمن المسير)، وزمن العودة)، كون النصوص المدروسة رحلة، ثم انتقل لأقف على ما يعرف بالمفارقة الزمنية، والمتضمنة عنصرين من عناصر البنية السردية هما: الاسترجاع، والاستباق، ثم أتطرق لآلية الوصف لأنها تأثر بشكل مباشر في الزمن؛ فتقوم بتعطيل حركته، وهي بمثابة الاستراحة يلجأ إليها السّارد.لكن قبل هذا أحاول تقديم تعريفا مبسطا، وموجزا لهذا العنصر.فما هو مفهوم الزّمن؟.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 257

[2] المصدر نفسه، ص 264

[3] المصدر نفسه، ص 258

2. 1-: البنية الزمانية:

2. 1. 1- مفهوم الزمان :

2. 1. 1. 1- في المعاجم العربية: جاء في لسان العرب لابن منظورفي معنى مادة(ز م ن) " الزّمن والزّمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم الزمن والزّمان العصر، والجمع أزمن، وأزمان وأزمنة."[1] وفي القاموس المحيط " الزمن.محركة وكسحاب: العصر واسمان لقليل الوقت وكثيرة ج: أزمان أزمنة وأزمن. "[2] ومفهوم هذه المادة عند الجوهري في صحاحه لا تتجاوز دلالة الوقت يقول:" الزّمن والزّمان اسم لقليل الوقت وكثيره ويجمع على أزمان وأزمنة."[3] وكتعليق جامع للأقوال السابقة أنّ معنى الزمن في اللغة ما دلّ على الوقت قلّ أو كثر، فالدقيقة زمن والساعة، زمن، والشهر زمن...وهكذا.

2. 1. 1. 2- في الاصطلاح:

من الصعوبة بمكان إعطاء مفهوما موحدا للزمن، فكل واحد يعرفه حسب تخصصه، والمعين الّذي يغرف منه؛ فالزمان عند الفيلسوف يختلف عما هو عند العالم، كم يختلف مفهومه عند الأديب، حتى بين الأدباء فقد اختلفوا فيما بينهم في تحديد مفهوم عملي ثابت، وقار لهذا المصطلح، وقد علق (عبد الملك مرتاض) عن هذه الفكرة قائلا:" وقد يكون الزّمن من المفاهيم الكبرى الّتي حار العلماء، والفلاسفة والرياضياتيون في الإجماع على تعريفها مما يذر الباب شارعا لكل مجتهد وما يقترحه من تعريف."[4]ولكن هذا الطرح لم يمنع هذا النّاقد من تقديم تعريفا يميل به نوعا ما إلى وجهة فلسفية يقول فيه: " والزمن مظهر وهمي يُزمنن الأحياء والأشياء فتتأثر بمضيه الوهمي، غير المرئي، غير المحسوس، والزمن كالأكسجين يُعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا؛ غير أنّنا لا نحس به، ولا نستطيع أن نتلمسه، ولا أن نراه، ولا أن نسمع حركته الوهمية على كل حال، ولا أن نشم رائحته إذ لا رائحة له؛ وإنّما نتوهم، أو نتحقق أنّنا نراه في غيرنا مجسد، في شيب الإنسان وتجاعيد وجهه، وفي سقوط شعره، وتساقط أسنانه..."[5] هكذا وبمنظار فلسفي قدّم النّاقد الكبير (عبد المالك مرتاض) مفهومه للزمن؛ لكن ما يهمنا هنا ليس الزمن كمفهوم عام، بل الزمن من منظور سردي، وهو الغاية المنشودة.نستأنس هنا

[1] – ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف القاهرة، مج 3، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دت، ص 1867

[2] – الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص 720

[3] – الجوهري الصحاح، ص 499

[4] – عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة، والفنون، والأدب، الكويت، دط، 1998، ص 173

[5] – عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة ، ص 172، 173

بمفهومين أولهما نقله لنا أيمن بكر في كتابه(السرد في مقامات الهمذاني) يقول فيه:" بأنّه مجموعة العلاقات الزمنية(السرعة، الترتيب، والمسافة الزمنية) بين المواقف والأحداث المحكية، وعملية حكايتها بين القصة والخطاب، بين المحكي وعملية الحكاية."[1] أو بعبارة أخرى أكثر دقة وسهولة هو: " الفترة أو الفترات الّتي تقع فيها المواقف، والأحداث المقدمة، زمن القصة، زمن المروي) والفترة أو الفترات الّتي يستغرقها عرض هذه المواقف، والأحداث(زمن الخطاب، زمن السّرد)."[2] وهذه التعريفات تقودنا للحديث عن التقسيم الشائع للزمن في الدراسات السّردية، حيث ميّز " علماء السرديات بين زمن المحكي، وزمن الحكاية "[3]

أول هذه الأزمنة هو زمن الحكاية /الرحلة؛ فقد جاء في تعريفه أنّه " يمثل المدة الّتي يستغرقها وقوع الحدث فقد يكون ساعة، وقد يكون يوما، وقد يكون عاما كاملا، وثاني هذه الأزمنة زمن المحكي/الخطاب؛ ونقصد به الطريقة الّتي يتبعها السّارد في سرده...فقد يكتفي من ذلك الّذي يستغرق وقوعه أيّاما بأجزاء تمكنه من كتابة القصة، ويمكن القارئ من استيعاب ما جرى...فالزمن المحكي يتطلب الاجتزاء، والحذف، والتكثيف، والإضمار."[4]

2. 1. 1. 3- زمن الحكاية /الرحلة: يمكن أن نقسم زمن الرحلة إلى ثلاثة أزمنة هي على التوالي: زمن الانطلاق، وزمن المسير، وزمن العودة.وقد تم الحديث عنها في فصل البنية لكن لا بأس من التذكير بها بتقديم نماذج من الرحلات التي بين أيدينا منها:

أولا : في الرحلة الأولى: رحلتي إلى المغرب العربي :

تحظى كل رحلة مهما كان غرضها أو وجهتها وإن طالت كرحلة (ابن بطوطة وابن جبير) على هذه الأزمنة الثلاثة، وهذا ما نلحظه في رحلات (سعد الله)؛ فهو يبدأ كتابة رحلته بذكر التاريخ الّذي خرج فيه، فتارة يذكره الزمن كاملا(اليوم، الشهر، السنة)، وتارة يغيب أحدهم، ربما يرجع للنسيان الّذي هو من طبيعة الإنسان – فجلاّ من لا ينسى–أما في رحلته إلى المغرب فقد ذكر (سعد الله) تاريخ الانطلاق، وتاريخ العودة مجتمعين، حتى أنّه ذكر الفصل الّذي ذهب فيه وهو فصل الصيف، وهو من الأزمنة الساخنة أيامها يقول: " زرت المغرب لأول مرة خلال

[1] – أيمن بكر: السّرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1997، ص 52

[2] – جيرار برنس: قاموس السّرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003م، ص201

[3] – إبراهيم محمود خليل، النّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنّشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1، 2003 م/1424هـ، ص 177

[44] – المرجع نفسه، ص 177

الصيف الماضي(من 29يوليو إلى 19أغسطس 1973م)."[1] إذ الملاحظ أن المدة الّتي مكثها (سعد الله) في المغرب: هي تماما ثلاثة وعشرون يوما حسب التاريخ المصرح به، بعد إجراء عملية حساب بسيطة بين تاريخ الانطلاق، وتاريخ العودة الحاصل هو مسار الرحلة.والمتأمل في هذه الرحلة أنّ الكاتب حاول أن يقدم لنا مدة مسارات هذه الرحلة بالوقت المستغرق للوصول من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول، ويمكن أن نلخص هذه المسارات الّتي احتوتها الرحلة بهذا الشكل:

مسار الرحلة			
مكان الانطلاق	مكان الوصول	الوسيلة المستعملة	الزمن المستغرق
(مطار الدار البيضاء(الجزائر)	(مطار النواصر(المغرب)	الطائرة	سّاعة وربع
(مطار النواصر(المغرب)	مدينة الدار البيضاء	سيّارة عمومية	/
مدينة الدار البيضاء	الرباط	سيّارة أجرة	سّاعة ونصف
الرباط	مدينة سلا	الحافلة	عشر دقائق
مدينة سلا	الرباط	/	/

يظهر الجدول مجموع مسارات رحلة سعد الله انطلاقا من مطار الجزائر، وصولا إلى المغرب العربي، كما يظهر تنقلاته داخل هذا البلد الشقيق.

ثانيا : في رحلة(رحلتي إلى الجزيرة العربية) :

– **زمن الانطلاق:** يقول صاحب الرحلة:"فقد كان سفري يوم 21أبريل صباحا سنة 1977م."[2] ذكر زمن الرحلة باليوم والشهر والسنة، كما ذكر الفترة الّتي انطلق فيها وهي حسب كلامه الفترة الصباحية.

– **زمن العودة:** قد صرح الكاتب في هذه الرحلة بزمن العودة قائلا:" ويوم الخامس من مايو صليت الصبح في الحرم المكي مع أخي."[3] وإذا حاولت معرفة المدة الّتي استغرقتها رحلة سعد الله ما علينا إلا حساب الأيام الفاصلة

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 205

[2] المصدر نفسه، ص 237

[3] المصدر نفسه ، ص 254

بين المدتين(زمن الانطلاق، زمن العودة)؛ إذا عدد أيام رحلته حوالي خمسة عشر يوم إذا أخذنا بعين الاعتبار زمن الانطلاق وزمن العودة.

أما زمن مسارات البطل /صاحب الرحلةفي الرحلة إلى الجزيرة العربية فهي كالتالي حسب ما قررها صاحبها:

مسار الرحلة			
مكان الانطلاق	مكان الوصول	الوسيلة المستعملة	الزمن المستغرق
مطار الجزائر	مطار جدة	الطائرة	من ساعة الانطلاق إلى الحادية عشر والربع مساء بالتوقيت المحلي.
مطار جدة	الرياض	الطائرة	حوالي ساعة
الرياض	المدينة	السيارة	/
مطار المدينة	جدة(مكة)	الطائرة	/
مطار جدة	القاهرة	الطائرة	ساعتين

الجدول يبين مسارات سعد الله الكبرى داخل مدن الجزيرة العربية، والوسيلة المستخدمة في التنقل؛ كما نجد الكاتب يذكر أحيانا الزمن المستغرق لاجتياز المسافة الفاصلة بين المكانين: مكان الانطلاق ومكان الوصول.

ثالثا في رحلة (ربيع في سوف):

كل الرحلات من دون استثناء كما أسلفنا الذّكر لها أزمنة ثلاث: هي زمن الانطلاق وزمن العودة، وزمن مسارات الرحلة، وهو الجوهر الّذي يتم فيه تحرك الرّحال لأجل الغاية الّتي سعى لأجلها، وأحداث تطرأ قد يذكر الرّحال بعضها كما قد يحذف الكثير منها أول هذه الأزمنة هو:

زمن الانطلاق: يحدد الرّحال كعادته في كل رحلاته زمن الرحلة بقوله:" زرت سوف في شهر

مايو."[1]الملاحظ في هذه الرحلة أنّ الكاتب قد اكتفى بذكر الشهر الّذي خرج فيه للرحلة دون أن يصرح بالسنة أو اليوم، لكن من خلال القراءة المتكررة والمتمعنة لهذه الرحلة يمكن تقدير سنة السفر بالاستعانة ببعض القرائن الواردة في هذه الرحلة منها:حديثه عن السنة الّتي تم انجاز فيها المجمع وهي سنة 2006م[2] نفهم من هذا أنّ سنة رحلته هي ما بين هذا التاريخ، وتاريخ نشر هذه الرحلة في جريدة الشروق اليومي سنة 2008م من شهر يوليو.[3] إذا صح تقديري هي سنة 2007م.

– **زمن المسير**::يبدو أنّ الرّحالة لم يعط أهمية لهذه النقطة؛ فلم يحدد مسارات رحلته ولم يذكرها، ربما السبب راجع لانشغاله بوصف الحالة المؤسفة الّتي تعاني منها سوف، وخصوصا منطقة قمار كما هو موضح في سطور هذه الرحلة، كما أنّه لم يذكر مكان المنطلق، لكن يمكن معرفة المكان من سيرته الّتي جاء فيها: أنّه يقيم في العاصمة، وأيضا وجود بعض القرائن التي توضح مكان المنطلق من داخل هذه الرحلة. منها قوله: وفي الصباح تهيأت للخروج وغيرت ثيابي العاصمية ولبست ثيابي السوفية الخفيفة معتقدا أننا سنشهد يوما حارا كأمس."[4] وأيضا في قوله:" رجعت إلى العاصمة."[5]

– **زمن العودة**: لم يحدد سعد الله زمن العودة، ولم يصرح بمدة مكوثه في مدية سوف، بل كان شغله الشاغل وصف الحالة المزرية، والمؤسفة الّتي يعيشها سكان بلدته(قمار): كالتهميش واللامبالاة، وسوء التسيير من قبل المسيّرين.يمكن هنا أن نستدل بهذا المقطع من نص الرحلة: " أما أنا فقد رجعت إلى العاصمة تنهشني حمى بلغت 29 درجة."[6]

رابعا رحلة (زيارة لخنقة سيدي ناجي):

– **زمن الانطلاق**: في هذه الرحلة يذكر (سعد الله) زمن انطلاقه باليوم والشهر والسنة، حتى الساعة الّتي خرج فيها هو ورفاقه متوجهين إلى عين المكان يقول:" ففي يوم 8فبراير 1980م توجهت بكرة(الساعة السادسة صباحا...إلى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة."[7]

[1] – أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف:ص 161

[2] ينظر: المصدر نفسه، 165

[3] – ينظر المصدر نفسه، ص 171

[4] – المصدر نفسه، ص 162

[5] – المصدر نفسه، ص 171

[6] – المصدر نفسه، ص 171

[7] –أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 257

– **زمن المسير**: لم يذكر سعد الله زمن المسير، ولكن ذكر المسافة الفاصلة بين مكان الانطلاق، ومكان الوصول والّتي قدرها ب" حوالي 95كلم."[1] وبالتالي يمكن لنا تقدير زمن المسير دون توقف حوالي ساعة والربع السّاعة، مع مراعاة وعورة الطريق.

– **زمن العودة**: لم يذكر سعد الله زمن العودة؛ مكتفيا بالإشارة إليه بقوله:" وقربت ساعة عودتنا إلى بسكرة...فودعنا الجميع بحرارة."[2]

2. 1. 1. 4– زمن المحكي /الخطاب:

ويمكن أن نعرف هذا الزمن كالتالي: هو الطريقة الّتي يتبعها السّارد في سرده وهذا الزمن يتطلب الاجتزاء، والحذف، والتكثيف، والإضمار.[3]

نعالج تحت هذا العنوان عنصرين، أول هذه العناصر: ما يسمى بالمفارقة الزمنية(استرجاع، واستباق)، وثاني هذه العناصر الزمنية: ما يعرف بالوقفة الوصفية باعتبارها بنية رئيسية في زمن الرحلات.أول هذه العناصر هي:

2. 1.1 .4. 1– المفارقة الزمنية: فقد جاء في تعريفها أنّها " التنافر الحاصل بين النّظام المفترض للأحداث ونظام ورودها في الخطاب...ويمكن للمفارقة الزمنية أن تكون "استرجاعا" analepsis عودة إلى الوراء، استعادة...أو استباقا prolepsis."[4]

2. 1. 1. 4. 1. 1– الاسترجاع: أو الاستذكار هو " كل عودة للماضي تشكل بالنّسبة للسرد، استذكارا يقوم به الرّاوي لماضيه الخاص...وتحقق هذه الاستذكارات عددا من المقاصد الحكائية مثل ملء الفجوات الّتي يخلفها السرد وراءه سواء بإعطائنا معلومات حول سوابق شخصية جديدة دخلت عالم القصة، أو بإطلاعنا على حاضر شخصية اختفت عن مسرح الأحداث ثم عادة للظهور من جديد."[5] كما تكمن أهمية هذا العنصر حسب رأي الخاص في تزويد قارئ الرحلة بزاد معلوماتي عن شخصيات قد سبق للرحال أن التقى بها، (الّتي يريد الكاتب أن يمدنا بمعلومات عنها)؛ كي يستطيع المتلقي فهم ما يقول الرحال،كما تزيده متعة وتشويقا .

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص 257

[2] –المصدر نفسه، ص 264

[3] – إبراهيم محمود خليل: النّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنّشر والتوزيع، والطباعة، عمان، ط1، 2003م/1424من 177

[4] – جيرالد برانس: قاموس السّرديات:ص 15

[5] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي:ص 121، 122

2. 1. 1. 4. 1. 2- الاستباق: أو السرد ألاستشرافي أو التنبؤي أو كما سمّاه تودوروف الاستقبالات...إلى غير ذلك من المصطلحات الّتي تشير إليه، يمكن أن نعرفه مستأنسين بقول الناقد (حسين بحراوي) الّذي نصه كالتالي: هو "كل مقطع حكائي يروي أو يثير أحداثا سابقة عن أوانها أو يمكن توقع حدوثها...أي القفز على فترة ما من زمن القصة وتجاوز النقطة الّتي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث، والتطلع إلى ما سيحدث في الرواية." [1] أو في الرحلة أو في أي نص سردي نحن بصدد الوقوف عن بعض تقنياته، وبالتحديد المفارقة الزمنية.

يمكن أن نمثل لهذه المفارقة الزمنية بنماذج من كل رحلة، منتهجين الترتيب الّذي سبق مع باقي البنيات كالتالي:

أولا : في رحلة (رحلتي إلى المغرب):

* نماذج من الاسترجاع:

الرحلة الّتي بين أيدينا، ونصوص الرحلة عامة غنية بهذا النوع من المقاطع لحاجة الرّحالة إليها لإتمام النقص، الّذي قد يعتري كلامه،و يشكل عثرة، وعرقلة لدى المتلقي في فهم مضمون نص الرّحلة.ويمكن تقسيم هذه التقنية إلى قسمين:

-استرجاع داخلي :

ونقصد به كل ما استذكره (سعد الله)، لكن دون الخروج عن إطار الرحلة زمانا ومكانا، يمكن أن نمثل له بهذا الشكل: **[أ، ب، ج، أ، د]**، حيث تمثل الألف الثانية نوعا من الاسترجاع الداخلي، من هذا النوع في هذه الرحلة، ما تعلق بالشخصيات العلمية، وذكر أول لقاء له معها، ولعل أول هذه الشخصيات هو الأستاذ (عبد الله عنان)المؤرخ المصري؛ فها هو بطل الرحلة يتذكر أول لقاء جمعه مع هذه الشخصية العلمية يقول سعد الله: " وقد كنت رأيت الأستاذ عنان في الطائرة الّتي جاءت إلى المغرب، فقد كان في الجزائر يحضر الملتقى السابع للتّعرف على الفكر الإسلامي."[2]ومن هذه المقاطع مقطع يسترجع فيه ذكرى لقائه مع(الأخ شحلان) – وهو من الباحثين –وهو يقرأ نسخة من القرآن الكريم، يقول:" واذكر أنّني مرة وجدته في بهو الفندق يقرأ نسخة من القرآن الكريم

[1] – حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي ، ص 132

[2] –أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 213

مكتوبة بالعبرية قام بترجمتها يهودي هو هارون بن شمس."[1] ومن المقاطع أيضا، لكن هذه المرة تذكره يخص بعض نسخ الكتب الّتي سبق له أن رآها في المغرب منها: نسخة بعنوان(الاكتفاء في أخبار الخلفاء)، الّتي قد رأى منها نسخ كثيرة في المغرب " منها واحدة في جزأين ضخمين في المكتبة الكتانية، والجزء الثاني غير التّام يبدأ بتاريخ الدولة العباسية، وتوجد منه أيضا نسخ في العامة، والملكية، وتطوان، وغيرها."[2]

– الاسترجاع الخارجي:

يظهر من خلال تتبعي لهذه التقنية؛ أنّ هذا النوع من الاسترجاع كثير مقارنة مع نظيره الداخلي، ولاسيما المتعلق بشخصيات الرحلة الباحثة والعلمية.نمثل لهذا الاسترجاع بهذه المقاطع: لعل أولها إخباره لنا بمعرفته السابقة لشخصية(الكتاني)، الّتي تسبق زمن رحلته هذه بعديد السنوات يقول:" وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ الكتاني في مؤتمر كتاب المغرب العربي الّذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969م."[3] يستعيد (سعد الله) مجددا ذكرياته ليخبرنا عن مكان وزمن تعرفه على شخصية(عبد الكريم كريم)، وهي شخصية مهمة بالنسبة إليه يقول:" وكنت قد تعرفت على الدكتور كريم في الربيع الماضي عندما جاء ضمن الوفد المغربي للمشاركة في الأسبوع الثقافي المغربي في بلادنا في لجنة التراث الّتي اجتمعت بالجزائر..."[4] ونفس الشيء مع صديقه(عباس الجراري)، فهاهو (سعد الله) يستذكر مكان وسنة تعرفه عليه يقول:" كنت قد تعرفت على الدكتور عباس الجراري في دمش سنة 1971 أثناء مؤتمر الكتاب العرب، ثم عندما جاء إلى الجزائر محاضرا خلال العام الماضي بدعوة من قسم اللغة والثقافة العربية بآداب جامعة الجزائر."[5] ويمكن لنا أن نقدم مفهوما لهذا الاسترجاع، استنادا على هذه المقاطع؛ فكل استرجاع خارجي يعنى: الأحداث الّتي سبقت زمن الرحلة ولو بيوم واحد.

– السّرد ألاستشرافي :

هذا النوع من السرد قليل جدا في هذه الرحلة، يمكن أن نمثل لها بهذه المقاطع: أول هذه المقاطع ما جاء على لسان(محمد ابن تازروالت التلمساني) الّذي كان قد أرسل مصحفا ومخطوطة عن تاريخ الجزائر القديم إلى المسؤولين الجزائريين لكن لم يصله ردا من هذا المسئول؛ فأراد أن يعيد الكرة ويرسل مرة أخرى نفس الأشياء مع

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ، ص226

[2] – المصدر نفسه، ص 232

[3] – المصدر نفسه، ص 209

[4] –المصدر نفسه، ص 214

[5] المصدر نفسه، ص 217

سعد الله يقول:" وقال إنّه سيرسل معي نفس الشيء إلى المسؤول(الّذي سمّاه لي)."[1] ومن هذه المقاطع أيضا: قوله:" ولو طالت مذاكرتي للأستاذ المنوني لاستفدت منه معلومات جمة عما جئت من أجله، ولكن عرفت منه أنّه سيعود إلى عمله بعد يوم فقط من مغادرتي للمغرب."[2] وهذا حال كل من يصاحب أهل العلم، فهو سيستفيد منه لا محالة.ومنه أيضا قوله:" وقد سمعت وأنا في المغرب أنّ كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ستعرب تماما ابتداء من هذا العام(1973 -1974)...ولكن هذه الخطوة المغربية في ميدان التعريف ستكون بدون شك دعما لتجربة التعريب الجزائرية."[3] يحمل هذا القول بشرى سارة لإخواننا المغاربة، وأمل عريض ودعم لتجربة التعريب في الجزائر الّتي تشهد تضييقا، وعرقلة من طرف بعض الّذين لا يرجون خيرا لهذا البلد.

ثانيا في رحلة (رحلتي إلى الجزيرة العربية):

* نماذج من الاسترجاع:

لما كانت هذه التقنية بمثابة التذكر، للأحداث والمواقف في حياة الكاتب /البطل في الرحلة، وأنّ هذه الذكرى لا تأتي عبثا بل يستدعيها حدث مماثل وشبيه له يحدث في الوقت الراهن، وهذا ما حدث مع أبو القاسم في الكثير من المواقف منها قوله:" وأنا أتذكر ما كنت قرأته في مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر السعودي منذ أربعة أعوام عن التفتيش الّذي خضع له يوم أن كان خارجا من الجزائر في نفس المطار."[4] هذه الذكرى لم تكن تحصل من الأساس، لو لم يكن موقف شبيه له قد حدث للبطل؛ أراد من خلال استرجاعه لإثبات سوء المعاملة في مطار الجزائر، الّتي يمارسها الجمارك مع المسافرين، وقصة أخرى تذكرها بطل الرحلة تشبه القصة الأولى(المعاملة السيئة للجمارك) للمسافرين، هي من قبيل الاسترجاع الخارجي يقول سعد الله في هذا المقطع: " فقد جئت مرة أودع الدكتور سهيل إدريس صاحب مجلة(الآداب) فإذا بالجمركي يسأله بعد أن قدمته له على أنّه كاتب لبناني، وناشر ...إلى قوله: هل عندك قهوة؟...وتفاديت الأمر فقلت له: إنّه يسأل عن القهوة لأنها في بلادنا زهيدة وهي غالية في بعض البلدان..."[5] يبدو أن الكاتب أراد التنبيه على هذا التصرف المشين الّذي لا يليق بهذا السلك (الجمارك)، وهم يمثلون أمن البلاد واستقراره.

ومن هذا التذكر ما تعلق بالشخصيات، يقول الكاتب:" فقد سبق لي أن راسلت الأستاذ الشيخ (حمد

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 213
[2] المصدر نفسه، ص 213
[3] المصدر نفسه، ص 231
[4] المصدر نفسه، ص 237
[5] المصدر نفسه، ص 237، 238

الجاسر) الّذي يسمونه بحق علاّمة الجزيرة العربية...وقد سبق له أن زار الجزائر مرتين على الأقل، ولكن الحظ لم يسعفنا باللّقاء."[1] وهو من قبيل الاسترجاع الخارجي؛ الّذي قد خرج عن إطار الرحلة زمانا ومكانا، ومنه أيضا هذا المقطع:" فقد سبق لي أن سمعت مثلها من شرطة بلاد عربية أخرى."[2] فقد كان سبب استرجاع هذه الذكرى قول أحد شرطة السعودية: " يا أخي متى تعربون جواز سفركم؟ ألم تخرج فرنسا من عندكم."[3]

2- الاستباق: من المقاطع الّتي تظهر هذه التقنية قوله: "وكان الاستعداد للنّدوة قد بدا منذ أمد." [4] ومنها أيضا حديثه عن المشاريع الّتي ستحظى بها مدينة الدرعية منشأ الدولة السعودية يقول:" أنّ عدد من مشاريع مدينة الرياض ستنقل إليها."[5]

ومنها ما يحمل استشرافا، ورؤية مستقبلية تنبؤية عن ما سيطرأ على الحرم المكي من توسيع، يقول:" وشاهدنا كيف وسع الحرم النبوي وكيف سيوسع في المستقبل...ويجري الآن هدم أحياء قديمة كاملة حول الحرم وتعويض أهلها، لتوسيع الحرم توسيعا كبيرا."[6] مقاطع كثيرة تشير إلى هذه التقنية، نكتفي بهذا القدر؛ لأننا تلمسنا هذه الآلية مؤكيدينا على توافرها في نصوص الرحلات أيضا.

ثالثا: في رحلة (ربيع في سوف): بعد القراءة المتكررة لهذه الرحلة لا حظنا غياب هذه التقنية الزمنية بنوعيها(الاسترجاع، والاستباق)؛ لأنّ هذه الرحلة ليست كغيرها مثل: رحلات الحج، وطلب العلم...بل هي بمثابة تقرير صحفي صوّر فيه الكاتب المعاناة الّتي يعيشها سكان واد سوف قاطبة، ومدينة قمار بخاصة، وغياب هذه التقنية يجعل النّص أقل تأثيرا في المتلقي، لأنه لا ينشط فكره وخياله، فتصبح قراءة مثل هذا النوع من الرحلات ثقيلة لا تجذب القرّاء إليها لخلوها من هذا التنوع الّذي هو بمثابة الإغراء للقارئ، حيث يقتل الرّتابة، ويحفز خيال القارئ...ويؤكد كلامي قول الناقدة(ميساء سليمان الإبراهيم) عند حديثها عن التنوع الزمني ودوره في النّصوص السّردية تقول:" إذ يصبح السّرد أقل إغراء إن خلا من التقنيات الزمنية " [7].

رابعا في رحلة (زيارة لخنقة سيدي ناجي):نلاحظ الغيّاب التام للتقنيات الزمنية، ربما يرجع سبب هذا الغياب لطبيعة هذا النّص الّتي تبتعد نوعا ما عن طبيعة النص السردي، وتدخل في دائرة نصوص التقارير الصحفية، الّتي

[1] أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ، ص 247
[2] المصدر نفسه ،ص 255
[3] المصدر نفسه ، ص 255
[4] - المصدر نفسه، ص 240
[5] - المصدر نفسه، ص 245
[6] - المصدر نفسه، ص 250
[7] -المصدر نفسه، ص 231

يصبح فيها البطل بمثابة المصور، ثم يعلق على هذه الصّور بأسلوبه.

2. 1.1 4. 2- تقنية الوصف: من بين سائر التقنيات الزمنية أقف عند تقنية الوصف؛ لشدة ارتباطها بنصوص الرحلات، وبفضلها"عدت الرحلة خطابا وصفيا بامتياز."[1]حيث أردت من خلال هذه التقنية أن أبين مدى استثمار نصوص الرحلات الحديثة – رحلات سعد الله – لهذه التقنية، وهل هي بنفس الكثافة والكثرة كما هو معتاد في نصوص الرّحلات القديمة، لكن قبل ذلك نقدم بعض المفاهيم حول هذه التقنية:

2. 1. 1. 4. 2. 1- مفهوم الوصف :

قبل تحديد دور هذه التقنية في الدراسات السّردية، نقدم تعريفا موجزا عن معنى الوصف، ولعل أشهر التعريفات جاء بها البلاغي(أبو هلال العسكري) في كتابه الصناعتين حينما تكلم عن أجود الوصف قائلا:" ينبغي أن تعرف أنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينيك."[2] لكن لا يهم في نصوص الرحلات جودة الوصف، أو درجة تمثله للموصفات؛ بقدر ما يهم الكثافة أو الكثرة لهذه الآلية في نصوص الرحلات، والجوانب الّتي اختصت بها في كتابات (سعد الله)، ولاسيما رحلاته الّتي بين أيدينا.إذا كان الوصف في النصوص السّردية هو انتقال يقوم به السّارد من متابعة سرد الأحداث إلى وقفة أو استراحة قد تطول، أو تقصر حسب أهمية الموصوف الّذي قد يشد انتباه القارئ، والأشياء الّتي تجذب المتلقي متعددة ومتنوعة قد تكون " شخصية أو مكانا أو شيئا أو فعلا." [3] ويؤدي هذا الوصف إلى ولادة وظيفة جديدة تلعب دورا كبيرا في العملية السّردية ألا وهي " تبطئة الزمن الحكائي، وجعل الزمن السردي يتمدد فوق الفضاء الورقي الأبيض."[4] وعدّة هذه الوظيفة من الوظائف الرئيسة الّتي تضطلع بها هذه الآلية، وقد أكد على هذه الوظيفة العديد من النقّاد منهم:(محفوظ عبد اللّطيف) في كتابه(وظيفة الوصف في الرواية) يقول:" ويكون الوصف زمنا ميتا في سيرورة ما هو حركي حيث تبدو الأشياء والكائنات لحظة وصفها كما لو كانت مجمدة."[5] هذا غيض من فيض من هؤلاء النقاد الّذين يؤكدون على توقف زمن السرد لحظة حضور الوصف.

أما عن تقريب الموصوف في نصوص الرحلات؛ فيخضع لمجموعة من الآليات حصرها الناقد(أحمد بوغلا)

---

[1] أحمد بوغلا الرحلة ألأندلسية: الأنواع والخصائص، ص 26

[2] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا –بيروت، 1986م، ص128

[3] محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السّردي بين النّظرية، والإجراء، دار محمد علي للنّشر، تونس، ط1، 2010م، ص143

[4] محمد نجيب العمامي: الوصف في النص السّردي بين النّظرية، والإجراء، ص143

[5] – محفوظ عبد اللّطيف، وظيفة الوصف في الرواية، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 1992م، ص13

في قوله:" مقايسة ما يراه من عادات وتقاليد لدى الآخر مع ما تحمله ذخيرته من صور كذلك الإحاطة بالمكان الموصوف عبر الحضور الجسدي، وذلك بقياس الأطوال والمساحات، وحساب المسافات وتحديد المواقع فيحول الرحالة إلى جغرافي مسّاح، وقد يتجاوز ذلك إلى الحفر في ماضي المكان وتشكله البدائي مع رصد التحولات الّتي طالته ليقترب من المؤرخ."[1] هذه أهم الآليات الّتي يستند إليها الرحال في تقريب الموصوف.

2. 1. 1. 4. 2. 3- .نماذج من مقاطع الوصف في رحلات سعد الله:

أولا: في رحلة (رحلتي إلى المغرب العربي): وردة الكثير من المقاطع الوصفية في هذه الرحلة منها: ما تعلق بالشخصيات، ومنها ما تعلق بوصف المنشآت.. نحاول أن نمثل لكل واحد من هذه الجوانب بمقطع أو مقطعين من هذه الرحلة:

1- وصف الشخصيات: أول هذه الأوصاف وصفه لامرأتين كانتا راكبتين في سيارة الأجرة الّتي أقلته من الدار البيضاء باتجاه الرباط، يقول: وكانت إحدى المرأتين بدينة تلبس جلابة مغربية وتجلس في المقعد الأمامي، أما المرأة الأخرى فقد كانت تلبس ثوبا أوربيا وتجلس إلى جوار زوجها في المقعد الخلفي."[2] نلاحظ من هذا المقطع توقف السّرد فترة زمنية يسيرة، قد يتساءل أحدنا عن أهمية مثل هذه المقاطع في النصوص السردية، وعن الفائدة المرجوة منها الّتي تخدم مثل هذه النصوص، فالنّاقد محمد عزام يجيبنا بجواب يشفي الصدور، ويزيل الحيرة بقوله: وليست هذه الوقفات الوصفية زائدة، بل هي أهداف سرية، يضيء السرد فيها الحدث القادم..."[3] وإذا تأملنا القول الّذي بينا أيدينا؛ لوجدناه أيضا يسفر عن الكثير من الجوانب الثقافية والاجتماعية للإنسان المغربي.

ومن هذه المقاطع مقطع يصف فيه الشيخ(عبد الله الجراري)والد صديقه الدكتور(عباس الجراري) يقول فيه:" أما الشيخ فقد كان حليق الوجه، لطيف الحديث، يلبس نظارة رمادية، وكوفية وثيابا أوربية، وحذاء مغربيا، وكان يرتدي جلابة مغربية فوق ثيابه الأوربية ولكنه نزعها قبل أن ينظم إلينا.[4] نستشف من القول الكثير من الصفات الّتي تميز المغربي منها: اعتناءه بمظهره، ومزاوجته بين الثقافتين:المغربية، والغربية(الأصالة والمعاصرة)، فهو متشبث بتقاليده رغم الثقافة السائدة، ومن الصفات الخلقية: لطف الحديث، والكرم...وكل هذه الصفات إن دلت فإنها تدل على حياة الرفاهية الّتي يتمتع بها المغربي.

[1] - أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية: الأنواع والخصائص، ص 27

[2] - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 207

[3] - محمد عزام شعرية الخطاب السردي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2005م، ص110

[4] - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 224

2- وصف المنشآت:

من المباني الّتي شدت انتباه الكاتب، وحاول أن يقدم وصفا لها بيت(آل الصائغ) أصهار صديقه الجراري يقول فيه:" وهو عبارة عن مغنى(فيلا) ضخمة من طابقين، وفي القاعة حشايا جلدية ناعمة، وقد زينت الجدران بالزليج الملون المشكل بمختلف الأشكال الهندسية.وفيها أجزاء منقوشة بنقوش مغربية –أندلسية، وقد علقت ثريا جميلة كبيرة وسط القاعة، وفي طرفي القاعة مقصورتان فيهما أيضا حشايا من نوع ولون آخر.وعلى الجدران علقت بعض صور الأسرة."[1] يؤكد هذا القول حالة الرفاهية الّتي يعيشها المغربي.

ثانيا: في رحلة(رحلتي إلى الجزيرة العربية): الرحلة هذه غنية بمحطات وصفية متنوعة، يمكن أن نذكر بعضها من أجل التدليل، منها ما تعلق بوصف الشخصيات، ووصف المدن، ووصف الحفلات، ووصف المكتبات...

1- **وصف الشخصيات:**من الشخصيات الّتي تعرض لها الكاتب بالوصف شخصية(الشيخ حمد الجاسر)، يقول فيه:"...يسمونه بحق علامة الجزيرة العربية، والّذي ألف وحقق أكثر من كتاب حول تاريخ وأدب وأنساب وجغرافية ولغة الجزيرة العربية، وهو صاحب مجلة(العرب) الشهيرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة..."[2]

2- وصف المدن: تناول الكاتب بالوصف مدن قد زارها أثناء رحلته، أو مر عليها كمدينة الدرعية، ومدينة الرياض، يقول في وصف مدينة الدرعية المهاد الأول للجزيرة العربية:" والدرعية القديمة عبارة عن خرائب لمباني قديمة إستراتيجية، وهي تقع على وادي بوحنيفة وحولها النّخيل والأشجار وبعض الكدى، وهي تذكرك ببعض مدن الصحراء الجزائرية مثل بسكرة وبوسعادة..."[3]

3- وصف المكتبات: اكتفى الكاتب بإيجاز وصفه لهذه المكتبة(مكتبة جامعة الرياض) مركزا انتباهه على أشياء بسيطة قد لفتت انتباهه كجهاز إطفاء الحريق يقول:" والمكتبة الحالية من أحدث طراز، وفيها جهاز ذاتي لإطفاء الحريق، وقيل أنّ ألمانيا الغربية هي الّتي بنتها في ظرف عام فقط، وتضم قسمين أحدهما للمطبوعات والثاني للمخطوطات."[4]

كل هذه الأوصاف وغيرها ساعدت على تعطيل زمن السرد، وتوسيع زمن الكتابة .

[1] – أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة ، ص 223

[2] – المصدر نفسه، ص 247

[3] – المصدر نفسه ، ص 245

[4] – المصدر نفسه، ص 246

ثالثا: في رحلة (ربيع في سوف): المتأمل في هذه الزيارة أنّ أوصافها تشابكت مع أخبار (واد سوف) قديما، وما آلت إليه حديثا.الأوصاف في هذه الرحلة في مجملها تدور حول الأوضاع البائسة الّتي صارت إليها هذه البلدة العريقة، من هذه الأوصاف: وصفه لحالة مجمع الحرف والصنائع الجديد يقول:" أصبحت تدعو للرثاء والحزن فهو محمي بسياج، لذلك فهو مفتوح للرياح كخيمة البدوية العربية الّتي فصلتها على القصر المنيف فلا غرابة أنّ كسر باب على الأقل من أبواب الدكاكين، وحول الدكان إلى مرحاض للمتسكعين ليلا، وأصبح المجمع للمعربدين الّذين يختفون في اللّيل وليس في النّهار، أما أبواب الدكاكين الأخرى والحيطان فقد اتسخت وامتلأت بالكتابات العبثية الّتي يمكن أن يقرأ فيها عابر السبيل مختلف الأفكار..."[1]هكذا وصف (سعد الله) لنا حال المشاريع الّتي كانت موجهة للشباب؛ لفك الأزمة الّتي يعانون منها من البطالة والتهميش؛ لتصبح مؤوى للأشرار، يمارسون فيها كل أنواع الخبث.

ومن الأوصاف أيضا الّتي تطرق إليها الكاتب، واستوقفته برهة من الزمن وصفه لأهل سوف قائلا:" إنّ أهل سوف يتحدثون العربية القريبة من الفصيحة بسليقة نادرة المثال، وهم ينظمون الشعر الفصيح والزجل أو الملحون ويستمتعون بالكلمة الجميلة، ولهم غيرة على العربية الّتي رسختها فيهم الحضارة الإسلامية، ولكنهم في عصر العولمة والاتصالات السريعة يجدون أنفسهم ضعفاء في اللّغات الأجنبية."[2] هكذا يشيد ويفتخر بأبناء مدينته الّذين أجاد لغتهم وحفظهم لها أتم الحفظ، ونظم بها الأشعار على اختلافها، غير أنّ هفوته الوحيدة ضعفهم في اللغات الأجنبية.

رابعا: في رحلة (زيارة لخنقة سيدي ناجي): احتوت الرحلة على الكثير من الأوصاف الّتي عطلت سيرورة الزمن نذكر منها:

1- وصف الشخصيات: من الشخصيات الّتي تم وصفها شخصية(الدريدي) الّذي يقول فيه:" وأثناء جلوسنا في دار السيد الدريدي مر أمام النّافذة شيخ في حدود الثمانين من عمره ملتحفا بغرارة فقط(رغم شدة البرد) وكان حاسر الرأس والمخاط يسيل من أنفه والدموع من عينيه، فسألنا عنه فقيل لنا أنّه من بقايا أسرة أولاد حسين الشهيرة وأنّه درويش من أهل الله يسكت متى شاء ويتحدث متى شاء."[3]

2- وصف المنشآت(المساجد): يقول سعد الله واصفا أحد(جوامع الخنقة) معطلا بذلك زمن الرحلة:" والجامع

[1] - ابو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 165

[2] - المصدر نفسه، ص 167

[3] - المصدر نفسه، ص 258

واسع يحتوي على ست وعشرين عرصة وله صحن مغطى ملحق به، ولهذا الصحن محراب أيضا وللجامع صومعة عالية، مازالت جيدة الصنع وقد بلغت درجتها 62 درجة على الأقل وكانت هذه الصومعة فيما مضى لإسماع الآذان وللمراقبة أيضا عند الأخطار، فهي تشرف على جميع الوادي والمدينة والمدخل والطرقات."[1]

هذه بعض المحطات الوصفي المختلفة الواردة في نصوص الرحلات .

[1] – ابو القاسم سعد الله: حصاد الخريف ، ص 262

2. 2- البنية المكانية/الفضاء:

إذا كانت جل التحليلات السردية الأدبية تصب اهتمامها على عنصر الزمن(زمن الخطاب وزمن الحكاية)، فهذا لا يعني بتاتا أنّ أهمية المكان في التحليل السردي الأدبي أقل شأنا منه؛ فمن النّقاد من يرى استحالة الفصل بين هذين المصطلحين لشدة تداخلهما وترابطهما الوثيق، من هؤلاء المؤيدين لهذه الفكرة: النّاقد الجزائري (عبد المالك مرتاض)، الّذي أتى بمصطلح جديد هو(الحيز) بدل المصطلحين المعتادين في مثل هذه الدراسات -المكان، والفضاء-. حيث يقول في هذا الصّدد: " فلا حيزا بلا زمان، ولا زمان بلا حيز ولا يجوز أن ينفصل أحدهما عن صنوه في العمل السردي."[1] لكن قبل الخوض في الدراسة التطبيقية، أقدم مفهومات لهذه المصطلحات الّتي سبق ذكرها باختصار شديد، وهي على التوالي: المكان، الفضاء، الحيز.

2. 2. 1- مفهوم المكان والفضاء و الحيز:

2. 2. 1. 1- المكان: يعتبر هذا المصطلح أكثر بروزا من نظيريه(الفضاء، الحيز)في الدراسات السردية العربية، ربما يرجع السبب لوضوحه، وعدم غموض دلالته بين النقّاد " وهذا المدلول يتمثل في أنّ لكل حدث يقع في وقت ما مجالا لا بد أن يجري فيه؛ وهذا المجال الّذي تكثر تسميته مكانا لا يظهر في الرواية ظهورا عشوائيا، وإنّما يتم اختياره بعناية وله دوره في إضفاء الصنعة المتقنة على النّص."[2] ويواصل هذا الناقد كلامه عن مفهوم المكان ويحاول تجليته أكثر للمتلقي؛ فقدم أمثلة عنه، حيث نجده يميز بين ثلاثة أنواع من الأماكن هي على التوالي: الأماكن المغلقة، والمفتوحة، والمتنقلة.يقول:" والمكان يمكن أن يكون غرفة، أو بيتا أو مدرسة أو مسجدا أو أي شيء آخر يمكن إحكام أبوابه، وإغلاق نوافذه...وهذا المكان يمكن أن يكون فضاء(بمعنى مفتوحا) لا يمكن إغلاقه كالشارع، والصحراء، والمدينة، أو متنقلا كالسّفينة."[3] أما النّاقد(محمد بوعزّة) فيرى أنّه " مكون محوري في بنية السرد بحيث لا يمكن تصور حكاية دون مكان؛ فلا وجود لأحداث خارج المكان."[4] كما نجد نفس الفكرة عند الناقد(هيام شعبان)؛ فهو يؤكد على المكانة الكبيرة الّتي يحتلها هذا العنصر في التحليل السردي يقول: المكان " عنصر أساسي في العمل القصصي، وهو الإطار الّذي تدور فيه الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات، فكل حدث لا بد له من مكان خاص يقع فيه..."[5] وبهذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أنّ عنصر المكان له تأثير كبير على السرد، ودونه لا وجود للسّرد، فهو يسير جنبا إلى جنب مع عنصر الزمن؛ فهما مثل وجها العملة الواحدة الّتي يستحيل الفصل بينهما.

---

[1] - عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السّرد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الأدب، الكويت، دط، 1998، ص 128

[2] - إبراهيم محمود خليل: النّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 185

[3] - المرجع نفسه، ص 185

[4] - محمد بوعزّة: تحليل النّص السردي (تقنيات ومفاهيم): دار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، 99

[5] - هيام شعبان: السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله، دار الكتب للنّشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، 2004، ص 277

2. 2. 1. 2-الفضاء: عندما نتأتي للحديث عن الفضاء، يتبادر في مخيلتنا السماء وما تحويه من كواكب ومجرات، وهذا إن دل فإنما يدل على الاتساع، والشمولية الّتي يتميز بها هذا المصطلح عن نظيره(المكان)؛ فقد أولى الناقد(حميد لحميداني) عناية واهتمام بهذا المصطلح، لكن نجد في كلامه بعض التناقض؛ فتارة يرى أنّ مفهوم هذا المصطلح هو " مقابل لمفهوم المكان " [1] وتارة أخرى يعود ويؤكد على " أنّ الفضاء أشمل، وأوسع من معنى المكان."[2] ثم يواصل تدعيمه لفكرة أن الفضاء أوسع وأشمل من معنى المكان في أي دراسة سردية ويقول: " إنّ العناصر المكونة للفضاء إذن هي الأماكن المتفرقة المترددة خلال مسار الحكي."[3]

وهذه هي الفكرة الّتي سأنطلق منهل في دراستي لأماكن الرحلة.

2. 2. 1. 3-الحيز: وصاحب هذا المصطلح بلا منازع في النقد العربي(عبد الملك مرتاض)؛ فقد استفاض في الحديث عنه في كتابه الموسوم ب:(في نظرية الرواية)، من بين ما جاء فيه، قوله: بلا محدودية الحيز، ولا نهاية له ، عكس المكان الّذي له حدود ونهاية يقول في هذا الصدد " إذا كان للمكان حدود تحده، ونهاية ينتهي إليها فإنّ الحيز لا حدود له ولا انتهاء؛ فهو المجال الفسيح الّذي يتبارى في مضطربه كتاب الرواية."[4] يواصل النّاقد في تأكيده هذه الفكرة في كذا موضع من كتابه هذا منها قوله: " إنّ الحيز لا ينبغي له أن يدل إلا على ما يدل عليه معناه، وهو الفسح للشخصيات لكي تتحرك في مساحة معينة إن كانت جغرافية."[5]

حتى لا تتلبس الأمور وتتعقد لدى المتلقي أبين طريقتي في تناول فضاء/أماكن الرحلة؛ فكلما اتسع المجال وتفسح أطلقت عليه لفظ(فضاء) نحو: البلدان والقرى والمدن...، وما يندرج تحت كل فضاء أطلق عليه مصطلح(مكان) كالمنازل، والمساجد، والفنادق...، بغض النظر عن صفته الّتي يتميز بها(أقصد الانفتاح والانغلاق) نحو الشارع مكان يتميز بالانفتاح لكن يبقى مكانا لانضوائه تحت فضاء بلد أو قرية...أظن أنّ بهذا التوضيح للمنهج قد انبلجت الفكرة والرؤية للمتلقي لتصبح العلاقة بين هذين المصطلحين: علاقة الجزء بالكل.

[1] – حميد لحميداني: بنية النّص السردي، ص 62

[2] – المرجع نفسه، ص 63

[3] – المرجع نفسه، ص 65

[4] – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السّرد)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، كويت، دط، 1998م، ص 125

[5] – المرجع نفسه، ص 127

2. 2. 2-البنية المكانية في رحلات سعد الله:

الرحلة كما هو معلوم هي انتقال من مكان إلى مكان، قد يكون المكان المنتقل إليه يندرج تحت نفس الفضاء المنطلق منه، كما قد يختلفان، لتصبح عندنا نوعين من الرّحلات هي على التوالي: رحلات داخلية ورحلات خارجية، لكن حتى لا ننحرف عما سطّرنا له آنفا في دراستنا لهذه البنية أضيف شيء آخر عند الحديث عن مصطلح فضاء في الرحلة هو: تقسيم فضاءات الرحلة إلى قسمين هما فضاء كبير وفضاء صغير، وتحت هذا الأخير أدرج أماكن الرحلة.

أولا: في رحلة (رحلتي إلى المغرب):

1- فضاء المنطلق: لكل رحلة فضاء كبير يؤطر أحداثها، وأماكنها.والرحلة الّتي بين أيدينا يؤطرها فضاء كبير هو بلد الجزائر، الّذي يندرج تحته فضاء آخر تم ذكره في الرحلة هو مدينة الدار البيضاء، الّذي هو بدوره يندرج تحته أمكنة أو مكان هو المطار، كما يمكن عد هذا الفضاء نقطة البداية، والعودة المحتومة (لسعد الله) عند انقضاء الآجال المسموح بها خارج البلد الأصلي الجزائر، لأنّه مسقط رأسه، ومكان تواجد عائلته وخلانه...والمكان كما هو معلوم هو مجال تحرك الشخصيات، وبالتالي تولد الأحداث، فبدون بنية المكان تنعدم الأحداث، وهذا دليل على أهمية المكان.

ويظهر التعبير عن المنطلق في هذه الرحلة بصفة جد ضئيلة مقارنة مع الرحلات القديمة؛ لعدم ذكر تفاصيل رحلته، لكن لكل عصر وخصوصياته، فعصر الدابة يختلف عن عصر الطائرة، فقد اكتفى المؤلف بهذه العبارة – الّتي استنتجنا من خلالها فضاء ومكان المنطلق– هذا نصها:" وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية، بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النّواصر بالمغرب ساعة وربع."[1] فقد أسفر القول عن منطلق الرحال ووجهته الّتي نترك الحديث عنها عند الحديث عن فضاء الوصول.وهناك مواضع من الرحلة جاء فيها ذكر فضاء المنطلق منها: ما تعلق بمقارنة أجراها الكاتب بين طقس فضاء الرباط، وطقس فضاء عاصمة الجزائر يقول فيه:" وكان طقس الرّباط أكثر لطفا من جو عاصمة الجزائر."[2]

2- فضاء الوصول: هو البلد والمقصد الّذي يتوجه إليه الكاتب، وذلك للتزود بالمادة العلمية لإتمام بحثه، وهذا هو الهدف الأساسي من رحلته، والدافع القوي الّذي حرك أحداثها، فلولاه ما كانت أساسا، وقد تم التصريح به

[1] -أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 206

[2] - المصدر نفسه، ص 208

في كذا موضع منها: لما تكلم عن أول زيارة له لهذا البلد الشقيق يقول:" زرت المغرب لأول مرة خلال الصيف الماضي(من 29يوليو إلى 19اغسطس 1973م)."[1] كما تم التصريح به حين حديثه عن المدة الّتي قطعتها الطائرة للوصول إلى المغرب، وقد تم ذكر العبارة الدالة على ذلك، عندما تكلمنا عن فضاء المنطلق فلا داع للتكرار، وهناك مواضع عديدة تبين تواجد (سعد الله) في المغرب، وللتأكد فما علينا إلا بقراءة الرحلة.

كما انطوى هذا الفضاء على فضاءات صغيرة، هي مدن تابعة لبلد(دولة) المغرب أهمها مدينة الرباط الّتي استغرقت الحيز الأكبر من الرحلة، ثم تليها مدينة الدار البيضاء، وفي الأخير مدينة سلا.وكل من هذه الفضاءات(الصغيرة) كما هو مبين اشتملت على أمكنة سيأتي الحديث عنها تفصيلا ، عند تصنيفنا لأماكن الرحلة.

3- أنواع أماكن الرحلة: بعد التكلم عن فضاءات الرحلة؛ نتكلم عن الأماكن الّتي اندرجت تحتها، وهي كثيرة ومتنوعة يمكن تصنيفها على الشكل التالي:

3. 1- أمكنة علمية تثقيفية :

3. 1. 1- المكتبات:هي أول الأماكن الّتي كان يقصدها الكاتب لأجل التزود بالمادة العلمية لبحثه، ولعل أهم هذه المكتبات نذكر منها: مكتبة الخزانة العامة أو المكتبة الوطنية، وهي من مكتبات مدينة الرباط، وقد جاء على ذكرها في قوله: " وعندما فتحت المدينة أبوابها على السّاعة الثامنة توجهت إلى الخزانة العامة(المكتبة الوطنية) بحثا عن المخطوطات الّتي جئت من أجلها."[2] هي من الأماكن التثقيفية والعلمية لغناها بالكتب على اختلافها(علمية، أدبية، فلسفية، دينية) وهلم جر، أضف إلى ذلك أنّها بمثابة ملتقى النخبة المثقفة من العلماء، والأدباء من كل أنحاء العالم، وهذا ما حدث مع صاحب الرحلة، حيث التقى بالعديد من الشخصيات العلمية والمثقفة منهم: (إبراهيم الكتاني) وهو عضو فعّال في هذه المكتبة، و(الأستاذ محمد حجي) يدرس التاريخ في جامعة محمد الخامس بالرباط، وهما من إخواننا المغاربة، ومن المصريين الأستاذ (عبد الله عنان المصري)، الّذي اشتهر بآثاره عن تاريخ المغرب والأندلس، ومن الجزائريين التقى بمجموعة من الباحثين جاءوا لهذه المكتبة للتزود بالمادة العلمية لإتمام بحوثهم على رأسهم: الأستاذة الآنسة (نادية داودي)، والأستاذ (عبد المالك مرتاض)...[3]

وأيضا مكتبة الطالب المكناسي، وهي مكتبة بمدينة الرباط؛ عثر عليها في إحدى جولاته الخاصة في أحد

[1] أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة ، ص 205

[2] المصدر نفسه، ص 209

[3] ينظر المصدر نفسه، ص 209 - 213

شوارع هذه المدينة حسب ما جاء في قوله:" وذات يوم كنت أتجول في الجزء الشعبي من شارع محمد الخامس فقادتني رجلاي إلى مكتبة كبيرة هي مكتبة الطالب المكناسي.[1] على غرار ما حدث في المكتبة الأولى(المكتبة الوطنية) قد حدث في هذه المكتبة، فقد سخر وقته فيها للبحث عن المادة الخام(المادة العلمية) لكتابه(تاريخ الجزائر الثقافي)، كما تعرف على بعض الشخصيات المثقفة أهمها على الإطلاق شخصية (عبد الكريم كريم): أستاذ في التاريخ بآداب جامعة محمد الخامس، فكان خير معين له.[2]

وأيضا المكتبة الملكية الواقعة في حرم الملكي نفسه، الّتي زارها رفقة صديقه عباس الجراري؛ لأجل البحث عن المادة العلمية(المخطوطات) الّتي تخدم بحثه، وتثريه.على منوال ما تم ذكره من مكتبات جرى مع هذه الأخرى حيث تعرف على العديد من المثقفين منهم: الأستاذ محمد داود مدير المكتبة الملكية ومؤلف موسوعة(تاريخ تطوان) والاستاذ مولاي أحمد العلوي نائب المدير، والأستاذ محمد الروداني أحد المحققين والعاملين بالمكتبة.[3]

3. 2- أماكن النزهة والتجوال :

يبدو من خلال الرحلة أنّ (سعد الله) عضو نشيط، وكثير التحركات؛ فهو لم يقبع في مكانه حتى تأتيه المادة، فقد أجاد استثمار وقت رحلته وتقسيمه بين البحث والمطالعة، والنزهة والتجوال في ربوع هذا البلد العريق لكن نجد بين الفينة والأخرى نفحات علمية على مستوى تلك الجولات، و أماكن النزهة في رحلته إلى المغرب حدثت في شوارع مدن هذا البلد، وأحيائه بخاصة، وأيضا شواطئها، وحدائقها...

من بين جولاته جولة على الأقدام برفقة صديقه(عبد الكريم كريم) في الحي الشعبي، حيث تعرف في صحبته على العديد من الأماكن التاريخية، والأثرية الّتي تحفل بها مدينة الرباط العريقة منها: مرتفع العلو من المدينة حيث دخل الفرنسيون، وسور الأندلس الّذي يحيط بالرباط، وحارة اليهود القديمة...كم تجول " في حي(السويقة) المليء بالخضر والبقالة...[4]

نذكر أيضا جولة له على متن سيارة صديق مغربي آخر هو(عباس الجراري)؛ الّذي بفضله تم التعرف على العديد من شوارع وأحياء هذا البلد العربي، نذكر منها : حي باب شالة، وحي المشور، وحي السويسي وحي يعقوب المنصور الشعبي، وحي المحيط...[5] ومن جولاته أيضا رفقة الأخ(شحلان) من أعالي شارع محمد الخامس

[1] – أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، ص 214

[2] – المصدر نفسه ص 214

[3] –ينظر المصدر نفسه، ص 219

[4] – ينظر المصدر نفسه، ص 215

[5] – ينظر: الصدر نفسه، ص 219

من جهة الحي الشعبي، إلى شاطئ المحيط الّذي وصفه بالضيق والمزدحم، ومنه إلى(الوداية) الّتي دخلا حديقتها الغناء، كما أمكنه التعرف على العديد من معالم هذه المدينة منها متحف، والعديد من المقاهي السياحية...[1]

3. 3– أماكن الإقامة: لا تقل هذه الأماكن أهمية عن الّتي تم ذكرها، لأنّ المسافر لا بد له من مكان ينام فيه ويستريح...وهذه الأماكن تختلف وتتنوع حسب داعي الرحلة، فإذا كانت رحلة لزيارة أقارب أو أصدقاء...يكون مكان المبيت منزل تلك العائلة، أو الصديق، أما إذا كان المسافر قاصدا وجهة ما سواء داخل البلد، أو خارجه لا يعرف فيها أحد، فهناك أماكن خاصة يلجأ إليها للنوم، والاستراحة منها: الفنادق، ودار الشباب، ودور المبيت...فبطل الرحلة عندما غادر مكان المنطلق(الجزائر) متجها إلى(المغرب) لم يكن ينتظر أن يضيفه أحد، أو يقيم عند أحد؛ بل كان يضع في الحسبان قضاء أيام رحلته في فندق ما يراه أنسب له، من حيث القرب والتكلفة...وفي رحلته هذه إلى المغرب وقع اختياره على فندق بمدينة الرباط اسمه " فندق(القولوا) الواقع في زنقة(شارع) حمص المتفرعة عن محمد الخامس."[2] إضافة لدور الفنادق المتمثل في توفير أماكن النوم والراحة والأمن للمسافرين، نجد (سعد الله) يخلق جوا ثقافيا في بهو الفندق مع أقرانه من المثقفين يقول:" وقد جلسنا في بهو الفندق واحضر لنا الشاي الأخضر وسهرنا حتى قرب العاشرة ليلا، وتناولنا موضوعات شتى كالتأليف المدرسي، والتعريب في الجامعة، ونشر الكتب، وحوادث التأريخ والرحلات."[3]

3. 4– أماكن نقل المسافرين: تتعدد وتتنوع أماكن النقل، فمنها المطارات، وميناء السفن والبواخر، ومحطات القطار، ومحطات السيارات، وكل مكان من هذه الأمكنة وسيلة النقل الخاصة به، فمثلا في هذه الرحلة تم ذكر مطارين هما: مطار الدار البيضاء بالجزائر، ومطار النواصر بالمغرب.[4] ومحطة سيارة الأجرة بالدار البيضاء باتجاه مدينة الرباط يقول المؤلف:" وحول المحطة أصحاب السيارات ينادون على المسافرين مرددين أسماء المدن أو الاتجاه."[5]

3. 5– أماكن متحركة: ترتبط هذه الأماكن بسابقتها، فوجودها يقتضي وجود الأماكن الخاصة بها، فإن كان المكان المتحرك عبارة عن طائرة، فهو يقتضي وجود مساحة يتحرك فيها وينطلق منها، وكذا القطارات والسيارات

[1] – ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 228
[2] – المصدر نفسه ، ص 207
[3] – المصدر نفسه، ص 216
[4] – المصدر نفسه، ص 206
[5] – المصدر نفسه، ص 206

أما أول الأماكن المتحركة في رحلة (سعد الله) فقد تمثلت في الطائرة التونسية من نوع(بوينق)[1]، وهي أسرع وسائل النّقل في العصر الحديث، وخاصة عندما تكون الرحلات خارجية، وهي أول الأماكن الّتي دخلها الرّحال ، ومن هذه الأماكن المتحركة أيضا السيارات، والسيارات أشكال وأنواع منها: الخاصة بصاحبها، والعمومية، وسيارات الأجرة وهكذا...، أما في الرحلة نجد الرّحال يركب سيارة عمومية، كانت تقوم بمهمة توصيل المسافرين، من المطار إلى مدينة الدار البيضاء، وبعد وصوله يقوم مرة ثانية بركوب نوع آخر من هذه الأماكن المتحركة، وهي سيارة الأجرة الّتي وصفها بالضخمة والقديمة، والّتي كانت وجهتها مدينة الرباط.[2]

ثانيا: في رحلة (رحلتي إلى الجزيرة العربية):

تختلف نوعية الأماكن من رحلة لأخرى حسب درجة الحضور ، ربما يرجع تغلب مكان على مكان من حيث درجة الحضور لداعي الرحلة، فالرحلات العلمية تسود فيها أماكن التثقيف، وطلب العلم، نحو المدارس والجامعات، وأماكن انعقاد النّدوات والملتقيات...، وإذا كانت رحلات دينية، فالغلبة للأماكن الدينية كالمساجد، والزوايا، والأضرحة...وهكذا في باقي الأنواع الأخرى من الرحلات؛ فكل نوع والأماكن الغالبة فيه، والرحلة هذه سيطر عليها النوعين معا(العلمية والدينية)؛ الأول راجع لكون الرحلة علمية، وهذا مفروغ منه، والثاني راجع لسببين الأول قيامه بعمرة والثاني زيارته للعديد من الأماكن التّي ارتبطت بنشر الدين ك: غار حيراء، أماكن الغزوات....لكن قبل الحديث عن الأمكنة في الرحلة نتحدث عن أفضيتها باعتبارها المؤطرة لأحداث الرحلة، ولعل أول فضاء هو:

– **فضاء المنطلق /الذهاب**: وهو معلوم بالضرورة كون الرّحال جزائري، ولإثبات هذا الكلام نستدل بقوله من الرحلة:"وقد بدأت تسجيلاتي من مطار الجزائر ذهابا."[3]

– **فضاء الوصول**: وهو مكان تواجد الهدف، لكن الهدف بعيد المنال، والسبيل إليه يتطلب رحلة أخرى على الطائرة، ومنه يصير لدينا رحلة داخل رحلة، قد تم الحديث عنها قي مبحث البنية في الرحلات، ويصير الوصول فضاء منطلق آخر يقول سعد الله:" وصلنا مطار جدة حوالي الحادية عشر والربع مساء بالتوقيت المحلي.[4] ومباشرة عند الوصول بدؤوا في حجز الأماكن في أول طائرة ستنطلق إلى مدينة الرياض عاصمة السعودية " وحوالي الساعة

[1] –أبو القاسم سعد الله، تجارب في الادب والرحلة، ص 206

[2] – المصدر نفسه، ص 206

[3] المصدر نفسه، ص 237

[4] المصدر نفسه، ص 238

السادسة توجهت بنا الطائرة العمومية في أول رحلة صباحية لها إلى الرياض."[1] ومنه تصبح الرياض بؤرة الهدف وفضاءه الّذي تجري تحته الندوة، وما تخللتها من أحداث، وبالطبع داخل أمكنة سيأتي الحديث عنها، وعن غيرها في العنصر الّذي يلي هذا العنصر وهو الموسوم ب(أنواع الأماكن).

– **أنواع أماكن الرحلة:** كل أماكن الرحلة المختلفة تقع تحت فضاء بلدين بلد الجزائر، وبلد الجزيرة العربية(السعودية)، وهذا الأخير المعول عليه لأنّه مركز إصابة الهدف؛ ولما كانت الرحلة علمية بالدرجة الأولى(حضور فعاليات ندوة علمية) كان لزاما علينا أن نبدأ بذكر هذه الأماكن والّتي يمكن أن نسمها ب :

2. 1– أماكن العلم والثقافة: أول هذه الأماكن هي الجامعة، وبالضبط في قاعة المحاضرات الّتي تم فيها الافتتاح الرّسمي لفعاليات الندوة، بحضور نخبة مثقفة، وعلماء كبار، ووزراء وشخصيات أخرى لها وزنها [2].يواصل (سعد الله) حديثه عن المكان الّذي ألقى فيه بحثه قائلا:" وتوزع المؤتمرون على قاعتين من قاعات الجامعة: قاعة المحاضرات العامة، وخصصت للأبحاث المتعلقة بالعصر القديم، والإسلامي...وفي هذه القاعة ألقيت بحثي...أما القاعة الثانية فهي قاعة المركز الترفيهي الّتي قد خصصت للعصر الحديث والمعاصر."[3]، ومن أماكن التثقيف أيضا(معرض الكتاب) الّذي جاء على ذكره في سياق حديثه عن حفلة أقيمت بعد الفراغ من الندوة يقول:" وقد جاءت هذه الحفلة مباشرة بعد افتتاح معرض الكتاب في مبنى المركز الترفيهي لجامعة الرياض..."[4] ومن أماكن العلم والتثقيف المتواجدة بالعاصمة السعودية(المكتبات) يقول الكاتب:" اغتنمت فرصت من الوقت، وذهبت رفقة بعض الأعضاء إلى مكتبة جامعة الرياض."[5] لكن ضيق الوقت لم يسعفه في زيارة جميع أجنحة المكتبة، والمكتبات الملحقة بها.أما لو جئنا على ذكر أماكن من هذا النوع، في مدينة من مدن السعودية، وهي المدينة المنورة نذكر مكتبتين قد تطرقا إليهما الكاتب(مكتبة عارف)، (ومكتبة الأوقاف) المجاورة للحرم(المسجد النبوي) لكن لم يسعفه الحظ في دخول الأولى لأنه يوم عطلة لها.[6] وفي مكة كان يقضي عدة ساعات في مكتبتين هما مكتبة الحرم المكي، ومكتبة الحرم وفي هذه المكتبات ولاسيما مكتبة(الحرم المكي) عثر على أخبار علمية كثيرة عن موضوع كتابه(تاريخ الجزائر الثقافي).[7] و(سعد الله) نموذج للشخصية المحبة للعلم، حتى وهو في جو روحاني رباني، إلا أنّه لم ينس العمل الّذي

[1] أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة، ص، 239

[2] المصدر نفسه، ص 240

[3] المصدر نفسه، ص 243

[4] – المصدر نفسه، ص 244

[5] – المصدر نفسه، ص 146

[6] – ينظر:المصدر نفسه، ص 250

[7] – ينظر: المصدر نفسه، ص 252

هو بحاجة لإنجازه وتتمته، فكان لا يضيع وقته على غرار المعتمرين في التبضع، بل كان يقضي جلّ وقته في المطالعة والبحث عن المادة العلمية الّتي تخدم بحثه(تاريخ الجزائر الثقافي)، وكأن هذه الرحلة تابعة للرحلة الأولى.

2. 2- أماكن دينية تاريخية: عرف التاريخ الإسلامي العديد من هذه الأماكن الّتي اكتسبت صفة التدين والقدسية بسبب أمر ما له علاقة مباشرة بالدين نحو: غار حراء اكتسب صفة(الديني) لأنّه مكان نزول الوحي والمساجد اكتسبت صفة الديني أيضا لعظم ما يحدث داخلها من عبادات كالصلاة ، وقراءة القرآن الكريم، ولعل أول مكانين في هذه الرحلة هي(الجامع) و(المسجد)، وهما مكانان مقدسان تؤدى فيهما شعائر الدين الإسلامي تعبدا لله تعالى يقول سعد الله:"وتوجهنا إلى جامع قريب من الفندق وحضرنا الخطبة."[1]وهو جامع من جوامع مدينة الرياض، **و**من هذه الأماكن الّتي دخلها البطل وأدى حقها من عبادة وهو في المدينة: مسجد الحرم [2] كما يخبرنا الكاتب بأنّه زار العديد من الأماكن الدينية والتاريخية، وغيرها مما يمكن تصنيفه في هذا الباب؛ وتحت فضاء المدينة تعرف على العديد من هذه الأماكن منها: مكان غزوة الأحزاب، وموضع سيدنا حمزة، ومسجد قباء ومسجد بنات النّجار، [3]، ونفس الشيء في فضاء مكة تعرف على الكثير من هذه الأماكن منها: جبل حراء وجبل عرفات، ومنى، والمزدلفة.[4]

2. 3- أماكن الإقامة: وتأتي هذه الأماكن في الدرجة الثالثة من حيث الأهمية، والحضور، وهي أماكن معدة لراحة المسافر واطمئنانه، تتوفر فيها كل متطلبات وحاجات الإنسان البيولوجية من طعام وشراب، ونوم...لعل أول هذه الأماكن في الرحلات الحديثة الفنادق، ودور المبيت، عكس الرحلات القديمة الّتي كان المسافر والرّحال يبيت في خيام خاصة معدة لذلك متى دعت الحاجة إليه، من هذه الأماكن في الرحلة: فندق(زهرة الشرق) بالعاصمة الرياض[5]، وفندق(الرحاب)[6] بالمدينة المنورة، وفندق (زهرة مكة) المطل على الحرم بمكة المكرمة الّذي بقي فيه يومان.[7] وثاني هذه الأماكن بعد الفنادق، منزل صديق أو قريب أو أيّا كان قد استضافه عنده للإقامة والمبيت وهنا في هذه الرحلة كان البيت الّذي أقام فيه لأخيه(البشير سعد الله).[8]

---

[1] -أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 239

[2] ينظر المصدر نفسه، ص 249

[3] - ينظر المصدر نفسه، ص 279

[4] -ينظر المصدر نفسه، ص 251

[5] - ينظر المصدر نفسه، ص 239

[6] - ينظر المصدر نفسه، ص249

[7] - ينظر المصدر نفسه، ص 251

[8] - ينظر المصدر نفسه، ص 251

2. 4- أماكن النزهة والتجوال: يبدوا أن بطل الرحلة من محبي النزهة والتجوال؛ إذ نجده دائما يخصص مساحة غير يسيرة يسرد فيها ما جرى معه في تحركاته وجولاته والّتي نذكر منها: تجواله في مدينة الرياض عاصمة السعودية والّتي وصفها بقوله: " هي عاصمة كبيرة تمتد على مساحات شاسعة، وتتخللها الشوارع الواسعة الطويلة والأشجار الباسقة...وفي إحدى الجولات الجماعية دخلنا المتحف الوطني بالرياض، فإذا هو على صغره تحفة من حيث التنظيم والتنسيق وطريقة العرض..."[1]هكذا أبهرته مدينة الرياض بجمالها، ومنها أيضا جولاته في كلية الآداب وأقسامها بالرياض [2] أما في مكة تعرف على العديد من شوارعها وأحيائها منها سوق الليل، وسوق أبي سفيان كما زار رواق خاص بالجالية المغربية، وشوارع مكة الّتي كان يقطعها راجلا من سفح جبل أبي قيس إلى شارع(منصور) حيث يقيم أخي، وحي الجزائريين ولاسيما مهاجرو وادي سوف.[3]

2. 5- أماكن نقل المسافرين: دائما مع المطارات باعتبارها أماكن خاصة بالمسافرين الغادين، والعائدين، وأغلب الرحلات مكان غدو المسافر ورواحه هو نفسه مكان عودته، وإن اختلفت سبل العودة؛ أما إن اختلفت الوسيلة فذاك أمر آخر،وقد جاء في هذه الرحلة على ذكر العديد من هذه الأماكن(مطار الجزائر، مطار تونس، مطار ليبيا، مطار جدة، مطار الرياض، مطار المدينة). وكل مكان منها، مرتبط بحادث، أو خبر ما صرح به الكاتب فمثلا في مطار تونس يخبرنا بأنه اكتشف الوفود القادمة من المغرب حيث أنّ جلهم قد كانت له معرفة سابقة بهم من هؤلاء عباس الجراري، والدكتور عبد الكريم كريم، ومحمد إبراهيم الكتاني...وغيرهم[4] يبدو أن أماكن نقل المسافرين البرية كمحطات القطار والحافلات، وسيارات الأجرة مغيبة تماما، ويرجع ذلك حسب ما فهمت إلى تخصيص سيارة أو حافلة لهؤلاء الوفود تتكفل بنقلهم من الفندق إلى مكان الندوة، أو أي مكان آخر كان مقرر من قبل كزيارة مكة لأداء شعيرة دينية هي العمرة.

2. 6- الأماكن المتحركة: جاء على ذكر العديد منها ولاسيما الطائرات، أولها الطائرة السعودية القادمة من المغرب [5] وثانيها الطائرة العمومية المتوجهة إلى الرياض [6] والحافلة الّتي ذكرت مرة واحدة، ارتبط ذكرها بتوجهه من مطار جدة إلى مكة المكرمة الّتي عزم على الإقامة فيها بدل من جدة.[7] أما السيارات فقد ذكرت ثلاث مرات

[1] - ابو القاسم سعد الله: حصاد الخريف ص 245
[2] - ينظر المصدر نفسه، ص 246
[3] - المصدر نفسه، ص 252
[4] -ينظر المصدر نفسه، ص238
[5] - ينظر المصدر نفسه، ص 238
[6] -ينظر المصدر نفسه، ص 239
[7] -ينظر المصدر نفسه، ص 251

منها: السيارة الّتي حملته إلى عرفات، اضطلع صاحب الرحلة بتقديم لنا حادثة صغيرة حركت إعجاب الكاتب فأبى إلا أن يخبرنا بها وهي قوله:" اشتكى لي سائق السّيارة الّتي حملتني إلى عرفات من أنّ أطفاله(وهو متزوج من أكثر من زوجة) مصابون بسعال حاد من هواء المراوح، والمكيفات، وأنّه لا يدري كيف يعالجهم."[1] وربما السبب الّذي دفع (سعد الله) إلى ذكر الحديث الّذي دار بينه وبين السائق، للوقوف على مسألة في غاية الأهمية هي: مسألة التعدد في الزواج، وهي ظاهرة تكاد تكون منعدمة في بلادنا، رغم قدرة الكثير من الجزائريين على التعدد، وهو حق شرعي، يحمل الكثير من الفوائد الّتي تعود على صاحبها بالخير العميم، ككثرة الأولاد الّذين هم زينة الحياة والقضاء على العنوسة المتفشية.[2]

– ثالثا:في رحلة: (ربيع في سوف):هي من الرحلات الداخلية الّتي قام بها (سعد الله) لزيارة مسقط رأسه(مدينة البدوع) وهي من الزيارات التفقدية لأحوال مدينته، هذه المدينة الّتي رأى فيها كل أنواع التهميش، واللامبالاة، والإقصاء لأهلها فأبى إلا أن يكتب رحلته على شكل تقرير يمس حالة سوف المزرية، هذا البلد الغني بثرواته، ولاسيما الغاز الّذي يخرج من أرضها ليصل لدول أخرى، أما أهلها فلا يصلهم، وهذا مما لا يقبله العقل.كما جرت العادة مع الرحلات الّتي مرت معنا في تقسيم الأماكن إلى فضاء، أو أفضية تندرج تحته مجموعة من الأمكنة، وإن كان البعض يستعمل المصطلحين بالمفهوم نفسه؛ فيقول الفضاء، أو المكان الأمر سيان؛ لكن أنا قد حددت منهجي؛ فجعلت مصطلح فضاء متعلق بالبلدان، أو القرى.ولعل أول الأفضية في الرحلة هي:

1– فضاء المنطلق /الذهاب: ولما كان فضاء الذهاب هو بالضرورة فضاء العودة، نجد الكاتب يستغني عن ذكره، ويترك الحديث عنه مقرونا بحديثه عن العودة، مع وجود قرائن دالة على أنّ الرحال انطلق من العاصمة، بل أكثر من ذلك؛ فهو من المقيمين في العاصمة.من الأقوال الّتي نستدل بها على فضاء المنطلق يقول:" أما أنا فقد رجعت إلى العاصمة تنهشني حمى بلغت 39درجة مئوية..."[3] ومن القرائن المدعمة على صحة هذا الكلام من الرحلة نفسها قوله:" وفي الصباح تهيأت للخروج وغيرت ثيابي العاصمية، ولبست ثيابي السوفية الخفيفة..."[4] فالعادات والتقاليد تختلف من مكان إلى مكان؛ فثياب شخص عاصمي يقيم بالجزائر تختلف عن ثياب شخص مقيم في مدينة صحراوية كولاية(واد سوف) وهكذا.

2– فضاء الوصول: يمثل هذا الفضاء أحد مدن الجزائر العريقة هي مدينة(واد سوف)، الّتي جاء على ذكرها

[1] – ينظر أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف ، ص 251

[2] – ينظر المصدر نفسه ، ص252

[3] – المصدر نفسه، ص 171

[4] – المصدر نفسه، ص 162

في الرحلة بعد أول فعل في هذه الرحلة يقول:" زرت سوف في شهر مايو.."[1] وكل فضاء انضوت تحته مجموعة من الأمكنة، نقوم بتصنيفه تحت العنوان الموالي:

3- أنواع أماكن الرحلة: تختلف الأماكن من رحلة إلى أخرى؛ فأماكن رحلة داخلية ليست كرحلة خارجية وأيضا أماكن رحلة تدوم أيام ليست كأماكن رحلة تدوم يوم، أو أقل من يوم(ساعات)، فتنوع أماكن الرحلة يزيد بالتوازي مع طول مدة الرحلة، وبعد المسافة، لذا يمكن تصنيفهاعلى النحو التالي:

أماكن نقل المسافرين: وهي الأماكن المخصصة للسّفر منها: **4-**

4. 1-المطار: من الأمكنة المفتوحة تلتقي فيه النّاس على اختلاف ثقافاتهم، ومستوياتهم، فتجد الفلاح كما تجد الوزير...وهو مكان توقف الطائرة الّتي تقل المسافرين على متنها، وفيه تحدث الكثير من الأحداث، لكن صاحب الرحلة هنا تغاضى عنها لسبب ما لا نعرفه، وقد ذكر هذا المكان أكثر من مرة، أولها في قوله:" زرت سوف في شهر مايو...فلم أجد مثلا سوى الورود الاصطناعية."[2]يبدو أن سعد الله لم ترق له رؤية الورود والأزهار الاصطناعية الّتي تعبر عن موت الطبيعة، وخريف العمر رغم جمالها، أما في المرة الثاني فقد ورد ذكر هذا المكان(المطار) في قوله إذا: كنت تزور وادي سوف لأول مرة على متن طائرة، فإنك ستنزل في (قمار) الّتي فيها مطار الوادي، وإذا اتجهت نحو قاعة الحقائب وألقيت بصرك على بعد أقل من كيلومتر، فإنّك سترى(البدوع) مسقط رأس الكاتب.[3] هكذا حدد لنا (سعد الله) موقع المطار، ومسقط رأسيه.

4. 2- أماكن متحركة: وترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان السالف الذكر، وفي هذه الرحلة نلمح وسيلتين أو نوعين من هذه الأماكن هي:

4. 2. 1- الطائرة: تعتبر مكان في الدراسات السّردية، لما يحدث فيها من الأحداث، وإن سكت عنها الكاتب هنا، وهي من الأماكن المتحركة وقد جاء على ذكرها في قوله:" وقبل النزول من الطائرة أعلنت المضيفة أنّ درجة الحرارة قد بلغت 35 درجة مئوية، وعندما خرجت من الطائرة أحسست بوهج يلفح وجهي."[4] الحدث الوحيد الّذي آثر الكاتب إخبارنا به هو الإعلان الّذي جاء على لسان مضيفة الطائرة وهي تصرح بدرجة الحرارة خارج الطائرة في أجواء مدينة(وادي سوف).

[1] -أبو القاسم سعد الله ، حصاد الخريف، ص 161

[2] - المصدر نفسه، ص 161

[3] ينظر المصدر نفسه، ص 169

[4] - المصدر نفسه، ص 162

4. 2. 2- سيارة القريب: وهي مكان متحرك، له دور إيجابي وفعال في الرحلة؛ لأنها الوسيلة الّتي جال بها البطل أنحاء مدينة (قمار) وتعرف على شوارعها، وبعض الأماكن الأخرى كالرحبة، والقصبة...يقول الكاتب:" فقد تجولت في سيارة قريبي في الشارع الرئيسي الّذي زينو به مدخل ومخرج البلدة قمار."[1]

4. 3- أماكن المبيت: وهو مفهوم من بالضرورة مادامت الرحلة لواد سوف(مسقط رأس الكاتب):

4. 3. 1- منزل العائلة: هو مكان الدفء والحنان، والراحة والطمأنينة، وهنا في هذه الرحلة يجمع كل تلك الخصائص كونه منزل العائلة؛ فهو لا يحسب لمكوثه أي حساب طال أم قصر الأمر سيان، وقد جاء على ذكره في قوله:"ولم أكد أصل منزل العائلة حتى كنت مبتلا بالعرق."[2]

4. 4- أماكن العلم والتثقيف: وهي

4. 4. 1- المركز الجامعي: يعيب (سعد الله) التكوين في جامعات الجزائر عامة، وواد سوف بخاصة قائلا:" وفي ولاية الوادي مركز جامعي قديم جديد، ولا عيب فيه سوى أنّه يعاني مما تعانيه الجامعات والمراكز الجامعية الأخرى، ونعني بذلك الروح المحلية الضيقة، وسذاجة التكوين."[3]

4. 4. 2- المكتبات: ربما ذمّ (سعد الله) الحياة في بلدة قمار؛ لقسوة الطبيعة فيها، لكن يستحسن جانبا فيها هو حب أهلها للكتاب، والقراءة والتعلم " ففي ولاية بحجم ولاية الوادي تتجاوز فيها مكتبات البيع والمطالعة المطاعم والمقاهي الّتي تتباهى بها ولايات أخرى، وقد أحصيت في قمار وحدها، وأنا على عجل حوالي عشر مكتبات للبيع إضافة إلى مكتبات المطالعة في الزوايا والبلدية والمركز الثقافي..."[4] وهذا عدد كبير إذا ما قارناها بحجم الكثافة السكانية لبلدة قمار، لكن هذا دليل على حبهم للقراءة والعلم.

4. 4. 3- دار الثقافة: يقول عنها الكاتب أنّها تتصدر " النشاط الثقافي بعد المركز الجامعي الّذي يفترض فيه الاهتمام بالبحث العلمي، فنحن نسمع أنّ دار الثقافة المسماة علي الشهيد(الأمين العمودي) يقوم بتكريم المبدعين والمفكرين..."[5]

[1] - أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف ، ص 162

[2] - المصدر نفسه، ص 162

[3] -المصدر نفسه:ص 166

[4] -المصدر نفسه:ص 167

[5] - المصدر نفسه، ص 167

4. 5- أماكن النزهة والتجوال: ذكر الكاتب بلدة واحدة تجول فيها كثيرا رفقة أحد أقاربه على متن سيارته، وعلى عجل كما صرح هو بذلك في كذا موضع من هذه الرحلة وهي :

4. 5. 1-بلدة قمار: وهي مدينة من مدن ولاية(وادي سوف)قد زارها سعد الله لأنها تمثل بالنسبة إليه موطن الأهل والأجداد، والخلان...كما تمثل هذه الأرض الّطيبة ذكرى جميلة في حياة الكاتب(ذكرى الطفولة) ومن لا يحب هذه الفترة من الحياة.وهذا الفضاء مكان نزول الطائرات، لأنّ المطار مشيد على تربها، والفضاء كما صرحنا من قبل يتميز بالاتساع، وبالتالي تندرج تحته أماكن تعد جزء من هذا الفضاء.أول هذه الأماكن:

4. 5. 2- الشارع: وجاء على ذكره في قوله:" فقد تجولت في سيارة قريبي في الشارع الرئيسي الّذي زينوا به مدخل ومخرج البلدة قمار."[1]

4. 5. 3- القصبة /الرحبة: هو دائما يقدم لمحة سريعة عن ماضي المكان المراد وصف وضعيته الراهنة، حتى يفتح في ذهن المتلقي نافذة صغيرة عن حالة هذا المكان القديمة كي ييسر عليه عملية المقارنة، ويترك له الكلمة الأخيرة، وأيهما يفضل يقول الكاتب:" أما البلدة القديمة فقد طاف بها طائف خرقها وسلخ جلدها...فرحبة السوق القديمة كانوا يتفيؤن ظل أقواسها في الصيف ويتدثرون بدفئها في الشتاء هذه القصبة العتيقة قد هدمت وفتحت للشمس..."[2] فالكاتب لم يرض عن التغيير الّذي طال بلدته، لأنّه رأى فيه ظلما لأهلها، وفيه إهدار للمال العام في ما ليس له فائدة ولا منفعة.

رابعا: في رحلة (زيارة لخنقة سيدي ناجي): هذه الرحلة حافلة بالأماكن نحاول أن نجد لها تصنيف على غرار ما مر معنى من الرحلات:

1- **فضاء المنطلق:** لكل رحلة منطلق، ومنطلق الرحلة هذه هو مدينة بسكرة يقول سعد الله:"ففي يوم 8فبراير 1980م توجهت بكرة إلى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة."[3] إذا الفضاء الّذي انطلق منه البطل /الرحال هو(بسكرة) وهذه الأخيرة هي ولاية من ولايات الجزائرية الصحراوية يكثر فيها التمر على أنواعه، ولاسيما الجيد المعروف ب(الدقلة)، قال عنها إبراهيم محمد السّاسي في صروفه بأنّها مدينة جميلة ومن أشهر الواحات الصحراوية وتدعى أيضا ملكة الجنوب، معتدلة الطقس في الشتاء حارة في الصيف تقع بمنطقة الزاب الغربي."[4]

[1] – أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف ، ص 162

[2] –المصدر نفسه، ص 163

[3] – المصدر نفسه، ص 25

[4] – إبراهيم محمد السّاسي العوامر، الصّروف في تاريخ الصحراء وسوف، ثالة، الجزائر، دط، 2007م، ص 31

2- فضاء الوصول: مكان الوصول قد علمناه بالضرورة عندما تكلمنا عن فضاء المنطلق، وهو(خنقة سيدي ناجي) لكن بالضبط يحدثنا سعد الله قائلا: "...إلى أن وصلنا ما يشبه السّاحة قريبا من ديار أولاد حسين فتوقفنا."[1] إذا هذه الساحة جزء لا يتجزأ من خنقة سيدي ناجي.

وبعد تعرضنا للفضاء العام لأماكن الرحلة نحاول إيجاد لها تصنيف مناسب يلم شتاتها.

3- أنواع أماكن الرحلة:

3. 1- أماكن العبادة ونشر العلم: ارتبط ذكر أماكن الرحلة بسببها الرئيس والمباشر الّذي جاء لأجله بطل الرحلة، والمتمثل في البحث عن المخطوطات والوثائق القديمة والنادرة في آن، الّتي تناولت تاريخ الخنقة إبّان الثورة وما بعدها.كما هو معلوم عند أهل العلم أنّ هذه المادة كانت تحفظ على الأغلب في الزوايا والمساجد، وجزء منها في منازل ذوي العلم والأدب.

3. 1. 1- المساجد /الجوامع: اضطلعت هذه الأماكن إضافة للعبادة وأداء فريضة الصلاة، وخطب الجمعة والأعياد، إلى دور لا يقل في الأهمية عن سابقيه، ألا وهو نشر العلم، كتعليم الفقه والنحو، والحديث... وغيرها من العلوم، ولعل من الجوامع الّتي تطرق إلى ذكرها تحت فضاء الخنقة هو(الجامع الكبير)، وفيه يقول:" وكذلك كان الجامع الكبير مأثرة جليلة فهو لم يكن فقط لأداء الصلوات بل كان مركزا لنشر العلم حيث تتحلّق فيه حلقات الدروس من شيوخ قال عنهم الورتلاني أنهم اشتهروا بالنحو والفقه والحديث."[2]

3. 1. 2- الزوايا: من الزوايا في هذه القرية الصغيرة، الّتي عانت ويلات الظلم والقهر والتعمية من المستعمر زاوية الناصرية الّتي كان لها كل الفضل في نشر العلم في هذا الربع من أرض المليون شهيد، حيث أشعت على هذه " الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد، وكانت موئل علماء الزاب والصحراء...[3] وممن درس في هذه الزاوية المباركة تلميذ شيخنا العلامة الجليل ابن بادس أحمد السرحاني، والمرحوم العربي التبسي.[4] وأيضا زاوية الشيخ عبد الحفيظ الّتي اضطلعت بدور نشر العلم، وإقراء القرآن وتحفيظه.[5]

3. 1. 3- منازل النخب المثقفة: جاء سعد الله في هذه الزيارة على ذكر دارين، الدار الأولى للسيد الدريدي

[1] - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 258
[2] - المصدر نفسه، ص 261
[3] - المصدر نفسه ص 261
[4] -المصدر نفسه، ص 261
[5] - المصدر نفسه، ص 263

الّذي استضافهم، أحسن ضيافة، كما قدم لهم بعض الكتب، والفائدة العظيمة الّتي قدمها لهم أنّه روى لهم "أخبار مثيرة عن أيامه في المحتشد أثناء الثورة، وحدثنا عن أحوال الخنقة اليوم، وأعطانا صورة عن معالمها."[1] وأيضا من هذه المنازل والديار الّتي فاح عبقها في سماء الخنقة علما، دار عالم جليل كبير، لا يشق له غبار ألا وهو الشيخ(أحمد زروق بلمكي)الّذي هو، على ما قيل من أبرز علماء الخنقة الأحياء، الفائدة الكبيرة الّتي جناها بطلنا من زيارته، أنّه قدم له ملفا فيه بعض الآثار المخطوطة، منها قصيدته لوالده في شؤون الدين الّتي لم يسجل عنوانها، لأنه تلقى وعدا من صاحبها بنسخ نسخة منها لأجله.[2]

3. 2– الجبال والوديان: يبدو من خلال هذين المكانين أنّ الخنقة تعاني خناق، وضيق في الطريق الموصل إليها، ولاسيما الطريق الّذي يمر على جبل(الششار) يقول سعد الله:" وحين اقتربنا من الخنقة كاد جبل ششار يسد الطريق في وجوهنا حتى لقد تساءلت أين المدينة في وسط هذا المثلث الصّخري الهائل."[3] أما الوديان فهو وادي " العرب العظيم الّذي تحوط به الدور من جهة، والنّخيل وأشجار الفاكهة، والخضر من جهة أخرى."[4]

هذه بعض الأماكن الّتي وردت ذكرها في هذه الزيارة، وذكرها ذكر المعاين لشيء ما، لتغييب ذكر الأحداث الّتي مرّت معه فيها، على غرار الرحلات القديمة لذا كانت أقرب للتقرير الصحفي أكثر من أدب الرحلات .

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 218

[2] –المصدر نفسه، ص 259

[3] – المصدر نفسه، ص 257

[4] – المصدر نفسه، ص 259

خـــاتمـــة

بعد هذه المحاولة الجادة من العمل والبحث، يجدر بنا العودة إلى الوراء، ونبدأ في لملمت النتائج المتوصل إليها من البحث، دون أن ندّعي الوصول إلى الغاية المنشودة، لأنّ الرحلة في عمومها بحر لا تكدّره الدّلاء، فهي واسعة بنصوصها، وبمن ساهم فيها، ولاسيما رحلات القرن التّاسع عشر، فكان وقوفنا على عينة من تلك الرحلات نقلبها على وجوهها ناظرين إلى مدى تشابهها، أو تطابقها، مع من سبقها من رحلات القرون الماضية من حيث البنية الشكلية، وأدبية المتن..إلى غير ذلك من الجهات المهمة في هذا العمل السردي إذا صح التعبير لعل أول هذه النتائج هي:

الرحلة قبل كل شيء سفر، والسّفر حركة، والحركة نشاط حيوي، وممارسة خاصة بالكائن الحي، ودلالة على الحياة، ولما اختصت الحركة بالكائن الحي فلحكمة المبدع والخالق؛ فمنذ بث الله الحياة –الحركة– في أبينا آدم عليه السّلام، وأفسح له خرافات الجنة يتبوأ فيها ما شاء فهو في رحلة يتمتع بما لذّ وطاب من نعيمها...وخروجه من الجنة إلى الأرض رحلة، وبحثه عن زوجته(أمنا حوّاء) لنزولهما في مكانين مختلفين، هي رحلة من نوع آخر...وهكذا حياة الإنسان، والرحلة ليست مقتصرة على الإنسان وحده، فكل الكائنات ترحل، فالطيور ترحل وتهاجر من مكان للآخر، وكذا الأسماك، و بعض الحيوانات الأخرى، إما بحثا عن الطعام والشراب، وإما عن الأمن والدفء، أو البحث عن مصادر الرزق على اختلافها...فالرحلة رحلة لكن الاختلاف يكمن في المسببات، والوجهات لهذه الرحلة.

لكن رحلة الإنسان تختلف عن رحلة الحيوان ، وإن اتفقتا في الحركة، فإنهما يختلفان في الدواعي؛ فالرحلة عند الانسان أرقى مما هي عليه عندا الحيوان، بحكم العقل الّذي أودعه الله فيه، فلم تقتصر رحلاته وأسفاره عن البحث عن مصادر العيش والرزق فقط، بل تجاوز ذلك واختلفت الدواعي لعل منها: تحصيل العلم، و الترفيه، أو للزواج، أو للعلاج، أو لاكتساب المزيد من العزة والشرف أو للبحث عن الحبيب كما فعل الإنسان الجاهلي... وغيرها، وهذه الدواعي تتنوع من عصر لعصر، فدواعي عصر الإسلام تختلف عن دواعي الإنسان الجاهلي أو البدائي، فكلما إرتقى الإنسان ارتقت المقاصد.من هذه المقاصد النبيلة في العصر الإسلامي: زيارة المدينة، ومكة وتأدية عمرة أو حج بيت الله الحرام، أو هجرة أو غزوة...

لما كان السّفر قطعة من العذاب، ومشقة لا يحتملها الإنسان لطبيعة خلقته الضعيفة، قد أنزل الله رخصا تعينه في مشواره الحياتي لعل منها: تقصير الصلاة إلى ركعتين بدل من أربع، وجواز الإفطار إذا كانت الرحلة رمضانية، والتيمم إذا غاب الماء، أو ندر، كما قدمت لنا الشريعة أشياء كثيرة للحفاظ على حياة المرتحلين منها أداب السفر والرجوع منه. لمن أراد الاستزادة عليه الرجوع لفصلنا التمهيدي.

أما عن الرحلة كأدب؛ فهي تبدأ من دون شك عند أول نص دوّن يحكي رحلة، أو غزوة...أو كل ما يمت الصلة للرحلة والسّفر منها ما حفظته لنا الكهوف، والمغارات، والأهرامات، على شكل رموز قبل وجود الكتابة كتب الله تعالى وصلها إلينا، بفضل أياد متخصصين هم علماء الآثار، والحفريات.

أما البداية الفعلية لأدب الرحلة تبدأ كما حدده علماء الأدب، والنقاد: منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي(3هـ/9م) بنصوص بلغ صيتها مغارب الأرض، ومشارقها على جميع المستويات العلمية، والثقافية والاجتماعية...فقد جمع الرحالون ما وصلوا إليه من خلال رحلاتهم في مصنفات منها من أبصر النور، ومنها مازال مخطوطا في أدراج النسيان ينتظر من ينفض عنه غبار السنين، نذكر من هؤلاء الرواد: المسعودي والمقدسي والبيروني، والإدريسي، وابن جبير، والهروي، والبغدادي، وياقوت الحموي، وابن بطوطة...وقد دون هؤلاء ما شاهدوه، وما انطبع في ذاكرتهم وخيالهم نثرا، وشعرا.

بعد غياب الرحلة عن ساحة التأليف فترة غير يسيرة من الوقت تعود بقوة مع عصر النهضة، تغيرت معها الوجهة والمقاصد، بعد أن كانت الوجهة الديار المشرقية، صارت غربية، ربما الداعي الأسمى لهذا التبدل هو التطور الكبير الّذي عرفه الغرب فكانت الوجهة نحو: فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا، وأمريكا...وخير من يمثل هذا العصر من الرحلات رحلة: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) لرفاعة الطهطاوي، أما في القرن العشرين أيضا نلاحظ تبدل الوجهات مع اختلاف المقاصد والغايات، نمثل لهذا النوع في ثقافتنا المعاصرة برحلة كل من: البشير الإبراهيمي نحو باكيستان وباريس، ورحلات أبي القاسم سعد الله نحو المغرب العربي، والرياض.

الرحلة جنس أدبي بشهادة الكثير من النقاد، والعلماء على رأسهم: فؤاد قنديل، شعيب حليفي، عبد الرحيم مودن، العلوي بن سعيد،وبعض الباحثين مثل عيسى بخيتي في كتابه(أدب الرحلة الجزائري الحديث)وغيرهم.

أما عن البنية الشكلية في رحلات (سعد الله)، فهي لا تخرج عن النمط القديم في أغلبها من افتتاحية وعرض وخاتمة –عناصر المقال إن صح التعبير–لكن كل رحلة والظروف الّتي أنتجت فيها؛ فإن كانت الوسائل المساعدة على كتابة الرحلة في العصور القديمة الذاكرة، وأحيانا المذكّرات، فرحلات(سعد الله) لا تستغني عن هذه الوسائل من يوميات، ومذكرات، ومصادر تاريخية.ما يميز رحلات أسلافنا(ابن جبير، ابن بطوطة..) وغيرها وضوح المسار والوجهة، ودقة الوصف والملاحظة، وهذا يرجع حسب ما وصلت إليه في رحلتي مع هذا البحث، إلى الوسيلة المتاحة، وفسحة الوقت المتاحة لهؤلاء، فكانت تأتي أوصافهم دقيقة، وشاملة لكل جوانب الموصوف، إضافة لكونهم أدباء يحسنون التلاعب بالأساليب في الوصف .

مما لاحظته عن البنية في الرحلات الحديثة حذف بعض العناصر خاصة المقدمة الدينية من حمد وبسملة،

ومما اكتشفت أيضا الكثير من التعقيد في الوصول للبنية الأصلية؛ لأنّ الرّحال قد لا يذكر أحد من الأمكنة أو أكثر: مكان الانطلاق أو الوصول، أو العودة، ويحذف الكثير من المؤشرات المساعدة لتبين مسار الرحلة بشكل سليم، لكثرة الجولات الّتي قد تحدث داخل الرحلة الواحدة؛ لتصير عندنا رحلة تحتها رحلات صغرى، وهذا ما زاد من غموض الرحلة، لكون التجوال له نقطة انطلاق ووصول، ثم عودة مما يشكل التباس بين الرحلة الكبرى والرحلة الصغرى.

أدبية الرحلة تتجلى في كون الكثير مما أورده الرّحالة في مصنّفاتهم، وبطون كتبهم يمكن أن يلج إلى عالم الأدب والخيال؛ فهم حمّلوا رحلاتهم بألوان من الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وزيّنوا ألفاظهم وتعابيرهم ما استطاعوا إليه سبيلا، وارتقوا بأساليبهم الوصفية أيما ارتقاء حتى بلغت درجة عالية من الدقة، علاوة على ذلك أسلوب القصص السلس والمرن الّذي امتازت به متون الرحالات، ولاسيما القديمة منها.

أما عن القصة والسّرد فهناك من اعتبر الرحلة قصة؛ لاقترابها منها في بعض خصائصها من السّرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، والرحلة –أدب الرحلة– لغناها بالمادة القصصية والسّردية، وهذا لخير دليل على سبق المعرفة للعرب على الغرب في هذا الميدان.

يمكن أن نصل من كل هذا لحقيقة لا مناص منها وهي: أنّ رحلات العصر الحديث لن ترقى إلى مصاف الرحلات القديمة وستبقى محاولات يمكن القول عنها تجارب كما وصفها أبو القاسم سعد الله ، لانّه حسب قراءاتي الكثيرة لكتب الرحلات على اختلافها من حيث الزمن، هو وجود عوامل مساعدة ساعدت الرحّالة القديم على بلوغ هذه الدرجة من الدقة والنبوغ في الوصف والسرد، لعل أول هذه العوامل هو: عامل الوقت فالوقت المتوفر للرّحال القديم يفوق وقت رحال العصر الحديث مثلا (ابن بطوطة) رحلته استغرقت حوالي سبع وعشرون سنة من حياته.وهو وقت كاف ليبلغ درجة الكمال في مثل كذا كتابات وثاني هذه العوامل: الوسيلة المريحة، وهل نجد أريح من ظهور المطي على اختلافها أحصنة، وجمال وحمير.. وثالث العوامل الرفقة، وبالتالي تبادل أطراف الحديث حول موضوعة معينة مما يغني الموضوع المتطرق إليه، ومن العوامل المساعدة :الثقافات المتنوعة ولاسيما الدينية منها الّتي ميزت أصحاب هذه المتون من : أدب، وحفظ للقرآن الكريم وأحاديث نبوية.

فرحلات (سعد الله) وإن كانت من قبيل الرحلة فهي فقيرة من حيث البنية الأدبية، والمادة السردية إلا ما جاء عفويا في رحلاته، وخاصة الرحلات الداخلية فهي من قبيل التقرير الوصفي لا نكاد نشم لفن الرحلة إلا من حيث البنية المسيطرة والمهيمنة على المتن ألا وهي بنية السّفر، أما ما عدا ذلك فتبقى محاولات بسيطة حاول صاحبها تقليد روادها ، وإن تميّز أسلوبها بمسحة أدبية فهي مجرد تجارب أو محاولات حاول صاحبها أن يسلك بها

مضمار الرحلات القديمة لكن خانته بعض الظروف الّتي قد أتيحت للرحالة القديم رغم بساطتها؛ فرضتها طبيعة الحياة القديمة ،وإن كانت متوفرة للرحال الحديث لكن طبيعة الحياة المتقدمة تمنعه منها... والله أعلم.

قائمة المصادر والمراجع

1–القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

المراجع العربية :

2– الإبراهيمي البشير، آثار البشير الإبراهيمي(1940م/1952م)، تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، 1997م، ج2.

3- أبو راس محمد المعسكري، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة، تح: أحمد أمين دلاي، المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهرن، دط، 2007م.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ج2، ج7

5- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، دط، 2007م، ج1، ج3

6- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983م

7- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السّلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م.

8- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث –بداية الاحتلال –الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط3، دت.

9- أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة، عالم المعرفة، الجزائر، دط، دت.

10 – أبو القاسم سعد الله: حياتي(مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله)، عالم المعرفة الجزائر، دط، 2015م.

11- أبو القاسم سعد الله: مسار قلم يوميات –القاهرة 1956-1957م-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1425هـ/2005م.ج1، ج2، ج7.

12- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م.

13- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية(1830-1900)، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

14- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2011م.

15- أبو منصور عبد الرحمان الثعالبي، زاد سفر الملوك في السّفر ومدحه وذمه ومحاسن الأخلاق فيه، تح: رمزي بعلبكي، وجلال الأرضة، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، دط، 2011م.

16- أبو عبد الله محمد بن إدريس،(الإمام الشافعي)، ديوان الإمام الشافعي، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 2013م.

17- أبو عبد الله محمد بن إدريس،(الإمام الشافعي)، ديوان الإمام الشافعي، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الغد العربي، القاهرة، ط2، 1425هـ/ 1985م.15.

18- أبو عبد الله محمد بن عبد الله شمس الدين اللواتي المكنى(ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة "تحفة النّظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار "، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

19- أبو هيف عبد الله ، النّقد الأدبي العربي الجديد –في القصة والرّواية والسّرد- اتحاد الكُتاب العرب، دط، 2000م.

20- أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللّغة العربية المعاصرة، عالم الكتب القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.

21- أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ط1، 1423هـ/2002م.

22- الألباني محمد ناصر الدين ، سلسلة الأحاديث الصحيحة، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنّشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1425هـ/2004م.

23- الألباني محمد ناصر الدين ، صحيح الجامع الصغير، وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1408هـ/1988م، مج 1.

24- الألوسي جمال الدين ، الجزائر بلد المليون شهيد، السلسلة الإعلامية 12، وزارة الثقافة والإعلام، دط، 1390هـ/1970م.

25– إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، مج1.

26– أنساعد سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري –دراسة في النشأة والتطور والبنية–، دار الهدى، عيم مليلة، الجزائر، دط، 2009م.

27- الأنصاري عبد القدوس ، طريق الهجرة النبوية، مطابع الروضة، جدة، ط1، 1398هـ/1978م .

28- بابا ساميا، مكون السيرة الذاتية في الرواية، حكايتي شرح يطول لحنان الشيخ، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 1433هـ/2012م.

29- البخاري أبو عبد الله، صحيح البخاري، دار صادر، بيروت، ط1، 1425هـ/2004م، مج1.

30- البخاري أبو عبد الله، الجامع الصحيح للبخاري، تح: عبد القادر شيبة الحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 1429هـ/2008م، ج.

31- بسيوني عبد الفتاح فيود، قراءة في النّقد القديم، مؤسسة المختار للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1431هـ/2010م.

32- البغدادي الخطيب، الرحلة في طلب الحديث، تح: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1395هـ/1975م.

33- بلحميس مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981م .

34-بوعزيز يحي، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات الشعب الجزائري، و، م، ج، دط، 1995م.

35- بو لعسل كمال، رحلة أبي حامد الغرناطي، دراسة في فضاء الرحلة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان، دط، 2011م.

36- ابن التهامي الحاج مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر، تح: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2009م.

37- ابن باديس عبد الحميد ، آثر عبد الحميد بن باديس، تح: عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1417هـ/1997م، مج 2، مج 4.

38- ابن حنبل أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ج5.

39- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، (مقدمة ابن خلدون)، دار نهضة مصر للنّشر، والتوزيع، مصر، ط7، 2014م.

40- بن صيام سليمان ، أحمد ولد قاد، محمد بن الشيخ الفغون القسنطيني)، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس(1852م، 1878م، 1902)، دار السويدي للنّشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2005م.

41- ابن عبد الله سامي، بن أحمد المغلوث، أطلس الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1427هـ/ 2006 م.

42- باعزيز بن عمر، رحلتي إلى البقاع المقدسة، ثالة، الجزائر، ط2، 2007م.

43- ابن قينة عمر، الأعمال الكاملة في أدب الرحلة، كولوريوم وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2013م، مج 3، ج1.

44- ابن قينة عمر ، رحلات ورحالون في النّثر العربي الجزائري الحديث، المؤسسة لوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 2009.

45- ابن كثير البداية والنّهاية، مكتبة المعارف، دط، 1410هـ/1990م.

46- ابن مسايب، ديوان، جمع وتحقيق، محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنّشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، دط، 2001م.

47- ابن مراد إبراهيم ، المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، دت، ج1.

48-ابن مكرم جمال الدين محمد المعروف بـ (ابن منظور)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنّشر، بيروت، دط، دت، مج11.

49-ابن نعمان أحمد، -أبو القاسم سعد الله —حياة وأثار شهادات ومواقف —دار النعمان للطباعة والنّشر، الجزائر، دط، 2017م.

50- البنوني محمد، من حديث الركب المغربي، تطوان، مطبعة المخزن مكناس، المغرب الأقصى، دط، 1953م.

51- بوزواوي محمد ، معجم الأدباء والعلماء المعاصرين من(1798م إلى 2009م)، الدار الوطنية للكتاب، نشر وتوزيع، (درارية) الجزائر، دط، 2009م.

52- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ/2002م، ج5.

53- التازي: عبد الله الهادي، رحلة الرحلات...مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، دط، 1426هـ/2005م، ج1.

54- الترميذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، مج 4

55- الترميذي محمد بن عيسى ، الجامع الكبير، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، مج 5 .

56- الثعالبي الجزائري المالكي عبد الرحمن بن مخلوف (ت875هـ)، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، ويليهما رحلة عبد الرحمن الثعالبي، تح: محمد شايب شريف، دار ابن حزم للنّشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1426هـ/2005م.

57- الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الباي الحلي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ / 1965م، ج3

58-الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شكر أبو فهر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1413هـ/1992م.

59- جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه أعلامه(المسعودي، ابن بطوطة، الريحاني)، دار الثقافة نشر وتوزيع، بيروت، ط1 26، 1966م.

60- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983/1403م.

61- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1989م، رقم 138.

62- حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي(التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، مكتبة الأدب المغربي، دط، 2002م.

63- حميدة عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984.

64- حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008م.

65- خصباك شاكر، الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1986م.

66- الخضرمحمد وآخرون، خمس رحلات إلى الجزائر(1904م/1932م)، دار السّويدي للنّشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الرئيسي، بيروت، ط1، 2004م.

67- خليل إبراهيم محمود ، النّقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار الميسرة للنّشر والتوزيع، والطباعة، عمان، ط1، 1424هـ/2003م.

68- خليل عماد الدين ، دراسة في السيرة، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط4، هـ1435/2014م.

69- الداوودي، شمس الدين محمد بن علي بن احمد (ت945هـ)، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983، ج2.

70- دويدار أمين ، صور من حياة الرسول إلى المدينة المنوّرة، دار المعارف، القاهرة، دط، 1987م.

71- الركيبي عبد الله ، تطور النثر الجزائري الحديث(1830م-1974م) دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2009م.

72- السعدي عبد الرحمن بن النّاصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللّويحق، دار أضواء البيان، الرياض، دط، 1427هـ /2006م.

73- سعيدون ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي(تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م

74- اسكندر يوسف، اتجاهات السعودية الحديثة –الأصول والمقولات- دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2008 م.

75- السملالي، العباس بن إبراهيم ، الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات الأعلام، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط، 2، 1997م، ج 7، ص171.

76- السّيوطي جلال الدين ، تفسير الدّر المنثور في تفسير المأثور، دار الفكر، بيروت، دط، 1432هـ/1433 /2011م، ج5

77- السيوطي، جلال الدين ، طبقات المفسرين، تح: علي محمد عمر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، المملكة العربية السعودية، طبعة خاصة، 1431هـ/2010م.

78- شترة خير الدين(المهاجرون الجزائريون إلى البلاد التونسية)، دار كردادة للنّشر والتوزيع، طبعة خاصة،

79-الصابوني محمد علي، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط3، 1402هـ/1981م، مج3.

80- صحراوي إبراهيم، السرد العربي القديم(الأنواع والوظائف والبنيات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 1429هـ/2008م.

81- طقوس محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النّفائس، للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1430هـ/2009م.

82– الفيروز آبادي مجد الدين ، القاموس المحيط، راجعه: أنس محمد الشامي، زكريا أحمد جابر، دار الحديث، القاهرة، دط، 2008م.

83– القرطاجني حازم (أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م.

84– قصبجي عصام، أصول النّقد العربي القديم، مطابع الأصيل، سوريا، دط، 1981م.

85– قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدّار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002م.

86– العبودي محمد بن ناصر، حصاد الرحلات، مكتبة الرشد(ناشرون)، الرياض، دط، 1428هـ.

87– عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، مصر، ط3، دت.

88– العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي، بين القديم والحديث، دار النّهضة العربية، بيروت، دط، 1979م.

89- علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللّبناني، بيروت –سوشبريس، الدار البيضاء، ط1، 1405هـ/1985م.

90- العلوي سعيد بن سعيد، أوروبا في مرآة المرحلة، صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة، دراسات في الأدب الجغرافي، دار السويدي، للنّشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006م.

91- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين –دراسة تحليلية مقارنة- مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، دط، 1417هـ/1996م.

92- الغزالي أبي حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1426هـ/2005م.

93 - كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1414هـ/ 1993م، ج1.

94– لحميداني حميد، بنية النّص السردي(من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991م.

95– ماردیني عبد الرحيم، المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، دار المحبة دمشق، دار آية، بيروت، ط1، 2016م.

96– محمد مراد وليد، نظرية النّظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللّغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر سوريا، ط1، 1403هـ/1993م.

97– المديني أحمد، الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي، البهية، دار الصدى، دبي، ط1، 2014م.

98– مرتاض عبد المالك، رحلة نحو المستحيل –تحليل سيميائي مركب لقصيدة رحلة المراحل لسعد الحمدين، الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2007م.

99– مرشد أحمد، تنويعات سردية في الرواية العربية الحديثة، الهيئة العامة السورية، دمشق، دط، 2019م.

100– عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، دت.

101– المقري التلمساني أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، 1388هـ/1968م، مج1، مج5.

102- المقري التلمساني أحمد بن محمد ، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن عمر، مكتبة الرّشاد للطّباعة والنّشر، والتوزيع، الجزائر، دط، 2004م.

103- المنذري عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب، تح: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1424هـ، مج1.

104- المنياوي أحمد، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط1، 2010م.

105- المهندس كامل، مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان –ساحة رياض الصّلح- بيروت، ط2، 1984م.

106- الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النّشر للجامعات المصرية، ط1، 1415هـ/1995م.

107- مودّن عبد الرحيم ، الرحلة في الأدب المغربي – النص، النوع، السياق – أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2006.

108- مودن عبد الرحيم، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر(مستويات السرد)، دار السويدي للنّشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006م.

108- النابغة الذبياني، ديوان، شرح وتقديم: عباس عبد السّتار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1416هـ/1996م.

109- ناظم حسين ، مفاهيم الشّعرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م.

110-الندوي أبو الحسن علي الحسين، السيرة النبوية، تح: عبد الماجد العوري، ط12، 1425هـ/2004م.

111– النسّاج سيد حامد، مشوار كتب الرحلة(قديما وحديث)، مكتبة غريب، القاهرة، دط، دت.

112– نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ/1980م.

113– الورثيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة ب: نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، الجزائر، (رويبة)، ط1، 1432هـ/2001م، ج1، ج2، ج3.

114– يقطين سعيد، الكلام والخبر –مقدمة للسّرد العربي – المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م.

115- يقطين سعيد، الرواية والتراث السردي(من أجل وعي جديد)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م.

115- يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي(الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، الدار البيضاء، ط3، 1997م.

116- اليوسفي محمد لطفي، الشعر والشعرية –الفلاسفة والمفكرونالعرب وما أنجزوه وما هفو إليه.الدار العربية للكتاب، تونس، دط، 1992م.

117-يوغلا أحمد، الرحلة الأندلسية – الأنواع والخصائص، دار أبي رقراق للطباعة والنّشر، ط1، 2008م.

المراجع المترجمة:

118-أرسطو، كتاب فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الانجلو، مصر، دط، دت.

119-إنريكي أندرسون إمبرت، القصة القصيرة(النظرية والتقنية)، تر: علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة: صلاح فضل، المجلس الأعلى للثّقافة، دط، 2000م.

120العنوان الأصلي ,Teoria y tecnicadelcuento; Enrique.andersonimbert : editorialatials.a, barcelona1991

121- إيفيستالوني، الأجناس الأدبية، تر: محمد الزكراوي، المنظمة العربية للتّرجمة، بيروت، ط1، 2014م

122- جاكبسون رومان: قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنان، دار توبقال، المغرب، 1988م.

123جان كوهن، بنية اللّغة الشعرية، تر: محمد العمري، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986م.

124- جيرار جينيت، مدخل لجامع النّص، تر: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دط، 1985م.

125- مجموعة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية، تر: طاهر حجاز، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1985م.

126- ميخائيل باختين، رؤية موسوعية فلسفية جمالية سكولوجية، تر: عقبة زيدان، دار نينوى للدراسات والنّشر والتوزيع، دمشق، ط1، /1438هـ/ 2017م.

– المجلات والدوريات :

127–إبراهيم عبد الفتاح رمضان، التناص في الثقافة العربية المعاصرة(دراسة تأصيلية في ببليوغرافيا المصطلح)، مجلة الحجاز العالمية المحكمة للدراسات الإسلامية والعربية، ع5، محرم 1435هـ، نوفمبر2013م.

128– بوشعيب السّاوري، جدل الذاتية والموضوعية في رحلة ابن صيام، جريدة القدس، ع 5461، السنة الثامنة عشر، 19كانون الأول(ديسمبر)، 2006م، 29 ذو القعدة 1427هـ.

129- صالح بوسليم: رصيد ببيلوغرافي لسيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله، مجلة الحوار المتوسطي، ع7، ديسمبر، 2014

130 – طعان صبحي، بنية النّص الكبرى، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع(1، 2)، 1يوليو 1994م

131فردوس أحمد بت، أهمية أدب الرحلات من النّاحية الأدبية، مجلة اللغة، مجلة أدبية فكرية محكمة، جامعة الهند، الكتاب الثاني، ع2، يناير مارس، 1437هـ/2016م.

132- لطيف زيتوني، السيميولوجيا وأدب الرحلات، مجلة عالم الفكر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولت الكويت، مج:42: ع3، يناير، مارس، 1996، ص258.

133- عبد النور آيت بعزيز، الشيخ محمد المنصوري الغسيري المربي المعلم والمرشد المناضل(1912م، 1974)، مجلة قضايا تاريخية، ع 5، 1438هـ/2017م

134 –عزت قرني، رحلتان، فصول مجلة النّقد الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، مج5، ع4، يوليو، أغسطس، سبتمبر 1985م.

135- مصطفى عبيد: النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، عصور الجديدة، ع 13، ربيع(أبريل) 1435هـ/2014م

الرسائل الجامعي :

136– إسماعيل زردومي فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، **أطروحة دكتوراه دولة**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة، 1426هـ/2005م.

137- باية بن مساهل، أدبية الخطاب النثري في أحكام صبغة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي، **أطروحة دكتوراه**، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2016م، 2017م.

138- بحري نصيرة، أدب الرحلة في الجزائر(عبد الرزاق بن حمادوش أنموذجا)، رسالة ماجيستير، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، 2014م، 2015م.

139-جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي، **أطروحة دكتوراه العلوم**، في الأدب الجزائري القديم، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014م، 2015م.

140-حافظ محمد بادشاه، الحجاز في أدب الرحلة العربية، **أطروحة دكتوراه**، الجامعة الوطنية للّغات الحديثة، إسلام باد، 2009م -2013م.

141-حطاب طانيا، إشكالية التجنيس في الرواية العربية المعاصرة –دراسة نماذج عربية- **أطروحة دكتوراه** – جامعة مستغانم(عبد الحميد بن باديس)2010م، 2011م.

142- سمير بن ثابت، مفهوم الأدبية في النّقد المغربي القديم، رسالة ماجيستير، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2011م، 2012م.

143- عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ما جيستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1417هـ، 1418هـ.

144- عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث(سياق النّص وخطاب الأنساق)، **أطروحة دكتوراه**، جامعة تلمسان، أبو بكر بلقايد، 2015 م، 2016م..

144- مقدم فاطمة، الخصائص السّردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، رسالة ماجيستير، جامعة وهران، السانية، 2010، 2011م.

المقالات

145 - ميدان بن عمر، أدب الرحلة بين التباس المفهوم واستعصاء التجنيس، "مقال" جامعة حمه لخضر، الوادي.

146-الطاهر حسيني، الشخصية المركزية في الرحلة العلمية بين سلطان الأنا وصورة الآخر(فتح الإله ومنته لأبي راس الجزائري نموذجا)، "مقال"، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي.

برامج تلفزيونية

147- بشير مسيس: لقاء مع شيخ المؤرخين الأستاذ أبو القاسم سعد الله، حصة حوار، برنامج تلفزيوني، القناة الوطنية.

148- حميدي خميسي تصريحات مدير الجامعةجامعة الجزائر(2) تحمل اسم المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله، قناة الشروق نيوز.

فهرس الموضوعات

الموضوع: الصفحة:

المقدمة.....أ ــ هـ

مدخل: (ماهيتها و دواعيها وأهميتها وآدابها و رخصها و صعوباتها).....02ــ 28

1- مفهوم نشاط الرحلة:.....02

1-1- التعريف اللّغوي :.....02

1-2- التعريف الاصطلاحي:.....03

2- لفظ الرحلة وما في معناها:.....05

- في القرآن الكريم:.....05
- في السنة النبوية الشّريفة:.....06
- في الشّعر العربي:.....07

3- دواعي ودوافعها نشاط الرحلة:.....08

4- رحلات ما قبل الميلاد:.....14

- رحلات جاء ذكرها في القرآن الكريم:.....14

5- رحلة في الإسلام:.....18

6- فوائد الرحلة:.....21

7- آداب الخروج في الرحلة:.....24

8- آداب الرجوع من السّفر:.....26

9- رخص السّفر:.....27

11- الصعوبات الّتي قد تعترض الرحالة:.....28

الفصل الأول: أدب الرحلة الجزائري.

المبحث الأول: أدب الرحلة:.....33-48

1- ماهية أدب الرحلة:.....33

2- علاقته بفن السيرة:.....35

3- نشأة وتطوره:.....36

4- أهمية أدب الرحلة:.....41

5- قيّم أدب الرحلات:.....43

6- تدوين الرحلة:.....45

7- دواعي تدوين الرحلة:.....48

المبحث الثاني: المنجز الرحلي الجزائري:.....49-66

1- رحلات قبل العهد العثماني:.....49

2- رحلات في العهد العثماني:.....51

3- رحلات جزائرية حديثة:.....65

3- 1- أشكال/أنواع الرحلات الجزائرية :.....66

الفصل الثاني: البنية الفنية في جنس الرحلة:.....74–111

1- تجنيس الرحلة:.....74

2- القسيمات الشكلية التقليدية في جنس الرحلة:.....81

2- 1- عناصر التقسيمات الشكلية في الرحلة:.....83

2 - 2- نماذج للمقارنة:.....85

3- مفاهيم عامة حول الأدبية/ الشعرية.....94

3-1- أصول ومنابع الشعرية:.....94

3-2- الأدبية/ الشعرية في العصر الحديث:.....98

4- أدبية/ شعرية الرحلة:.....103

5- البنية السردية في الرحلة:.....106

5-1 – مقومات السرد:.....107

5-2- البنية السردية في الرّحلات:.....108

الفصل التطبيقي: البنية الفنية في رحلات أبي القاسم سعد الله.....113-227

*** نبذة عن حياة الرحالة:.....113**

1- مرحلة النّشأة والمهاد:.....113

2- مرحلة التكوين والتعلم:.....115

3- مرحلة النّشاطات(الثورية، الإصلاحية، الفكرية):.....118

*** البنية الشكلية في رحلات سعد الله:.....125**

1- في رحلته الموسومة بـ (رحلتي إلى المغرب).....125–133

2- في رحلته الموسومة بـ(رحلتي إلى الجزيرة العربية):.....134–140

3- في رحلته الموسومة بـ(ربيع في سوف):.....141–144

4- في رحلته الموسومة بـ(رحلة سعد الله لخنقة سيدي ناجي).....145–149

*** أدبية /شعرية رحلات سعد الله:.....150**

1- مفاهيم حول الصورة الشّعرية:.....150

2- الصورة الشعرية في رحلات سعد الله:.....153

2-1-على مستوى البيان:.....153–170

2-2- على مستوى البيان:.....170–179

*** البنية السردية في رحلات سعد الله:.....179– 196**

1- بنية الشخصية:.....180–196

2- البنية الزمكانية في رحلات سعد الله:.....196–227

الخاتمة:.....229

فهرس المصادر والمراجع:.....234

الملخص:.....252

فهرس الموضوعات:.....248

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أدب الرحلة عند أدباء الجزائر في العصر الحديث، وبالتحديد عند المؤرخ والأديب الجزائري : "أبو القاسم سعد الله" الّذي كانت له إسهامات في هذا الأدب، ضمها كتابه الموسوم بـ:" تجارب في الأدب والرحلة" وأخرى مبثوثة بين صفحات الجرائد وتآليفه الكثيرة...والدراسة ركزت على الجانب الشكلي لرحلاته لتبين مدى مشابهتها لرحلات رواد هذا الفن مثل: ابن بطوطة وابن جبير، والورثيلاني...والنتيجة كانت أنّ كتابات المتأخرين في هذا الأدب تبقى محاولات وتجارب ينقصها الكثير لتصل رحلات السابقين.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة ، رحلات الجزائريين ، أبو القاسم سعد الله، البنية الشكلية .

résumé: Cette recherche vise à faire la lumière sur la littérature de voyage parmi les écrivains de l'Algérie à l'époque moderne, plus précisément l'historien et écrivain algérien "Abu Al-Qasim Saad Allah", qui avait des contributions à cette littérature incluses dans son livre intitulé "Expériences en littérature et Voyage » et autres émissions entre les pages des journaux et ses écrits. Les nombreuses... et l'étude se sont concentrées sur l'aspect formel de ses voyages pour montrer à quel point ils s'apparentent aux voyages des pionniers de cet art, tels que : Ibn Battuta, Ibn Jubair... et Al-Worthilani... Il en résulte que les écrits des retardataires dans cette littérature restent des tentatives et des expériences qui manquent beaucoup pour rejoindre les voyages des précédents.

Mots clés : littérature de voyage, voyages algériens, Abu al-Qasim Saadallah, structure formelle.

Summary: This research aims to shed light on the travel literature among the writers of Algeria in the modern era, specifically among the Algerian historian and writer "Abu Al-Qasim Saad Allah", who had contributions to this literature included in his book entitled "Experiences in Literature and Journey" and other broadcasts between the pages of newspapers and his writings. The many...and the study focused on the formal aspect of his travels to show how similar they are to the travels of the pioneers of this art, such as: Ibn Battuta, Ibn Jubair...and Al-Worthilani...The result was that the writings of the latecomers in this literature remain attempts and experiences that lack a lot to reach the travels of the previous ones.

Keywords: travel literature, Algerian travels, Abu al-Qasim Saadallah, formal structure.

الملخص:

تناولت هذه الدراسة جانبا مهما من جوانب الأدب، وهو ما يعرف بالرحلة أو بأدق العبارة "أدب الرحلة" ولما كان هذا الأدب ذو جذور عميقة تعود لعصور ما قبل الميلاد وبالتحديد لأول نص يحكي رحلة إنسان حفظتها لنا تلك الرموز على جدران الكهوف والمغارات...وهذا لا يعنينا، كما لا يعنينا أيضا ما أنجزه أسلافنا من نصوص في هذا الباب كرحلات ابن بطوطة وابن جبير وابن فضلان...إلا ما جاء على سبيل التنويه به منذ القرن الثالث الهجري حتى العصر الحديث. لكن ما يعنينا هنا شق من هذا الأدب هو أدب الرحلة في العصر الحديث، وبالضبط عند أحد قامات الثقافة والأدب، وذو الثقافتين التاريخية والأدبية (أبي القاسم سعد الله) من خلال ما أنجزه من رحلات قال عنها تجارب في أدب الرحلة، والعنوان الّذي وسم به الكتاب الّذي ضمّ رحلاته كفيل بتوصيل ما أردنا أن نعرفه عن رحلاته هو بالخصوص، ورحلات عصره بصفة عامة. والتجربة بمعنى المحاولة لكن لا تعني أبدا بلوغ ما وصل إليه الرحالة القدماء في هذا الفن من حيث وصفهم لما شاهدوه، و ما انطبع في خيالهم عن الآخر...فرحلات الأقدمين أكثر نضجا من رحلات المتأخرين. و يرجع السبب لعوامل قد ذكرنا منها أربعة في هذا البحث منها: الوقت والوسيلة...لذا جاءت هذه الدراسة لتجيب عن إشكالية مفادها "ما مدى تمكن أبو القاسم سعد الله في هذا النوع من الكتابات، الّتي أراد من خلالها تقليد أصحابها؟ وهل له إضافات جديدة تحسب له في هذا المضمار من حيث الشكل والمضمون على حد سواء؟. تبلورت عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات. الإجابة عنها جزء لا يتجزء من الإجابة على الإشكالية، تدور حول : ماهية الرحلة من حيث اللغة وفي الاستعمال ، وأهم دوافعها وآدابها...هذا من حيث هي نشاط وفعل طبيعي يقوم به الإنسان ، أمّا من حيث هي أدب ، فدارت تساؤلاتي عن مفهوم أدب الرحلة ، وبدايات تدوينه، وعن كونه جنس أم لا ، والتقسيمات الشكلية ، والبنية الفنية في هذه النصوص ، حيث وقفنا على بعض الأمور الّتي أدخلت هذا الفن الجديد إلى دائرة الأدب ، وفي الأخير ختمنا البحث بتتبع أهم النتائج المتوصل إليها.

Research Summary:

This study dealt with an important aspect of literature, which is what is known as the journey, or more accurately the term "journey literature." Since this literature has deep roots dating back to the pre-Christian era, specifically the first text that tells of a human journey that the walls of caves and caves preserved for us... and this does not concern us, We are also not concerned with the texts accomplished by our predecessors in this section except what came as a way of mentioning it from the third century AH until the modern era. But this study focused its lens on a part of this literature, which is the travel literature in the modern era, and exactly at one of the pillars of culture and literature, and with the two historical and literary cultures (Abu Al-Qasim Saad Allah) through what he accomplished from trips he said about experiences in the travel literature, and the address that He marked the book that included his travels that would convey what he wanted us to know about his travels in particular, and the journeys of his time. And experience in the sense of trying, but it does not mean ever reaching what the ancient travelers reached in this art in terms of their description of what they saw, what was imprinted in their imagination about the other... The journeys of the ancients are more mature than those of the late ones. Perhaps the reason is due to factors, four of which we have mentioned, of which we have mentioned time, and the means... Therefore, this study came to answer a problem that "Does what Saad Allah wrote of travels fall into the field of literature, or are they just documents and anthropological (human) writers that do not entirely rise to the ranks of trips? Our ancestors are like: Ibn Battut and Ibn Jubayr...? Then other problems of lesser importance emerged from this problem, and the answer to them means reaching the satisfactory and sufficient answer to what we are about to reach, after studying its formal structure, the literaryness of its texts, and the elements of narration in it, then extracting the most important The results from this study

Résumé:

Cette étude a porté sur un aspect important de la littérature, qui est ce qu'on appelle le voyage, ou plus exactement l'expression « **la littérature du voyage** », et puisque cette littérature a des racines profondes qui remontent à l'époque préchrétienne, et spécifiquement pour le premier texte qui raconte le voyage d'un être humain, il nous a été préservé par ces symboles sur les parois des grottes et des grottes ... et cela Cela ne nous concerne pas, tout comme cela ne nous concerne pas ce que nos ancêtres ont accompli dans termes de textes en la matière, tels que les voyages d'Ibn Battuta, Ibn Jubair et Ibn Fadlan ... sauf pour ce qui est venu comme une manière de le mentionner du IIIe siècle de l'Hégire jusqu'à l'ère moderne. Mais ce qui nous intéresse ici, c'est une partie de cette littérature, qui est la littérature du voyage dans l'ère moderne, et exactement selon l'un des leaders de la culture et de la littérature, et celui aux cultures à la fois historique et littéraire (Abi Al-Qasim Saad Allah) à travers les voyages qu'il a accomplis, dont il a dit des expériences dans la littérature du voyage, et le titre avec lequel le livre a été étiqueté. Celui qui a inclus ses voyages est suffisant pour transmettre ce que nous voulions savoir sur ses voyages en particulier, et les voyages de son époque en général. Et l'expérience, c'est essayer, mais ce n'est pas toujours atteindre ce que les anciens voyageurs atteignaient dans cet art quant à leur description de ce qu'ils voyaient, et ce qui s'est imprimé dans leur imagination sur l'autre... Les voyages des anciens sont plus mûris que les voyages des derniers. La raison est due à des facteurs, dont nous avons mentionné quatre dans cette recherche, y compris : le temps et les moyens... Par conséquent, cette étude est venue répondre à un problème qui dit : « Dans quelle mesure Abu al-Qasim Saad Allah était-il capable dans ce type ? de l'écriture, à travers laquelle il a voulu imiter ses auteurs ? A-t-il des ajouts ? » Un nouveau avec lequel il faut compter à cet égard, tant sur la forme que sur le fond ?. Un ensemble de questions s'est cristallisé à partir de ce problème. fait partie intégrante de la réponse au problème, tournant autour de : Quel est le parcours en termes de langage et d'usage, et ses motifs et étiquette les plus importants... C'est en termes d'activité et d'acte naturel qu'une personne accomplit, mais en termes de littérature, mes questions tournaient autour du concept de littérature de voyage, les débuts de sa codification, et s'il s'agissait d'un genre ou non, et les divisions formelles et la structure artistique de ces textes, comme nous en étions sur certaines des choses qui a introduit cet art nouveau dans le cercle de la littérature, et à la fin, nous avons conclu la recherche en retraçant les découvertes les plus importantes.